مجـدي كامل

فريدريك نيتشه

Friedrich Nietzsche

شيطان الفلسفة الأكبر

حياته.. فلسفته التصادمية ..مؤلفاته.. آراؤه في المرأة..
موقفه من الأخلاق والإنسان والأديان والعرب واليهود

فريدريك نيتشه..
شيطانُ الفلسفةِ الأكبرُ!!



حياته.. فلسفته التصادمية.. مؤلفاته.. آراؤه في المرأة..
موقفه من الأخلاق والإنسان والأديان والعرب واليهود

مجدي كامل

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشـــق - القاهــرة
٢٠١١

اسم الكتاب: فريدريك نيتشه .. شيطان الفلسفة الأكبر!!
إعداد: مجدي كامل
المراجعة اللغوية والتدقيق: طه عبد الرءوف سعد
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٠/١٧٧٢٠
الترقيم الدولي: 7 - 583 - 376 - 977 - 978

تطلب كافة منشوراتنا:
حلب: دار الكتاب العربي - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٨٧٠
دمشق: مكتبة رياض العلبي - خلف البريد - ت: ٢٢٣٦٧٢٨
مكتبة النوري - أمام البريد - ت: ٢٢١٠٣١٤
مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: ٢٢٢٨٢٢٢
مكتبة الفتال - فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦
فرع ثاني - ت: ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى
٢٠١١

سوريا- دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي تلفاكس: ٢٢٣٥٤٠١ ص ب ٣٤٨٢٥
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس: ٢٣٩١٦١٢٢/٢٣٩٣٣٦٧١
لبنان - تلفاكس: ٠٥/٤٣٤١٨٦ تليفون: ٠٣/٦٥٢٢٤١ - ص ب ٣٠٤٣ الشويفات
darelkitab@yahoo.com - darkitab - nassif@hotmail - com
عنوان الموقع: www-darketab-com - عنوان البريد الالكتروني التابع للموقع: info@darketab-com



ربما لم يعرف التاريخ فيلسوفاً يثير حوله جدلاً لا ينقطع في حياته وعند مماته ويستمر حتى يومنا هذا كما الحال مع هذا الفيلسوف الألماني.

لقد جاء فريدريك نيتشه الذي قال إن «الأقدار تختار التوقيت للأبطال» إلى العالم ليتصادم معه محدثاً دويا هائلاً لا يزال يتردد صداه حتى الآن.

وهذا الكتاب يتناول سيرة نيتشه الذي أحدث انقلاباً في كل شيء من اللغة إلى الشعر ومن الفن إلى الفلسفة ومن الدين إلى الأخلاق، وتصادم مع كل ثوابت عصره، فهدم منها الكثير، وقلب منها الكثير، ليستمر الجدل حوله دون توقف، وتستمر الاتهامات الموجهة إليه دون انقطاع.

الكتاب يتناول طفولة شيطان الفلاسفة الأكبر نيتشه، وطفولته المحطمة، ونشأته المعقدة، وكيف تدخلت في تشكيل عقليته وأخلاقه وأفكاره وآرائه وتوجهاته.

كما يتناول الكتاب فلسفة نيتشه بكل أبعادها ونظرياتها وأفكارها الرئيسة، ومواقفه من فلسفات عصره وما سبقها من فلسفات، وكذلك موقفه من المرأة، وعلاقاته النسائية التي لم يكتب لها أبداً نهايات سعيدة، وكذلك مسئوليته عن تشكيل فكر النازي أدولف هتلر، وموقفه من الأديان والعرب واليهود مع عرض لأهم مؤلفاته.

هذا الكتاب هو محاولة جادة لبلوغ كل المصادر الأجنبية والعربية والكتابات التي تناولت هذا الفيلسوف، وتقديم وجبة ثقافية شاملة عن رجل صدم العالم في عصره وما تلاه من عصور!

مجدي كامل

1

الفصل الأول

نيـتــشــه... الطفل المعـذب

والفــيلســوف المجنون!!



يعد نيتشه أحد أهم الفلاسفة في تاريخ الفكر الغربي والإنساني، فإسهاماته المتجاوزة لعصره في فلسفة الأخلاق، أوجدت أثرًا كبيراً على الفكر العالمي في القرن العشرين.

ويُعد نيتشه الفيلسوف الوحيد الذي تفلسف بوجوده، و كانت فلسفته الوجه الآخر لحياته. ولِمَ لا.. أليس هو القائل: «أهمل الفلسفة وانظر إلى الفيلسوف»!

نيتشه فيلسوف وشاعر ألماني، ولد في الخامس عشر من أكتوبر عام ١٨٤٤ وكان من أبرز الممهدين لـ علم النفس، وكان عالم لغويات متميزاً. كتب نصوصاً وكتباً نقدية حول المبادئ الأخلاقية، والنفعية، والفلسفة المعاصرة، المادية، المثالية الألمانية، الرومانسية الألمانية، والحداثة عُموماً بلغة ألمانية بارعة.

ويُعد نيتشه من بين الفلاسفة الأكثر شيوعاً وتداولاً بين القراء. كثيراً ما تفهم أعماله خطأ على أنها حامل أساسي لأفكار الرومانسية الفلسفية والعدمية ومعاداة السامية وحتى النازية لكنه يرفض هذه المقولات بشدة ويقول بأنه ضد هذه الاتجاهات كلها.

وفي مجال الفلسفة والأدب، يعد نيتشه في أغلب الأحيان إلهاماً للمدارس الوجودية وما بعد الحداثة. روَّج لأفكار توهم كثيرون أنها مع التيار اللاعقلاني والعدمية، استخدمت بعض آرائه فيما بعد من قبل أيديولوجيي الفاشية.

وقد رفض نيتشه الأفلاطونية والمسيحية الميتافيزيقية بشكل عام، ودعا إلى تبني قيم جديدة بعيداً عن الكانتية والهيغيلية والفكر الديني والنهلستية. سعى نيتشه إلى تبيان أخطار القيم السائدة عبر الكشف عن آليات عملها عبر التأريخ، كالأخلاق السائدة، والضمير.

يعد نيتشه أول من درس الأخلاق دراسة تأريخية مفصلة. قدم نيتشه تصوراً

مهماً عن تشكل الوعي والضمير، فضلا عن إشكالية الموت. كان نيتشه رافضا للتمييز العنصري ومعاداة السامية والأديان ولاسيما المسيحية لكنه رفض أيضا المساواة بشكلها الاشتراكي أو الليبرالي بصورة عامة.

ولد نيتشه لقس بروتستانتي وكان العديد من أجداده من جهتي الأب والأم ينتمون للكنيسة. سماه والده فريدريك لأنه ولد في نفس اليوم الذي ولد فيه فريدريك الكبير ملك بروسيا، حيث كان والده مربياً للعديد من أبناء الأسرة الملكية وعاش حياة مدرسية عادية ومنضبطة، وسماه أصدقاؤه القسيس الصغير لقدرته على تلاوة الإنجيل بصوت مؤثر.



نيتشه في مطلع شبابه

تأثر في شبابه بوحدة ألمانيا وزعيمها بسمارك ورأى فيه كمالاً للشخصية الألمانية (أوتو إدوارد ليوبولد فون بسمارك رجل دولة وسياسي ألماني ولد في أول أبريل ١٨١٥ ورحل في ٣٠ يوليو ١٨٩٨، شغل منصب رئيس وزراء بروسيا من سنة ١٨٦٢ حتى سنة ١٨٩٠، من أبرز أعماله توحيد الولايات الألمانية في مملكة واحدة سميت المملكة الألمانية أو «الرايخ الألماني الثاني»، كان فيه المستشار الأول له بعد قيامه في سنة ١٨٧١، اشتهر بسمارك بلقب «المستشار الحديدي». ولعب دوراً مهمّاً حين كان مستشاراً للرايخ الألماني وأثّرت أفكاره على السياسة الداخلية والخارجية لألمانيا في نهاية القرن التاسع عشر).

توفي والد نيتشه وهو في الخامسة عشرة من عمره فعرف انقلاباً وجهه إلى التشاؤم واكتشف في نفس الوقت الفيلسوف الألماني شوبنهاور وانغمس في قراءة أعماله «آرثر شوبنهاور (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠م) فيلسوف ألماني، معروف بفلسفته التشاؤمية يرى في الحياة شرّاً مطلقاً فهو يبجل العدم ويرى في الانتحار شيئا جيداً وقد كتب كتاب «العالم فكرة وإرادة» الذي وضع فيه زبدة فلسفته فلذلك تراه يربط بين الإرادة والعقل فيرى أن العقل أداة بيد الإرادة وتابع لها. فيلسوف ألماني تشاؤمي ملحد» لقد لاحظ شوبنهار أن الوجود يقوم على أساس من الحكمة، والخبرة، والغائية، وأن كل شيء في الوجود دليل صادق على إرادة الفاعل، وقدرته، وحكمته. وخبرته، وإتقانه. المزاج الفاسد لشوبنهاور ونزعة الحقد والكراهية التي تملأ نفسه، ثم الود المفقود، والعداء الموجود بينه وبين كل عناصر الحياة والأحياء، دفع به إلى اختيار نوعية معينة من الكتب، وكان اختياره منصباً على دراسة بوذا، ثم كتب عن الديانة الهندية، وكان من آثار ذلك أن ازداد شعوره بالكراهية للعالم، وتعمق لديه الإحساس بأن الحياة شر، وأن الحياة ليس فيها إلا الألم والمرض والشيخوخة والموت. والديانة الهندية تقوم على أن الحياة قائمة على أنواع من الشرور الطبيعية والخلقية. وفي الحديث عن غريزة الجنس، شوبنهاور له موقف خاص جدّاً من هذه الغريزة، وموقفه هذا كان أساساً لمواقف بعض الفلاسفة، وسنداً لمذاهبهم، وتحديداً مذهب فرويد في علم النفس

ومدرسته التي قامت على أساس من التركيز على دافع الجنس. شوبنهاور يعلي من شأن الدافع الجنسي لدى الإنسان والحيوان، ويجعل منه الركيزة الأساسية التي تدور عليها حياة الفرد والجماعة، بل يجعل منه الأساس الأوحد الذي تدور عليه الحياة عند كل الكائنات، وبخاصة الإنسان، ومن ثم فإن الجنس هو مفتاح السلوك الإنساني، وعلى أساس منه يمكن تفسير كل سلوك إنساني من الألف إلى الياء).

كما عشق نيتشه الموسيقى الكلاسيكية وقام بمحاولات لتأليفها. في الجامعة، درس نيتشه الفيلولوجيا وتعلَّم اللغات القديمة واهتم في سنة التخرج بالمسرح والفلسفة الإغريقية القديمة حيث فضَّل الفلاسفة الذريين (الذين آمنوا بأن الذرات هي التي تشكل المكونات النهائية للمادة وظهروا في القرن الخامس قبل الميلاد) على الذين ظهروا فيما بعد كسقراط وأرسطو وتأثر بالفلسفة الأبيقورية بشكل خاص. على الرغم من ضعف بصره وكونه الابن الوحيد لأمه الأرملة، إلا أنه طُلب للخدمة العسكرية في الجيش الألماني المتصف بالصرامة وهناك وقع عن صهوة حصانه مما دفع بقائد فرقته أن يعفيه من الخدمة بعد إصابته ولكن نيتشه ظل طول عمره متأثراً بالحياة العسكرية والأخلاق الإسبارطية التي عرفها في الجيش. بدأ نيتشه كتاباته بكتاب مولد المأساة الذي يتحدث فيه عن الأساطير الإغريقية وارتباط الحضارة بالموسيقى حيث كان نيتشه قد تعرَّف على الموسيقار الألماني الشهير ريشارد فاغنر ورأى فيه تجسيداً للعبقرية وعاش معه فترة رافقه فيها في رحلاته ولكن سرعان ما انقلب نيتشه ضده وكانت القطيعة بينهما هي الشرارة التي أطلقت فكر نيتشه مثل العاصفة على القيم الأوروبية إذ رأى في المسيحية انحطاطاً وأن النمط الأخلاقي الصائب هو النمط الاغريقي الذي كان يمجد القوة والفن ويستخف بالرقة والنعومة وطيبة القلب التي رآها من صفات المسيحية (ريشارد فاغنر كان مؤلفاً موسيقياً وكاتباً مسرحياً ألمانياً، ولد في لايبزغ، ألمانيا سنة ١٨١٣، وتوفى في البندقية، إيطاليا سنة ١٨٨٣، وهو الابن الأصغر مع تسعة أولاد.

ولد ريشارد في نفس عام معركة الأمم بين جيش نابليون وجيوش الحلفاء (السويد، النمسا بروسيا، روسيا). لم يبد أي اهتمام موسيقي في طفولته وكان عنيدا جدا»

كان أول أعماله الفنية ملحمة استوحاها من موت صديق له وعدد الذين ماتوا أو قتلوا في الملحمة (٢٦ شخصاً). كان معلما على الجوقة الموسيقية في الكنيسة المُلحقة بالبلاط الأميري في درسدن (حاضرة إمارة سكسونيا في ألمانيا). اعتنق الأفكار الثورية، فحلت عليه نقمة أولياء نعمته، واضطر إلى الهرب إلى سويسرا ليستقر بها لفترة من الوقت (١٨٤٩ ـ ١٨٦١). تلقى مساعدة من الموسيقار «فرانتز ليست» حيث ساعده في إقامة حفلاته الموسيقية، (قام لاحقا بالزواج من إحدى بناته، وتدعى «كوسيما»)، كما دعمه «لودفيغ الثاني» (حاكم مملكة بافاريا) أثناء الفترة التي قضاها في إنجاز أعماله الأوبرالية الكبيرة فكان يعطيه ما يحتاجه من مال ليسدد ديونه ولحياته المترفة. ابتعد في أعماله عن الأوبرا الإيطالية وأسلوبها التاريخي (كانت تعالج المواضيع التاريخية)، فتجنب التأنق الصوتي الذي اشتهرت به هذه الأخيرة مفضلاً أن يعطى الدور الأول للأداء الأوركسترالي. كان من أنصار المسرح الأسطوري (اقتبس أعماله من الأساطير الجرمانية القديمة)، استطاع أن يجمع بين النص والموسيقى، وأن يوفق بين الأصوات والآلات الموسيقية، كما أن طريقته في إعادة تكرار الفكرة الرئيسة عبر المشاهد المختلفة مكنته من أن يحافظ على تماسك الموضوع. ويعتبر رائد النزعة الرومانسية في الموسيقي الألمانية).

وقد لام نيتشه الجامعات والمعاهد الألمانية على نبذها لشوبنهاور وغيره من الفلاسفة مما حدا بهم إلى نبذه هو الآخر حيث رأوا فيه عالماً لغوياً لا غير، وإن كان كتابه «المأساة» قد لاقى بعض المديح ثم أصيب نيتشه بمرض شديد وشارف على الموت حيث أوصى أخته «أن لا تدعو قسيساً ليقول الترهات على قبري أريد أن أموت وثنياً شريفاً»، ولكنه بعد ذلك شفي وذهب إلى جبال الألب ليتعافى وهنالك كتب كتابه الأشهر «هكذا تكلم زرادشت» الذي مزج شعراً قوياً وحساساً

مع مبادئ فلسفية مبتكرة وواقعية ونداء إلى نظرة فلسفية جديدة حيث أعاد النظر بالمبادئ الأخلاقية الفلسفية ولم تعد بعده الفلسفة الأخلاقية كما كانت.

كتب نيتشه بعدها العديد من الكتب ولكنها كلها كانت تقريباً تعليقاً على هذا الكتاب الذي كان يعتبره إنجيله الشخصي ولكنه واجه صعوبات كبيرة في نشره ولم يلق الكتاب ترحيباً كبيراً في أوساط الجامعات الألمانية المتمسكة بالمثالية الهيغيلية.

كانت علاقة نيتشه بأخته قوية وكان يحبها حبّاً كبيراً لذا تألم كثيراً عندما تزوجت برجل لا يحبه وسافرت لتقيم في مستعمرة اشتراكية في الأوروغواي، كما أنه وقع في الحب عدة مرات لكنه فشل بسبب عينيه الحادتين ونظراته المخيفة برأي الفتيات لذا اتسمت حياته بالكآبة حتى نهايتها.

عانى نيتشه في نهاية حياته من مرض عقلي حيث دخل المصح العقلي لكن أمه العجوز سارعت بإخراجه ليعيش معها إلى أن توفي.

يعد فريدريك نيتشه من أهم فلاسفة أوروبا على الإطلاق حيث تغذي أفكاره العديد من التيارات الفكرية ويعزو الكثير من الناس إلى أفكاره ومبادئه ظهور الحزب النازي وقيام الحرب العالمية الثانية التي تنبأ بها وتوقعها.

وهناك كتاب صغير لنيتشه نادراً ما يذكره أحد، على الرغم من أنه الوحيد الذي يتحدث فيه عن حياته الشخصية. وبالتالي فهو يشبه السيرة الذاتية. إنه كتاب رائع يتخذ العنوان التالي: «هذا هو الإنسان. كيف يمكن أن تصبح من أنت». في هذا الكتاب ذي الأسلوب الشاعري الذي لا يضاهى، يلقي نيتشه نظرة إلى الوراء، على مساره السابق لكى يقيِّم أعماله ومنجزاته. وقد كتبه قبل أن يصاب بالجنون ببضعة أشهر فقط. ولم ينشر إلا بعد موته بثمانى سنوات: أي عام ١٩٠٨م.

في الواقع إن علائم الجنون تتبدّى على الكتاب بين الحين والآخر، وبخاصة عندما يعظّم نيتشه من نفسه إلى أقصى الحدود، في حين أنه كان ينبغي أن يترك هذه المهمة للآخرين.. فهو يفاجئك بعبارات أو شطحات تدل على جنون

العظمة، ما كانت معروفة لديه سابقاً، أو قُلْ ما كانت معروفة بمثل هذا الشكل والحجم. يحصل ذلك كما لو أنه كان قد اقترب من منطقة الخطر الأعظم وأوشك على السقوط في فوهة الهاوية.

عندما قرأت هذا الكتاب لأول مرة قبل بضع سنوات، وكنت مستلقيا على السرير، كدت أقوم وأقعد من شدة الفرح والاستمتاع، أو من شدة الضحك والهيجان، أو من الاثنين معاً.. لقد هزَّني هزاً لأني لم أر في حياتي أسلوباً بمثل هذه الروعة والقوة. لست بحاجة لأن تلجأ إلى المتنبي أو بودلير، أو رامبو، لكي تشبع نفسك بالشُّحن الشعرية إذا كنت متعوداً عليها منذ الصغر.

إذا كان يطربك الفن وينقصك سحر البيان أو «لذة النص» كما يقول رولان بارت فإني أنصحك وأنصح نفسي بقراءة كتاب نيتشه هذا. وأنا أضمن لك بأنك لن تكل ولن تمل مهما جالسته وعاشرته، بل وربما طلبت المزيد وأسفت عليه لأنه انتهى. وكل كتاب سوف ينتهي لا محالة بصفحة أخيرة. منذ بضعة أيام شعرت بالحاجة إلى «الإشباع الشعري» فعدت إلى الكتاب من جديد وأطربني كما أطربني منذ عشر سنوات أو يزيد. وقلت بيني وبين نفسي: يحيا الأسلوب! يحيا الفنان! يحيا فريديريك نيتشه! نعم إني أحب الكُتَّاب الذين يعرفون كيف يكتبون ويحلِّقون في الأعالي. ولكن كم هو عددهم أولئك الذين يرتفعون بك إلى قمة القمم؟ ألا يعد أشباه نيتشه في التاريخ على أصابع اليد الواحدة، أو ربما اليدين؟ هناك دوستيوفسكي بالطبع، وجان جاك روسو، وإن بشكل آخر وبعض الآخرين.

على أي حال إذا ما اقتصرنا على ذكر الفلاسفة، فإني لا أعرف فيلسوفاً واحداً يستطيع أن يضاهي نيتشه من حيث جمال الأسلوب. أقول ذلك وأنا أتحدث عن الترجمة الفرنسية، فما بالك بالنص الألماني ! هناك فلاسفة كبار ومحترمون جدا، ولكن أسلوبهم وعْر وجاف يكاد يقتلك قتلاً. أذكر من بينهم كانط في الماضي أو هابرماس في الحاضر على سبيل المثال لا الحصر.. إن نيتشه هو القطب المضاد لذلك تماماً. هل يمكن القول بأن نيتشه هو شاعر الفلاسفة، وفيلسوف الشعراء؟.. بدون شك. كما قالوا ذلك عن المعري سابقا أو كما وصفوا التوحيدي بأنه أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء؟.

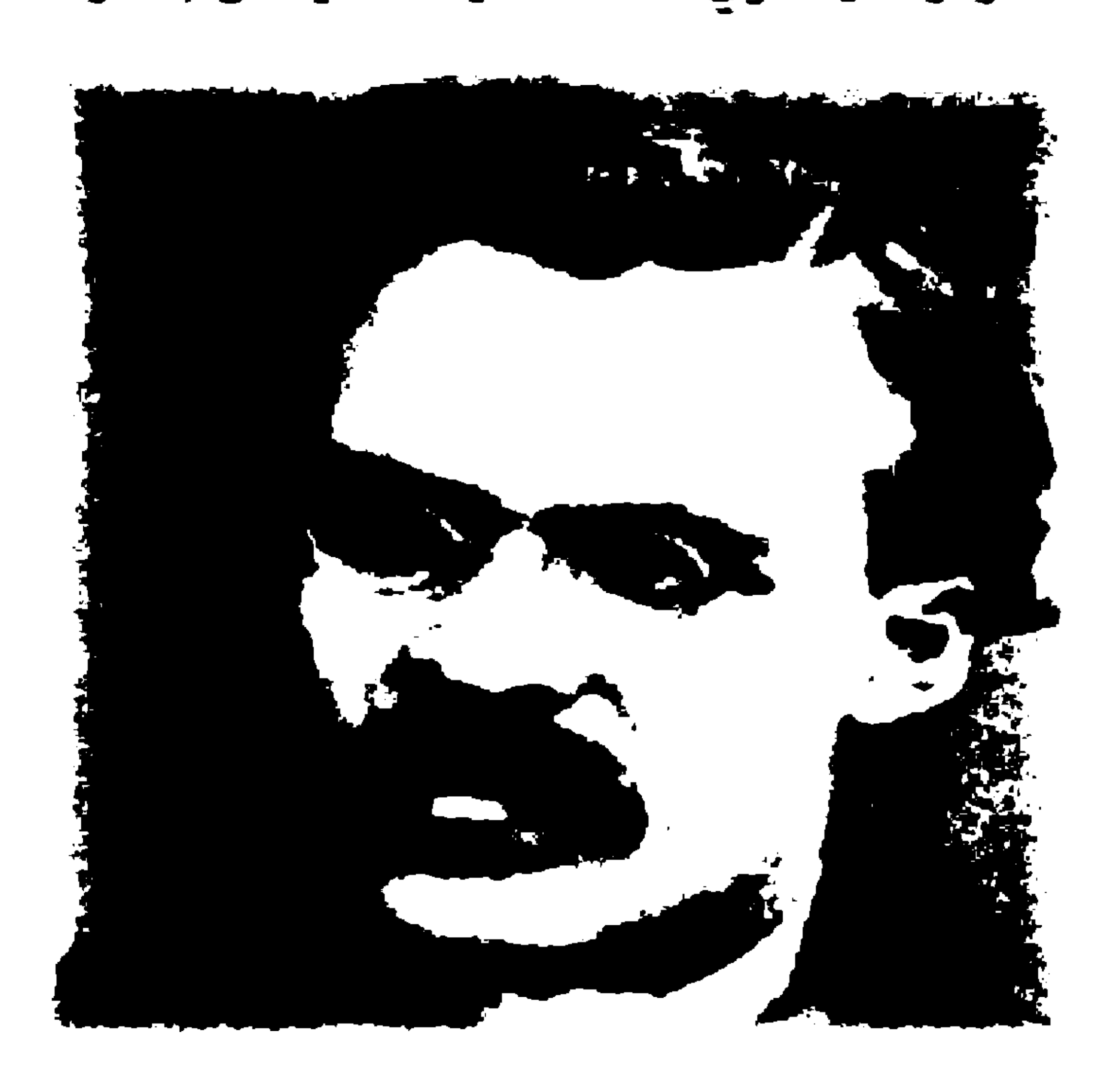
أعجبني كتاب نيتشه إذن لأن فيه نغمة محبَّبة، نغمة شجية مليئة بالحزن والعظمة أحياناً، ثم بالسخرية والتهكم أحيانا أخرى.فعلى الرغم من أنه مفكر تراجيدي إلا إنه قادر على السخرية حتى من نفسه ومن البشرية بأسرها.. إنه يصمعد بك إلى الأعالي ثم يهبط بك فجأة إلى أسفل سافلين ويتلاعب بك كيفما شاء. وشعرت وكأنه يرثي نفسه منذ أول صفحة. شعرت وكأنه يستأذننا بالانصراف ويقول: وداعاً. وداعاً لقد تعبت وأديت مهمتي.. ولكن هل كان يعرف أنه سيجن بعد بضعة اشهر او حتى بضعة أسابيع؟ مهما يكن من أمر فإنه في الوقت ذاته يصبُّ علينا، أو قُلّ على معاصريه، جام غضبه وتوبيخه إن لم يكن نفاد صبره لأنهم لم يعرفوه.

فنيتشه لم يشتهر في حياته على عكس ما نظن، ولم يسمع به أحد تقريبا خلافا لدوستيوفسكي، أو لروسو، أو لفوته إلخ.. نيتشه لم يستمتع بشهرته على الإطلاق ولم ينل أي شعبية في حياته. كُتَّاب الدرجة الثانية أو الثالثة كانوا معروفين ويحظون بالأبهة والعظمة وهو مغمور تماما. وهذا شيء لا يكاد يصدق الآن..أكبر كاتب في اللغة الألمانية عاش ومات دون أن يشعر به أحد تقريبا!هل هذا معقول؟ لنستمع إليه يقول منذ الصفحة الأولى:

«بما أني نويت أن أوجه للبشرية خلال فترة قصيرة أكبر تحدٍّ شهدته في تاريخها كله، فإنه ينبغي عليَّ أن اقدم نفسي، أن أقول من أنا. من أنا في نهاية المطاف؟ في الواقع إنه كان ينبغي على الناس أن يعرفوا من أنا لأني لست من أولئك الذين عاشوا أو ماتوا دون أن يتركوا شهادة أو أثراً على مرورهم فوق هذه الأرض. ولكن التفاوت الهائل بين عظمة مهمتي وصَغَار معاصريَّ تجلى في الحقيقة التالية: وهي أن أحداً لم يسمع بي ولم يرني! أنا أعيش فقط على الرصيد الذي أوليه لنفسي، على إيماني بذاتي. وربما كان وجودي ذاته عبارة عن وهم؟ أنا شخص غير موجود على الإطلاق ! يكفي أن أتحدث مع أي «مثقف» ألماني يجيء إلى سويسرا حيث أقيم لكي أتأكد من أني غير موجود أبداً. لا أحد يسمع بي. لا أحد يعرف من هو فريديريك نيتشه!.. ولذلك فإن من واجبي أن

أقول لكم محذرا: اسمعوا أيها الناس: فأنا كذا وكذا، ولست كذا وكذا. إياكم ثم إياكم أن تغلطوا فيّ أو تخلطوا بيني وبين أي شخص آخر!».

عندما كتب نيتشه هذا الكلام، هل كان يعرف مسبقاً أنهم سيفهمونه خطأ؟ هل كان يعرف أنهم سوف يفسرون كتاباته في اتجاه غير الذي يريد؟ هل تنبأ بالأحداث التالية قبل حصولها؟ في الواقع إن هذا ما حصل لاحقاً مع الحركات النازية والفاشية. ومعروفة قصة هتلر حيث حاول بكل الوسائل السطو على شهرته بعد أن مات. ومعلوم أنه زار بيت الفيلسوف وانحنى أمام صورته أو تمثاله وسلم على أخته إليزابيت التي كانت قد بلغت من العمر عتيا والتي كانت نازية بالفعل. وقد أهدته عصا أخيها التي كان يستخدمها في نزهاته الطويلة في أحضان الطبيعة. ومعروف أنه كان مشاء كبيرا في الوديان والجبال. وكان ذلك أكبر خيانة لهذا المفكر العملاق الذي قد نختلف معه في أشياء كثيرة، ولكن لا يمكن أن نشك لحظة واحدة في حبه للحقيقة. صحيح أن أسلوبه ناري، بركاني، يشبه الانفجار المكبوت الصادر من أعماق الذات. وربما كان هتلر في خطاباته النارية يجسد هذا التوتر النيتشوي. هذه حقيقة لا يمكن إنكارها.



نيتشه في بداية مشواره الفلسفي

وصحيح أن ذلك قد أدى إلى سوء تفاهمات عديدة وساعد على فهم فكره في الاتجاه الخطأ. ولكن نيتشه ذهب إلى أساس الأشياء في مساءلة الحقيقة، في الدوران حولها والبحث عنها، وهذا شيء لا نتوقع أن يفهمه شخص كهتلر أو سواه من الهمجيين.. يضاف إلى ذلك أن نيتشه لم يكن عنصرياً جرمانياً على الإطلاق. بل طالما هاجم الألمان وندد بهم ودعا إلى التهجين بين الأعراق والشعوب من أجل التوصل إلى عنصر أفضل: إلى السوبرمان. كما ركز على مفهوم إرادة القوة والهيمنة واعتبره محرك التاريخ السياسي للأمم والشعوب بل وحتى للأفراد. هذا في حين أن كارل ماركس قال بأن صراع الطبقات هو محرك التاريخ، وفرويد قال بأن الليبيدو أو الغريزة الجنسية هي الدافع الأساسي والمحرك.

وربما كان أعمق مفكر شهده تاريخ الفلسفة فيما يخص طرح الأسئلة الكبرى على الوجود البشري ومعنى الحياة والموت والصيرورة والغائية الأخيرة، إلخ.. ولكن للأسف الشديد فإن بعض صياغاته الحامية ضد الضعفاء أو الفقراء أو المرضى أو حتى ضد الديمقراطية وحقوق الإنسان وجوهر الحداثة التنويرية قد ساهمت في تسهيل الاستيلاء على أفكاره من قبل هتلر والنازيين أو موسوليني والفاشيين. وبالتالي فليس هدفي هنا أن أدافع عن نيتشه بأي شكل.. إني أعرف أن بعض أفكاره غامضة أو ملتبسة أو حتى مشبوهة وبخاصة عندما يهاجم سقراط أو المسيح ذاته بكل عنف، وكذلك كانط وهيغل وكل التراث العقلاني للفلسفة الأوروبية. ولهذا السبب صنفوه في خانة الفلاسفة اللاعقلانيين بل وأول مفكري فلاسفة ما بعد الحداثة التي أنجبت لاحقا هيدغر وفوكو وديلوز ودريدا وجان فرانسوا ليوتار إلخ.. وشكّل بذلك أول انقلاب على الحداثة الليبرالية الديمقراطية التي طالما تعب جون لوك وكانط وهيغل وعشرات غيرهم في تأسيسها والتي تشكل مفخرة الغرب بالقياس إلى كل الشعوب.

وإذا ما أجبرت على الاختيار بينه وبين كانط أو جان جاك روسو فإني سأختار كانط وروسو بدون أدنى تردد. فنيتشه يخيفني بل ويرعبني بتطرفه واحتقاره للشعب أو "للقطيع" وتمجيده للأرستقراطية والنزعة النخبوية. ولكني لا أستطيع

أن أقاوم جاذبية أسلوبه وتفكيكه لكل الانغلاقات العقائدية. هنا لا يجاريه أحد.. لنستمع إليه عندما يحلّق عالياً:

«من يعرف كيف يتنفس هواء كتاباتي يعرف أنه هواء الأعالي، هواء لاذع يعضّ.. وينبغي على المرء أن يكون مهيأ له، وإلا فإن الخطر عظيم في أن يصاب بالبرد... الصقيع اقترب، والوحدة مرعبة: ولكن كم تبدو الأشياء فيهما رائعة وهي تسبح في بحر من الأنوار!... وكم يستطيع المرء أن يتنفس فيهما بحرية! وكم من الأشياء تشعر وكأنها تحتك!».

ثم يصل إلى الفلسفة وكيف يفهمها ويمارسها ويقول:

«الفلسفة كما كنت قد فهمتها دائماً وعشتها تعني أن تعيش في الصقيع فوق القمم... إنها تعني أن تبحث في الوجود عن كل ما يجعلك تغترب عن نفسك وتطرح أسئلة على ذاتك ويقينياتك الحميمة. إنها تعني البحث عن كل ما حُذِف من قبل الأخلاق التقليدية. لقد اكتسبت تجربة طويلة من خلال اقتحامي للمناطق الممنوعة المحرَّمة، من خلال توغُّلي في الأعماق والأقاصي، هناك حيث لا يذهب أحد ولا يغامر مخلوق قط.. وعندئذ اكتشفت الأسباب التي دفعت بالناس، وعلى مدار العصور، إلى تقديس هذا أو ذاك، وإلى رفعه إلى مرتبة المثال الأخلاقي الأعلى. وعندئذ أيضاً تبدت لي الحياة المخبوءة للفلاسفة على حقيقتها، وفهمت نفسياتهم وشخصياتهم. واكتشفت فيما بعد أن المعيار الحقيقي للقيم هو التالي: كم هو مقدار جرعة الحقيقة التي يستطيع فيلسوفٌ مًا أن يتحملها، أن يخاطر بها أو من أجلها؟ هذا هو السؤال الأساسي، وكل ما عدا ذلك تفاصيل ثانوية..».

ما الذي يقصده نيتشه بهذا الكلام؟ وكيف يمكن أن نفهم هذا التعريف الغريب والمفاجئ للفلسفة؟

في الواقع إن نيتشه سمح لنفسه بأن يشك في كل شيء، وأن يدفع ثمن هذه الشكوك حتى انهار عقله أخيراً وجُنَّ. فقد شك في جميع العقائد التي توالت

على البشرية منذ أقدم العصور وحتى وقته. وكشف عن طابعها النسبي أو التاريخي في حين أنها كانت تقدم نفسها كحقائق مطلقة، مقدسة، متعالية. هذا ما فعله مع الأفلاطونية أولا ثم مع المسيحية ثانيا، هذه المسيحية التي تربًى عليها منذ نعومة أظفاره لأن اباه كان كاهناً بروتستانتياً وكذلك جده وربما جد جده. ومعلوم أنه كان يدعوها بأفلاطونية الشعب، أي أفلاطونية سطحية مبتذلة! ومعلوم أيضا أنه أعلن عن موت الإله المسيحي القديم في نص مشهور لا أعرف أجمل منه شكلاً ولا مضموناً. إنه نص مرعب بالمعنى الحرفي للكلمة ولا أعرف فيما إذا كان قد ترجم إلى العربية. والمقصود بذلك أن التدين المسيحي التقليدي قد انتهى في أوروبا بعد انتصار العلم والصناعة والفلسفة الوضعية في القرن التاسع عشر: أي في عصر نيتشه بالذات.

وبالتالي فإن نيتشه انخرط، بكل شجاعة وجرأة، في أكبر مغامرة فكرية: تفكيك الذات أو العقائد الأكثر حميمية وقدسية، أي العقائد التي كانت قد شكّلت الذات وهي لا تزال غضة، طرية، بعمر الورد.. هنا تكمن عظمة نيتشه: فقد خاض معركة الصراحة والحقيقة مع ذاته حتى آخر لحظة، حتى آخر قطرة، حتى آخر نقطة.. وهذا هو معنى كلامه: كم هو مقدار جرعة الحقيقة التي تستطيع أن تتحمَّلها، أو تخاطر بنفسك من أجلها؟ لم يتجرأ مفكر آخر على تعرية العقائد السابقة أو تفكيكها ونزع هالة القدسية عنها مثلما فعل نيتشه. لقد كان يتفلسف «والمطرقة في يده» كما يقول من أجل تحطيم الأوهام والأصنام المعبودة من قبل البشر أو التي نصبها البشر كأصنام ثم راحوا يعبدونها وكأنها تتعالى عليهم، كأنها ليست من صنعهم. انظر بهذا الصدد كتابه: غسق الأصنام أو أفول الأصنام.

ربما كان نيتشه أكبر مفكر نقدي أو تفكيكي في تاريخ البشرية. إنه يمارس الفلسفة في أرض محروقة، فلا يبقي ولا يذر، لا أمامه ولا خلفه... إنه أكبر انقلاب في تاريخ الفلسفة، انقلاب يمحو كل ما سبق ويكتسح في طريقه كل شيء. من هنا لاعقلانيته الهائجة أو راديكاليته الخطرة والمدمرة. ولكن من هنا

أيضا الطابع التحريري الهائل لفلسفته أو لمنهجيته الجنيالوجية التي تذهب إلى أعماق الأشياء ولا تتوقف في منتصف الطريق كما يفعل بعض المفكرين الجبناء.

لكي أوضح كلامه بشكل أفضل فسوف أقول ما يلي: يسهل عليك أن تنتقد العقائد الدينية للآخرين، بل وتستهزئ بها لأنك لم تتربّ عليها منذ الصغر، لأنك لم تتشرّبها مع حليب الطفولة، لأنها ليست عقيدة آبائك وأجدادك.. ولكن حاول أن تسمع شخصاً آخر ينتقد عقيدتك الخاصة التي تربيت عليها، أو أن يكشف عن جذورها التاريخية فينزلها من سماء التعالي والقداسة إلى أرضية الواقع المعيش، وعندئذ سوف تعرف معنى الثمن المدفوع من أجل الحقيقة! عندئذ سوف تصطدم بمقاومة نفسية داخلية عنيفة وخطرة، مقاومة صادرة من أعماقك الدفينة. عندئذ سوف تواجه عرقلة داخلية تمنعك من التوصل إلى الحقيقة أو قبول الحقيقة فيما يخص دينك أو عقيدتك. عندئذ سوف تصطدم بالحقيقة المرة: وهي أن قبول الحقيقة أصعب أحيانا من تجرع السم الزعاف! فكل ما كنا نتوهم أنه مثالي علوي في عقيدتنا اكتشفنا أنه أرضي، تاريخي أو بشري عادي. من هنا عنوان كتاب نيتشه المعروف: بشري، بشري أكثر من اللزوم، بل وعادي مبتذل، وليس فيه أي شيء سماوي. بالطبع فإن هذا الكلام يصعقنا في الصميم، يصدمنا، يرعبنا. ولهذا السبب يقول نيتشه بأن البحث عن الحقيقة هو مسألة جرأة أو عدم جرأة بقدر ما هو مسألة معرفة أو ربما أكثر. إنه مسألة جرأة اقتحامية: بمعنى أن المفكرين الكبار هم وحدهم أولئك الذين يتجرأون على الاقتحام في اللحظة المناسبة ويكتشفون الحقيقة الصعبة في حين ينكص الآخرون على عقبيهم صاغرين.. ولهذا السبب كان فرويد يقول بما معناه: أنا لست عالما ولا مثقفا ولا مفكرا، أنا فاتح!.. ولذلك فإن الحقائق الضخمة لا تعطي نفسها إلا للمفكرين الكبار من أمثال: ديكارت، سبينوزا، روسو، كانط، هيغل، أو نيتشه نفسه، الخ. ولذلك يقولون لك: ينبغي ألا تعطي الحقيقة للعامة (أو الشعب) إلا على جرعات متتالية لكي يستطيعوا تحملها، تماما كالدواء الذي إذا أعطيته دفعة واحدة قد يقتل المريض بدلاً من أن يشفيه.

فالحقيقة قد تزلزل العامة أو تخلخل عقولها فتقوم برد فعل عنيف عليك وتقتلك. نضرب على ذلك مثلا الكشف عن تاريخية العقائد الدينية أو النصوص الأكثر قداسة سواء في اليهودية أو المسيحية أو الإسلام. وقد سالت الدماء في أوروبا أنهاراً بسبب ذلك في القرون الماضية واضطر الكثير من المفكرين إلى الهرب أو الاختفاء أو نشر كتبهم بدون توقيع لأن الحقائق التي اكتشفوها كانت مرعبة أو مضادة لكل ما هو سائد.. ومنهم من قتل كجيوردانو برينو الذي أنكر عذرية مريم !! من جملة أشياء أخرى.. ونضرب على ذلك مثلاً أيضا الأطروحة التي تقول بأن الأرض هي مركز الكون وأنها ثابتة لا تتحرك و أن الشمس هي التي تدور حولها وليس العكس. فقد كانت تشكل حقيقة مطلقة لا يرقى إليها الشك. وقد عاشت عليها البشرية طيلة ألفي سنة (أي حتى مجيء كوبرنيكوس وغاليليو). فنحن الذين نعيش على الأرض نشعر فعلا بأنها ثابتة لا تتحرك ونرى فعلا أن الشمس هي التي تدور حولها. ولكننا لا نعرف بأن الحواس تخدعنا وأن المظاهر تخدعنا وأن أول شيء يفعله العلم الفيزيائي هو تحييد الحواس من أجل اكتشاف الحقيقة الحقيقية.

وكانت هذه المقولة، أي مقولة مركزية الأرض، مدعومة من قبل هيبة أرسطو وبطليموس والعقيدة اللاهوتية المسيحية في آن معا. وبالتالي كانت تمثل حقيقة مقدسة بالمعنى الحرفي للكلمة. ومن يشك فيها كان يعتبر مجنوناً أو كافراً ينبغي معاقبته أشد العقاب. ثم أدى تقدم العلم إلى الإطاحة بهذه «الحقيقة» الكبرى بل والمقدسة بالنسبة لملايين البشر في عهد غاليليو وحتى ما بعده بزمن طويل. وانكشفت عن كذبة كبرى. ولزم على الناس أن يتقبلوا الحقيقة الجديدة على جرعات متتالية طيلة مائتي سنة حتى أصبحت حقيقة راسخة وحلت محل "الحقيقة" القديمة التي هي خاطئة في الواقع ولكنها فرضت نفسها كحقيقة مطلقة طيلة قرون وقرون.

نضرب على ذلك مثالاً آخر: اكتشاف بشرية يسوع أي طابعه الأرضي المحض من قبل النقد التاريخي الحديث ثم التفريق بين يسوع الأسطوري ويسوع

التاريخي، أو اكتشاف أن التوراة (الحالية) لم تكتب في عهد موسى وإنما بعده بزمن طويل. ثم هناك اكتشافات أخرى لا تقل أهمية كملاقة طوفان نوح أو نومة أهل الكهف بأسطورة غلغامش أو عموما تأثر بعض الأديان السماوية بالأديان الأرضية وعقائد الشرق الأوسط القديمة إلخ.. فهذه الاكتشافات أنزلت الأديان السماوية من عليائها إلى أرضية التاريخ البشري وزلزلت الوعي المسيحي واليهودي عندما حصلت في القرن التاسع عشر.

ولذلك صرخ نيتشه قائلاً عبارته الهائلة التي لا أجد أقوى منها في تاريخ الفكر: آه أيتها الحقيقة يا أكبر كذبة في التاريخ!! أقول ذلك وأنا أعتذر للمؤمنين المسيحيين الذين أحترم عقيدتهم وإيمانهم كل الاحترام وأعتبر أن المسيح هو من العظمة إلى درجة أن الألوهية لو أعطيت لبشر لكانت له كما قال جان جاك روسو في نص رائع خالد. كما أعتذر لبقية المتدينين لأنه لا يوجد دين واحد إلا ويحتوي على بعض العقائد التي تخرج عن سيطرة العقل تماما وتفرض نفسها عن طريق التلقين والتسليم الإيماني الكامل. أقول ذلك وأنا أفكر بمقولة القرآن غير المخلوق والتي فرضت نفسها كحقيقة مطلقة في الإسلام بعد هزيمة المعتزلة قبل ألف سنة وسحقهم سحقا من قبل الحنابلة. كما أفكر بتلك القصة الرائعة، قصة الإسراء والمعراج، التي سحرتنا ونحن أطفال عندما كان قلبنا يدق بقوة ونحن نرى النبي وهو يصعد درجة، درجة، حتى وصل إلى السماء السابعة ودخل على الحضرة الإلهية لأول مرة ورأى الله بأم عينيه، الله على العرش استوى..

لنضرب على ذلك مثلاً آخر من حياتنا الراهنة. صحيح أنه أقل قيمة وخطورة مما سبق ولكن يمكن ذكره. ألم تعش أجيال عديدة من البشر على أساس أن الشيوعية هي حقيقة مطلقة؟ ألم يكن المتحزبون العرب وغير العرب يعتقدون بأنها سوف تعم الأرض بعد إسقاط الليبرالية أو الرأسمالية؟ ألم يقولوا لنا بأن الماركسية - اللينينية هي عقيدة علمية أو ترتكز على قوانين موضوعية لا تقل حتمية عن قوانين الفيزياء والكيمياء والرياضيات؟ ألم يكسروا رؤوسنا بالمادية الجدلية والمادية التاريخية؟ ثم ماذا حصل بعد ذلك؟ ماذا حصل لعلم جدانوف

وأساطير ليسنكو عن علم الوراثة؟ لقد انهارت هذه «الحقيقة» الشيوعية أمام أعيننا كقصر من كرتون. وماذا حصل للناس المؤمنين بها أو الذين عاشوا عليها طيلة عمرهم؟ منهم من جُن، ومنهم من انتحر، ومنهم من استطاع أن يتأقلم ويستمر ولكن بعد بذل جهود مضنية.. ذلك أنه ليس من السهل أن تنهار حقيقتك: أقصد الحقيقة التي آمنت بها وأعطيتها زهرة شبابك ونضالك طيلة ثلاثين أو أربعين سنة... ولذا يمكن القول بأن فائدة نيتشه وغيره من كبار المفكرين النقديين تكمن فيما يلي: إيقاظنا من سباتنا الدوغمائي العميق، تحذيرنا من تبنّي الأفكار أو العقائد بدون تفحص مسبق، أو بدون وضعها على محك التساؤل والشك، إفهامنا بأن ما هو حقيقة الآن قد ينكشف خطأ غداً..ولذلك يفرق علماء الإبستمولوجيا حاليا بين «الحقيقة» السوسيولوجية أو العددية، أي التي يؤمن بها أكبر عدد ممكن من البشر في لحظة ما من لحظات التاريخ، وبين الحقيقة الحقيقية أي العلمية المبرهن عليها من قبل التجربة العملية. والأولى موجودة في كل المجتمعات البشرية ولها وظيفتها وأكاد أقول فائدتها لأن البشر لا يعيشون فقط على الحقيقة وإنما أيضا على الأوهام والخيالات والأساطير. وليس بالعقل وحده يحيا الإنسان أيها السادة!.هذا هو المعنى العميق لكلمة نيتشه.

وبالتالي، لا توجد حقيقة مطلقة في مجال العلوم الإنسانية وإنما حقائق قابلة للتصحيح والتعديل والتدقيق. بل ووصل الأمر بغاستون باشلار، أحد كبار علماء الإبستمولوجيا المعاصرين، إلى حد القول: بأن الحقيقة هي خطأ مصحح باستمرار!.. ولكن ماذا نفعل إذا كان الإنسان ميالاً إلى اليقين المطلق ولا يشبعه إلا اليقين؟ ألم يتحدث الغزالي في عبارة جميلة جدا عن «برد اليقين»: أي عن الحلاوة أو الطمأنينة التي يحدثها اليقين في الروح أو في القلب؟ في الواقع إن الإنسان شخص ضعيف لا يستطيع أن يعيش في مناخ الشك والارتياب أربعا وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة. إنه عندئذ يجن!...الإنسان حيوان يقيني، الإنسان مسكين في هذا العالم. إنه وحيد وبحاجة إلى اعتقاد معين أو إيمان يستمسك به ويعصمه من الضياع والتيه والرعب أمام الموت والفناء الأبدي..

وبالتالي فينبغي أن نفهم حاجته إلى الاطمئنان والثقة والاعتقاد الراسخ بشرط ألا يتحول ذلك إلى نوع من الدوغمائية المتحجرة أو التعصب المنغلق والأعمى. ولكن للأسف الشديد هذا ما يحصل غالبا. والإرهاب «المقدس» ينتج عن ذلك بالضبط.. انظر حالة الأصوليين من كل الأنواع والأصناف وفي كل الأديان. ولهذا السبب قال نيتشه عبارة أخرى بليغة ورائعة: ليس الشك، وإنما اليقين، هو الذي يقتل... فالشكاك أو الإنسان المرن عقليا لا يقتلك إذا اختلفت معه لسبب بسيط هو أنه قد يعتقد أنك على حق أيضا أو معك بعض الحق. أما صاحب اليقين المطلق فيقتلك بكل بساطة إذا لم تعتنق دينه أو يقينه لأنك نجس، أو كافر، أو مجرم بالنسبة له. فمن ينكر الحق إذا ما استبان له؟ ويحه، ألا يراه؟ ولماذا لا يعتنق الدين الحق فورا؟ انظر حوار الطرشان الدائر بين الأصوليين اليهود والمسيحيين والمسلمين. فكل واحد يعتقد أن دينه هو الحق المطلق وأن الدينين الآخرين على خطأ. وبالتالي فعن اي شيء يتحاورون؟ بل انظر الصراع الدائر داخل الدين الواحد بين السنة والشيعة مثلا أو الكاثوليك والبروتستانت فكل واحد يزعم بأن مذهبه هو الإسلام الصحيح أو المسيحية الصحيحة وأن الآخر هرطيق زنديق... نحن وحدنا في الجنة وهم كلهم في النار... نحن الفرقة الناجية المرضية وحدها عند الله تعالى..

كل هذه العقائد يفككها نيتشه بمنهجيته الجنيالوجية الفلولوجية التاريخية التي تذهب إلى أعماق الأشياء وجذورها. من هنا راديكاليته التي لا تضاهَى. من هنا مساءلته لمفهوم الحقيقة وضعته على محك النقد الفلسفي الصارم الذي لا يرحم. ولم يكتف بتفكيك العقائد الدينية من خلال هجومه العنيف على المسيحية وإنما فكك أيضا العقائد الفلسفية المتوارثة منذ سقراط وتلميذه أفلاطون وحتى يومنا هذا أو قل حتى وقته هو. ألم يقل عبارته الشهيرة: ها قد مر ألفان من السنوات دون أن يظهر إله واحد جديد! بل ولم يكتف بتفكيك الفلسفات القديمة وإنما فكَّك أيضا فلسفة الحداثة التنويرية ذاتها بعد أن آمن بها لفترة حيث أهدى أحد كتبه لفولتير.. فهل كان يعتبر نفسه بداية مطلقة في تاريخ الفلسفة؟ هل كان

يعتبر نفسه ظهوراً جديداً بالقياس إلى سقراط والمسيح وكانط وهيغل..؟ بدون شك. ولكنه كان يرفض أن يصبح ديناً جديداً أو أن يتحول إلى صنم معبود ينضاف إلى كل الأصنام السابقة. بل وكان يحذر تلامذته من اتباعه بشكل أعمى أو تقديسه. وعندئذ يرتكبون نفس الخطأ الذي ارتكبته الأجيال السابقة. وهذا ما كان يخشاه أشد الخشية.

لنستمع إذن إلى نيتشه شاعراً ومفكراً. لنستمع إليه عندما ينسى كل شيء ويحلق عاليا:

"ثمار التين تتساقط من الأشجار. إنها طيبة ولذيذة. ولكن بسقوطها تتمزق بشرتها الناعمة. بالنسبة لثمار التين الناضجة، أنا ريح الشمال.

وهكذا، كثمار التين، تتساقط هذه الدروس على أقدامكم يا أصدقائي... لكم أن تتمتعوا بمذاقها أو طعمها الشهي! وأما كل ما حولنا فليس إلا الخريف، السماء الصاحية، ما بعد الظهيرة. السكينة.

وحيداً سوف أذهب يا أتباعي! أنتم أيضاً اذهبوا وحيدين! أريد ذلك. ابتعدوا عني واحذروا من زرادشت! فربما كان قد خدعكم.

ذلك أن المثقف الحقيقي لا يكتفي فقط بمحبة أعدائه، وإنما ينبغي أيضاً أن يعرف كيف يكره أصدقاءه.

إنك لا تكافئ أستاذك إذا بقيت حياتك كلها تلميذاً. ولماذا لا ترغبون بنزع التاج عن رأسي؟ حطموني، حطموني.

أنتم تبجّلونني: ولكن ماذا سيحصل إذا ما مال تبجيلكم نحو شخص آخر، أو إذا ما انهار؟ انتبهوا جيداً! يمكن لتمثال ما أن يسقط عليكم!

أنتم تقولون بأنكم تؤمنون بزرادشت؟ ولكن ما معنى زرادشت؟ وتقولون بأنكم أتباعي، ولكن ما معنى كل الأتباع والأنصار؟!

أنتم لم تبحثوا عن أنفسكم بعد: ولهذا السبب وجدتموني. وهذا ما يفعله كل الأتباع. ولهذا السبب فإن التبعية في الفكر لا قيمة لها.

والآن آمركم بأن تضيّعوني وأن تجدوا أنفسكم. ولن أعود إليكم إلا بعد أن تكونوا جميعاً قد أنكرتموني.

هل يمكن أن نجد دعوة إلى التفكير الحر والنقدي أكثر صراحة من هذه الدعوة؟ إنها تقدم لنا درساً بليغاً في عدم الاستسلام للتقليد والسهولة، أو للدوغمائية العقائدية، أو للتتلمذ الأعمى على الشيوخ والأساتذة الكبار. فالفكر مفتوح على آفاق جديدة باستمرار. الفكر لا يتوقف. وكلما اكتشفت منه منطقة جديدة استبانت لنا مناطق أخرى لا تخطر على البال. ولا يوجد مفكر واحد قادر، مهما علا شأنه، على اختصار الفكر أو استنفاده أو إعطاء الحقيقة النهائية والأخيرة. ولو وجد لكان أرسطو وحده قد كفانا، أو ديكارت، أو كانط، أو هيغل، أو حتى نيتشه. ولكن نيتشه نفسه ينصحنا بأن نتجاوزه وألا نسقط في تبجيله وتحويله إلى صنم معبود، فهو قد أمضى حياته في تحطيم الأصنام: قديمها والحديث.

خلاصة القول ، إن نيتشه كان مريضاً، فقيراً، شارداً، أو متشرداً على الطرقات والدروب. لا منزلاً ثابتا له، ولا بيتاً دافئا، ولا زوجة ودوداً، ولا صديقا ولا أنيسا.. لا شيء أبداً.. لا أحد.. وحدة مقفرة، شاسعة واسعة، مترامية الأطراف. وحدة يكاد يسمع فيها أزيز الصمت يلفّه من كل الجهات. والأكثر من ذلك، هو أنه لم يكن يرى أمامه إلى أبعد من ثلاث خطوات، لكن لنستمع إليه هو شخصياً يصور حالته: «إن وجودي عبء ساحق لا يُحتمل، لا أستطيع أن أقرأ! ونادراً ما أستطيع أن أكتب!، ولا أستطيع أن أتواصل مع أي شخص على وجه الأرض!، ولا أستطيع أن أسمع أي موسيقى!، أن تكون وحيداً، وتمشي..».

بعد عام ١٨٧٦، ساء نظر نيتشه، كما ساءت صحته عامة، إلى درجة كانت أكثر الأحيان تجعل من الصعوبة بمكان أن يستطيع حتى كتابة بعض الملاحظات والنبذات لنتاجه المقبل، وكان أحياناً يضطر الى إملائها على الموسيقار الشاب بيتر غازت.

إلا أنه من المؤسف أن علل نيتشه (الصداع، وآلام المعدة، والأرق.. إلخ) أضحت مؤلمة جداً، فاضطرته سنة ١٨٧٩ الى الاستقالة من منصب أستاذ في جامعة بازل.

لقد وصل نيتشه الى مرحلة لم يترك له فيها صديقاً وأعلن حرباً شعواء على الناس والأفكار ثم بدأ يتصارع مع نفسه ووحدته، لقد أدى هذا التصادم مع كل شيء إلى ضياع نيتشه نفسه عام ١٨٨٩ حيث بدأ يكتب رسائل بدا فيها الجنون واضحاً فوضع في مستشفى المجانين لفترة حتى جاءت أمه وهي كبيرة في السن لترعاه وبعد وفاة أمه عهد به الى أخته لترعاه الى أن توفي مجنونا في العام ١٩٠٠ .



نيتشه في آخر أيامه

ويمكن أن نتوقف عند بعض الأمور المتعلقة بحياة نيتشه. فعندما كان نيتشه فتى في الرابعة عشرة من عمره كان يفكر غير بقية الصبية وكان يسأل نفسه أسئلة هي مبكرة لعمره. إن ما يميز حياة نيتشه هو أن فكره كان يوجهه فرأي أحد أصدقائه عن أحد كتبه أو إهماله كان يكلفه صداقته وكما يقول عبدالرحمن بدوي «كان كل كتاب جديد من كتبه يكلفه صديقاً وقطع صلة».

لقد كان وحيدا دائما لم يتزوج ولم تكن له عشيقة كان مريضا بمرض عضال بسبب اتصاله مع إحدى البغايا عندما كان طالبا ولم يتصل مع أية امرأة أخرى.

وفي كل مرة يتقرب لامرأة ترفضه وفي سنة ١٨٨٦ اعتبرت سنة حزن لنيتشه فقد فارقته أخته الى الباراغواي وفارقته تلميذته لو سالوميه بعد رفضها له وزواجها بتشارلز أندرياس.

إن نيتشه درس اللاهوت وكان أبواه من عائلة بروتستانتية متدينة إلا أن نزعته الدينية تحولت إلى «رغبة في الحقيقة مهما كلف الأمر» كان محبا للإنسان وللحياة وكل ما وجده في المسيحية هو فقط الحط من الحياة التي يحبها فأسلم نفسه لتفكيره وتطرف فيه حتى آمن بموت الإله المسيحي ولشدة كرهه للمسيحية رفض بعدها فكرة بقية الآلهة وأماتها عقله.

وكما يقول كولن ولسون كانت «طبيعته التي يحيرها فكره» هي مصدر متاعبه. فتفكيره لايقف عند أي حدود، ويكسر حواجز الغموض في البحث عن الحقيقة، مثلما أخبرنا «رغبة في الحقيقة مهما كلف الأمر» وهي التي لم يعرف كيف يسيطر على عبثيتها وقادت إلى جنونه.

ويلخص البعض أسباب جنونه في :

- كان وحيداً لم يعرف إلا القليل جدًا من الأصدقاء.

- لم يعرف أية امرأة تواسيه أو تشاركه العيش.

- رغم عقليته الكبيرة وفهمه المركَّز، تطرف فكره في آخر حياته مما عجَّل في جنونه.

وقد أُطلقت حول فلسفة نيتشه أحكام متناقضة، حياته صاخبة بالقلق والعدمية والتشاؤم والراديكالية، يضاف إلى ذلك، أنه كان مريضاً، فقيراً، شارداً، أو متشرداً على الطرقات والدروب. لم يكن له منزل ثابت، ولا بيت دافئ، ولا زوجة ودود.

في مطلع عام ١٨٨٩ أُصيب نيتشه بالجنون، وكان ورث قصر النظر عن والده، فكانت عيناه، بحسب تعبيره، تغوصان حتى ثلاثة أرباعهما في ليل مظلم، وتتورّمان لأقل مجهود تبذلانه. حتى إنه اضطر منذ شبابه الباكر أن يلجأ إلى من يقرأ له، ويكتب تحت إملائه.

وخلال أدائه الخدمة العسكرية، تحديداً في الثالثة والعشرين من عمره، وقع نيتشه من فوق ظهر جواده، فأُصيب في صدره. ولدى تطوّعه في حرب السبعين ضد فرنسا ممرّضاً، أصابه داء الدوسنتريا، ولازمه طوال حياته، وجعله يعتقد أن رسالته انقضت، وأن مغادرته الحياة حانت، فكتب إلى أخته: «أعتقد أني أدّيتُ مهمتي في الحياة، كما يؤديها رجل لم يُمنح ما يكفيه من الوقت». وبعد ذلك، باغتته الباليوفوريا، حالة مرضيّة يشعر فيها المرء بالابتهاج من دون سبب ظاهر، وتسبق عادة الساعات الأخيرة قبل الموت.

في إحدى ليالي عام ١٨٩٧، توجه فريدريك نيتشه إلى سريره في منزل شقيقته إليزابيت في فايمار (شرق ألمانيا). استلقى على السرير ولم يعد يتذكر أحداً، أو يتعرف إلى من هم حوله. بقي على هذه الحال حتى توفي عام ١٩٠٠ بداء الرئة.

بقي أن نقول إن ثلاثية الوحدة.. الصداقات.. والمرأة.. تترابط مع بعضها البعض لتعطينا نبذة عن الجو الذي كان يعيشه نيتشه, وما دفعه للجنون.. كيف أن رفضه للصداقات أدى إلى وحدته.. وكذلك عدم وجود امرأة من حوله قادته نحو سجن الوحدة أيضا وها هى بعض الشخصيات التي أثرت في هذا الفيلسوف المُعذَّب والمُعَذِّب:

- **بول دويسن:**

كان صديقا لنيتشه وشاركه دراسته في «بفورتا» وجامعة «بون» وذهب إلى «توبنجن» وقد كان من أشهر المترجمين للفلسة الهندية.

شارك نيتشه إعجابه بشوبنهاور, إلا أنه كان الأكثر وفاء من نيتشه لشوبنهاور.

فقد تخلى نيتشه عن شوبنهاور، وظل دويسن وفيا له فتخلى نيتشه عنه.

• بارفن روده:

أطلق عليهما أستاذهما «ريتشل» لقب «دايسكيوري». فقد شارك نيتشه حماسه بالأدب الإغريقي القديم، وما إن كتب كتابه الذي أكسبه شهرته «النفس» حتى بدأت نهاية صداقتهما. فهو لم يذكر في صفحاته الكثيرة التي تكلم فيها عن ديونيسيوس أية إشارة إلى نيتشه.

• وفريك:

عاش مع نيتشه طويلاً في بيت واحد وكان قريباً منه في جامعة «بازل» وإن أهميته تكون في أنه كان صديقا وفيًا لنيتشه حتى النهاية.

• ريتشارد فاغنر:

الشخصية الأشهر في حياة نيتشه، فقد فتن بموسيقاه وخاصة أوبرا «تريستان وايسولت»، فالطابع الثوري فيها أعجبه كثيراً حتى إنه ظل يمتدحها حتى بعد فراقهما.

فهي تمجد «البهجة»، فأوحت لنيتشه بالبهجة الديونيسية في كتابه «ميلاد التراجيديا».

ويقول نيتشه في «هو ذا الرجل»:

«ما كنت أستطيع أن أعمل أيام شبابي بدون موسيقى فاغنر.

فمنذ ذلك اليوم وأنا أتطلع إلى فن يقدم لي سحراً خطيراً، ولا نهائية حلوة مثل تلك التي قدمتها «تريستان»، ولكنني وجدت كل الفنون عبثاً. وإن كل غرابة ليوناردو دافنشي تنبثق من سحر تريستان».

الجدير بالذكر أن زوجة فاغنر، كوزيما، هي أول امرأة تحتل عند نيتشه منزلة رفيعة ويرتبط بها ارتباطا وثيقا لدرجة أنه لم يستطع أن ينساها أبدا.

إن حبه لكوزيما كان مجرد رغبة ممنوعة وحلم خفي لا يمكن تحقيقه، وقد ذهب فريق من الباحثين إلى أن سبب القطيعة هي كوزيما.

بينما ذهب كثيرون من بينهم «كوفمان» بأن السبب ارتداد فاغنر إلى المسيحية في أوبرا «بارسيفال».

إلا أن نيتشه قد قاطع فاغنر قبلها بوقت طويل عندما أحس أن من غير الممكن أن يخدم فاغنر وذاته معا!.

وما كانت أوبرا «بارسيفال» سوى إعلان رسمي للنهاية.

يتحدث د.عبدالرحمن بدوي في هذا الموضوع بأن هناك ثلاثة عوامل أساسية أدت إلى القطيعة:

- ابتداؤه الشعور بذاته شعوراً قوياً.
- ذهاب إيمانه بفلسفة شوبنهاور.
- الروح المسرحية الهزلية التي أبداها فاغنر في مسرح «بايرويت».

وبذلك انتهت علاقته بفاغنر.

● بيتر جاست:

اسمه الحقيقي «هنريش كولزتس» لكن أسماه نيتشه ببيتر جاست.

وهو موسيقار وتلميذ لنيتشه، وقد نظر إليه نيتشه باعتباره «أستاذ الموسيقى الحقيقية» ولكنه لم يلق أي شهره تذكر.

● اليزابيث: أخت نيتشه:

فقد آمنت به زمنا طويلا فهي تمثل شيئا مهمّاً من الناحية الإنسانية، فهو لم يتعود على إيمان امرأة به كل تلك المدة.

إلا أنها كانت تجسيداً للتعصب وضيق الأفق وما إن تزوجت حتى رحلت إلى الباراغواي مع زوجها ولم تعد إلا قرب مماته.

ذكر البعض بأن كتابا قد كتبه نيتشه بعنوان «أنا وأختي» يصف فيه علاقته المحرمة معها إلا أنه لم يثبت صحة هذا الكتاب.

ولم يجد نيتشه لا في جاست أو أخته التلميذ المطلوب، فقد كان يريد تلميذا أكثر من مجرد تلميذ، فجاست يوافق على كل ما يقوله نيتشه، وإليزابيث تأخذ نصف أفكاره وتدمجها مع النصف الآخر من مفكرين آخرين وقد يكون هذا ما جعله يقول في «زرادشت»: «إن التلميذ لا يعترف اعترافا حقيقيا بفضل أستاذه إن هو ظل له تلميذاً إلى الأبد».

- **لو سالومي:**

في حين عجزت إليزابيث وجاست في تأدية دور التلميذ، نجحت لو سالومي في ذلك الدور، فقد كانت تناقشه في فلسفته، وكان هو يعلمها أسرار فلسفته.

وهي نالت شهرتها بسبب تلك الشهور القليلة التي قضتها معه، وقد شهدت هذه العلاقة نهايتها بزواجها من تشارلز أندرياس، أستاذ اللغة، ورفضها له.

لقد كان نيتشه يعتبر نفسه وحيداً منذ طفولته المبكرة، ففي أواخر الثمانينيات من القرن التاسع عشر - أي قبيل جنونه - بدأ يكتب رسائله نحو أوفريك يصف فيها وحدته.

فيقول «إني أشتاق إلى الكائنات البشرية وأبحث عنهم، ولكنني دائما أجد نفسي فقط مع أنني لم أشتَقْ إلى نفسي. لم يعد يأتي أحد إليَّ، ولقد ذهبت إليهم جميعاً ولم أجد أحداً».

وقد أدت وحدته إلى حالة قريبة من اليأس فقال في رسالة أخرى «الآن لم يعد أحد يحبني، فكيف أستمر في حبي للحياة؟!».

«حتى الضوضاء تكون عزاء بالنسبة للإنسان الوحيد».

لقد بالغ نيتشه كثيراً في وضع حدود لصداقاته، إن لم يوافقوا فكره أو توجهه تركهم بلا اكتراث، وعندما احتاج لصديق في آخر عمره لم يجد إلا أوفريك الذي

لم يكن كافيا ولم ينقذه من الهاوية، لبعد المسافة عنه. وحتى جاست لم يكن سوى تلميذ تابع لمعلمه في كل شيء.

إن نيتشه بحث عن أناس يساعدونه في إيجاد ذاته، والمشكلة كانت أن ما تحتاجه ذاته غريبا عن مجتمع عصره، ولم يسعه أن يفعل شيئا لها.

لقد نبذ بداية الصداقات غير النافعة، وهو توجه صحيح، إلا أنه بدأ بعدها برفض كل أصدقائه وعاداهم.

لقد ذكر كولن ولسن في حديثه عن وليام بلايك بأن زوجته كانت تملأ حياته، وكانت تؤمن به وبعظمته، ولو وجد نيتشه امرأة تؤمن به حتى النهاية لأنقذته من الجنون.

وهذا صحيح.. فعادة يعمل العقل بطريقة غير تقليدية عندما تكون وحيداً لفترة طويلة.. فكيف إذا كان صاحب هذا العقل نيتشه؟ فلم يجفل من تجاوز الحدود وكذلك عاش طفولته في وحدة.

نسي نيتشه كيف يصبح إنساناً، ولم يقدر على مساعدته أحد، حتى لو سالوميه التي كانت أكثر الناس قرباً لهذه المهمة، لم تفلح.

وفي رسالة كتب لها نيتشه «لا أريد أن أكون وحيداً، وأرجو أن أتعلم مرة أخرى كيف أصبح كائناً إنسانياً. أجل، ففي هذا المجال يجب أن أتعلم شيئاً».

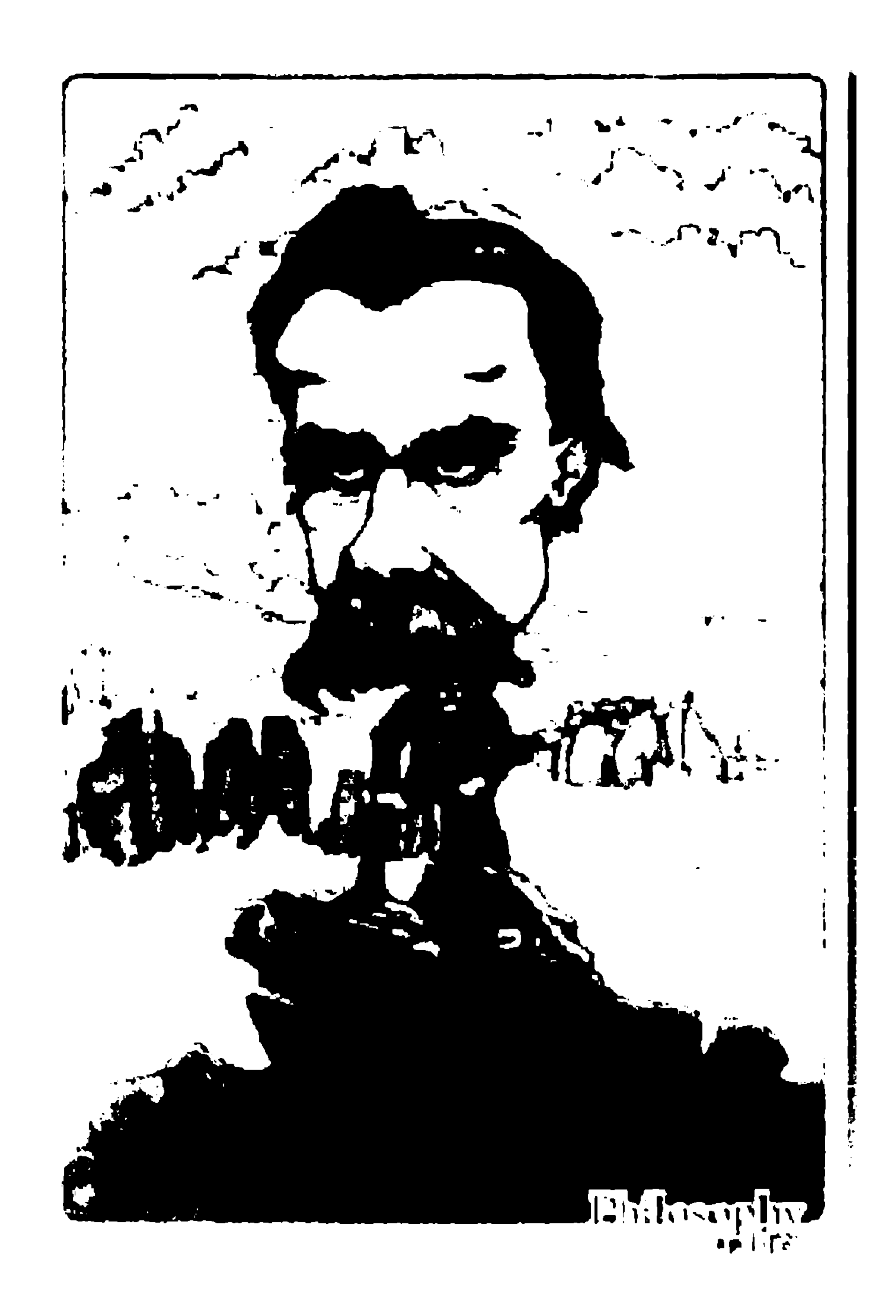
«المتوحد يلتهم نفسه في العزلة ومع الحشود تلتهمه أعداد لا متناهية».

2

الفصل الثاني

نيــتــشــه الفــيلســوف..

الزلزال الذي اجتـاح العـالم !!


Philosophy

ما من مفكر أكثر إثارة للجدل والخصام من هذا الفيلسوف الألماني الذي تجاوز التقاليد السائدة في زمنه، وسخر من الفلسفات القائمة ونفاقها الأخلاقي.

لم ير كل الفلاسفة في فلسفة نيتشه تجاوزاً للميتافيزيقا، بل اعتبرها هايدغر آخر ممثل للميتافيزيقا، رغم حطها من قيمة العقل والمنطق، اللذين رأت فيهما الفلسفة حتى ذلك الوقت الطريق الوحيد المؤدي إلى الحقيقة. فهايدغر يرى أن نيتشه لم يتجاوز «أرض الذات»، التي تأسس عليها البناء الميتافيزيقي، بل لم يستعمل «مطرقته» ليهدم بناء الذات المتعالي إلا ليستبدله بتصور جديد عن الذات من حيث إرادة قوة.

فنيتشه ظل سجين الثنائيات التقليدية، مثل ثنائية الجسد/ العقل أو المجرد والمحسوس حسب هايدغر، ولم يفعل أكثر من استبدال هذا بذاك، العقل بالانفعالات. ظل نيتشه يعتبر الإنسان مركزاً للكون. ومع ذلك فإن هايدغر رفض بشكل قاطع التأويل النازي لفلسفة نيتشه، وبهذا الصدد يقول محمد أندلسي بأن هايدغر «يؤكد أن «الإنسان الأرقى» النيتشوي ليس موظفا للتقنية، أو للإرادة المخططة لها، ولكنه، على العكس من ذلك تماماً، يجسد نموذجاً من الإنسانية، متحررة ومحررة من الخضوع للآلة التكنوقراطية، فالفيلسوف/ الفنان على النمط النيتشوي لا يمكن أن يكون متضامنا مع الآلة الشمولية للتقنية».

إلا أن العديد من الفلاسفة المعاصرين، وعلى رأسهم فاتيمو الإيطالي، رفضوا اعتبار هايدغر لنيتشه آخر ممثل للميتافيزيقا، فنيتشه رفض وهم الحقيقة. نيتشه ينظر إلى العالم كحكاية يتعذر فيها التمييز بين الحقيقة والخيال أو الحقيقة والخطأ، فكل الحقائق هي حقائق أشخاص ما، وتكمن خلفها إرادات قوة وسيطرة شخصية. ولهذا يدعو نيتشه إلى فلسفة تتحقق فيما وراء الخير

والشر، تحررنا من الأوهام الزائفة التي تتحكم بنا وتحرر الفكر من سذاجته ومن سذاجة الاعتقاد بحياده وبراءته.



نيتشه فيلسوف كبير صدم العالم !

دخل نيتشه عالم الفلسفة عبر الفيلولوجيا كعالم لغوي وشاعر (وهي دراسة الكتب التاريخية في إطارها التاريخي الصحيح من دون ترجمة) ومكنته دراسته الجامعية من تحصيل ثقافة كونية شاملة. كان اهتمامه الأولي ومهنته هي الكتب الفلسفية اليونانية القديمة. وكان الرافد الأساسي لكل ما سيقدمه في التفكير الفلسفي هو الفكر الإغريقي القديم الذي كان بالنسبة إليه مقياس الأشياء والذي رأى من خلاله انحطاط عصره. لقد كان نيتشه أقرب إلى أن يكون أخلاقيّاً من أن يكون فيلسوفاً بالمعنى المعروف في عصره إذ نظر للأخلاق وبحث فيها ولم ينظر للماهيات.

يُعد كتاب «هكذا تكلم زرادشت» أهم كتب نيتشه. يبدأ الكتاب بقصة زرادشت «نسبة إلى المُصلح الفارسي القديم» الذي نزل من محرابه في الجبل بعد سنوات من التأمل ليدعو الناس إلى الإنسان الأعلى وهي الرؤية المستقبلية للإنسان المنحدر من الإنسان الحالي وهي رؤية أخلاقية وليست جسمانية حيث الإنسان الأعلى هو إنسان قوي التفكير والمبدأ والجسم..إنسان محارب، ذكي، والأهم شجاع ومخاطر. يواجه زرادشت في البداية صعوبة في جذب الناس إلى دعوته حيث يتلهون عنه بمراقبة رجل يلعب على حبل عالٍ لكن الرجل يقع فيأخذه زرادشت بين يديه ويخاطبه أنه يفضله عن الجميع ويحبه لأنه عاش حياته بخطر ورجولة.

يلتقي زرادشت بعدها بعجوز يصلي ويدعو الله فيستغرب ويقول: «أيعقل أن هذا الرجل العجوز لم يعلم أن جميع الآلهة ماتت ! !.

وهكذا يتابع زرادشت رحلته ودعوته ليعبر عن أفكار نيتشه التي وإن كانت عنصرية بنظر البعض إلا أنها واقعية ومبدعة وكاشفة عن طبيعة النفس البشرية. يعد نيتشه من أعمدة النزعة الفردية الأوروبية حيث أعطى أهمية كبيرة للفرد واعتبر أن المجتمع موجود ليخدم وينتج أفراداً مميزين وأبطالاً وعباقرة، ولكنه ميَّز بين الشعوب ولم يعطها الأحقية أو المقدرة نفسها حيث فضل الشعب الألماني على كل شعوب أوروبا واعتبر أن الثقافه الفرنسية هي أرقى وأفضل الثقافات بينما يتمتع الإيطاليون بالجمال والعنف والروس بالمقدرة والجبروت وأحط الشعوب الأوروبية برأيه هم الإنكليز حيث أثارت الديمقراطية الإنكليزية واتساع الحريات الشخصية والانفتاح الأخلاقي اشمئزازه واعتبرها دلائل افتقار للبطولة.

ولكن ماذا عن الإنسان في فلسفة نيتشه؟.. الإنسان شيء لابدَّ من تجاوزه، لعلَّ هذه العبارة هي العبارة الأكثر ترديداً عند نيتشه وهي الفكرة المركزية في فلسفته، وهذا ما جعله يتطلع إلى تلك المفاهيم التي تعبِّر عن الفلسفة الإنسانية، لكن بأدوات وآليات ميَّزته عن سلفه وخلفه ممن تعاطوا مع الإنسان وفلسفته، وإنَّ

أهمّ ما ميّز نيتشه هو رفض التعاطي بالإنسان ومعه على قاعدة القيم والأخلاق التقليدية، بل تجاوز ذلك إلى إبداع مصفوفة أخلاقية خاصة به (النيتشوية)، فالإنسان الذي لا بدّ من تجاوزه هو إنسان القيم البالية، إنسان الميتافيزيقية واللاعقلانيّة، وعلى هذا الأساس استندت فلسفته على «قلب القيم»، وهذا قطعاً لا يعني إحلال السالب عوضاً عن الموجب أو العكس، بل يعني صراحةً هدم الأصنام وعقلنة الأخلاق، كي تكون أخلاقاً خارجة ومرتبطة عن هذا الإنسان وبه، وعلى هذا الأساس أسقط نيتشه مفاهيم عديدة من فلسفته بشكل عامٌ، وما يخصّ الإنسان والإنسانية بشكل خاصّ، ومن هذه المفاهيم: «الله»، «الروح»، «الفضيلة»، «الحقيقة»، «الماوراء» وغيرها، كي يختزل المفاهيم المحدّدة لهذا الإنسان ذاته.

كيف يصبح المرء (ما هو)؟ بهذا السؤال، أو بهذه الإشكالية إن صحّ التعبير، يبتدئ نيتشه فلسفته حول الإنسان، وبهذه الإشكالية أيضاً يكون قد لامس الجانب الإبداعيّ في فنّ حفظ الذات «فنّ إيثار النفس»، وبالتالي فإنّ الخطر يكمن في تعرّف المرء على نفسه بالنظر إلى تلك المهمّة. أن يصبح المرء (ما هو) يُفترض أن لا يكون لديه أدنى دراية بـ (ما هو)، ومن وجهة النظر هذه تغدو حتى الأعمال غير الصائبة التي تحدث في الحياة ذات معنى وقيمة، وكذلك السبل الجانبية والسبل الخاطئة التي يسلكها المرء لفترة من الزمن، ووقفات التردّد والركون إلى الأوضاع «المتواضعة» والجهود الجديّة التي تنفق في مهمّات مجانبة للمهمّة الحقيقية. وهنا تتجلّى حكمة كبرى، بل الحكمة الكبرى، ألا وهي «اعرف نفسك بنفسك»؛ فنسيان الذات وسوء فهم الذات وتحقير الذات (الذات الإنسانية) وأيضاً التحوّل إلى كائن ضيّق الأفق ورديء، تغدو عين الحكمة أمام القفز إلى الماوراء دون معرفة ماهيّة ما تمّ القفز فوقه، وعليه لا يعتبر نيتشه هؤلاء (العظماء) المزعومين، والذين ساهموا وما زالوا يساهمون بسنّ الأخلاق والقيم المحددة للإنسان حتى في عداد البشر فيقول: فهم في نظري نفايات

البشرية، ونتاج للمرض وغرائز الانتقام، إنهم كائنات فظيعة ومضرّة وغير قابلة في جوهرها للعلاج، غايتها الانتقام من الحياة.

ويطالب نيتشه نفسه بأن يكون نقيضاً لهذا النوع، وأنه رغم (اعتلاله في بعض الأوقات) - حسب تعبيره - إلاّ أنّ ذلك أنتج منه كائناً يخلو من الأمراض، وفي هذا يقول: «عبثاً سيحاول أيّ كان أن يستشفّ لديّ أثراً للتعصب، كما لن يعثر المرء لديّ على شيء من هيئات الغرور أو الانتفاخ الحماسي، فالتفخيم الذي يُضفى على الهيئات لا ينتمي بحال إلى العظمة، ومن كان بحاجة إلى اتّخاذ هيئة ما فهو مزيّف». فنيتشه لم يعرف في ممارسته للمهمات الصعبة من طريقة أخرى غير اللعب، وبأقلّ تكلّف، وببسمة غير متجهّمة ودون نبرة شديدة في الحلق، وعدّ هذه المظاهر مآخذ ترفع ضدّ الشخص وبصفة أكبر ضد أثره. فالإنسان الحقّ عند نيتشه، هو ذاك الإنسان الذي لا يدعو إلى العفّة، فالعفّة حسب وصفه: تحريض عمومي معاكس للطبيعة. كما اعتبر تحقير الحياة الجنسيّة وارتباط هذه الحياة بفكرة «الدنس» هي جريمة في حقّ الحياة، وإذا ما اعتُبرت خطيئة من قبل المثاليين، فالخطيئة عند نيتشه هي المثاليّة ذاتها، فالإنسان هو الإنسان الحرّ، والإنسان الحرّ هو من يمتلك عقلاً حرّاً، أي عقلاً محرّراً استعاد تملكه بذاته، ومنه فالإنسان المستقيم هو الإنسان الذي يعي نفسه كنقيض لأكاذيب آلاف من السنين. وليس من اليسير عند نيتشه الوصول لهذه الاستقامة، فمن يرغب بالوصول إليها عليه أن يكون قادراً على رؤية الكذب ككذب، أي عدم الإصرار على عدم الرغبة في الرؤية الكيفية التي يتكوّن عليها الواقع في الأساس، وأن ينظر إلى أوضاع البؤس بجميع أصنافها كاعتراض وكشيء ينبغي إزالته في جميع الأحوال، ومنه أيضاً فالإنسان المبدع عنده هو الإنسان الذي يجب عليه أن يكون أوّلاً إنساناً «مدمّراً» وأن يحطّم القيم «فالشرّ الأعظم هو جزء من الخير الأعظم، لكن ذلك هو الخير المبدع». والإنسان الأرقى في فلسفة نيتشه هو الإنسان الذي يتمثّل الواقع كما هو، ويمتلك ما يكفي من القوّة لهذا الغرض، «الإنسان الأرقى ليس غريباً عن هذا الواقع وليس ببعيد عنه، إنه هو ذاته، وهو لا يزال يحمل في

داخله كل فظاعاته وإشكالاته، بهذه الكيفية فقط يمكن للإنسان أن يكون ذا عظمة». والإنسان الأكثر حقارةً هو ذاك الذي لم يعد قادراً على احتقار نفسه، والأحمق هو الذي لا يزال يتعثر في حجر أو بشر، والإنسان القادر على العطاء هو الإنسان الذي مازال يحمل شيئاً من الفوضى «كي يَلد نجماً راقصاً».

كما يرى نيتشه أنّ الإيمان ليس كما يُعبّر عنه حاليّاً، أي أنّ المؤمن ليس هو ذاك الإنسان الذي ينتهي به الأمر إلى قناعة أساسية مفادها بأنه لابدّ أن تُملى عليه أوامر من الخارج، وبالمقابل فهو يرى الإيمان على أنه ذاك التصور وتلك الرغبة بالقدرة على استقلالية القرار، أي حرية إرادة، بموجبها يودّع عقل ما كلّ إيمان وكلّ رغبة في اليقين، ويكون ذاك الإنسان قد امتلك دربه الخاص في الحفاظ على توازنه، مثل هذا الإنسان ـ يقول نيتشه ـ سيكون مؤمناً، حرّاً ومنعتقاً.

هكذا نظر نيتشه إلى الإنسان، وهكذا عرّفته فلسفته الخاصة، انطلق منه وانتمى إليه انتماءً خاصّاً، انتماءً إنسانياً، متفرّداً، خارجاً بذلك عن القيم والمثل والأخلاق (ما قبل نيتشه)، والتي يحبّذ هو أن يسمّيها بالقيم المنحطّة، فإنسانية فيلسوفنا هذا، إنسانية تكفر بالشفقة وتناهض العواطف التجميلية الكاذبة والمخادعة، وهو بذلك يرفض أن تكون أخلاق الإنسان مستمدّة من الماوراء، وأن يدّعي هذا الإنسان امتلاكه للحقيقة، كما أكّد دائماً على نسبيتها وهذا ما دفعه إلى «تقويض القيم» حيناً و «قلبها» أحياناً أخرى، كما دفعه ذلك إلى إطلاق دعوة «هدم الأصنام» في كل العصور الماضية والمستقبلية.

إنسان نيتشه هو إنسان العقل، إنسان الخير والشر كما يراهما العقل، وتقييم الخير والشّر عليه أن يكون «تقييماً أرضيّاً وليس فوق ـ أرضي»، وهو بذلك يضع الإنسان ولأوّل مرّة في تاريخ البشرية، بكلياته وتناقضاته موضعاً إنسانيّاً، ومحيطاً إيّاه بأخلاق جديدة وقيم ومثل إنسانية أرضية، هذه الأخلاق وتلك المثل مشروطة، ليس فقط بتصالحها مع العقل، بل اشترط أن تكون نتاجه أيضاً ونتاج تداعياته الموضوعية، فالإنسان وإذا ما أردنا أن نكثّفه حسب نيتشه لوضحت لنا

ملامحه بتجلٍّ سليم: «هو المحارب الذي يجنّد كلّ قواه وطاقاته الإثباتيّة في الصراع من أجلِ التطوّر والتجاوز». وإنّ أصغر الفجوات لأكثرها تعذّراً على التجاوز.

وهكذا سنجد نيتشه فيلسوفًا «قلب القيم» بامتياز، هذا ما لا يخفيه نيتشه عن أحد، ولا تطلّ فرصة إلاّ ويعرّف نفسه بذلك: انظر إلى المفاهيم والقيم الصحيّة من زاوية المريض، ثمّ عكس العملية، بالإطلال من منطلق الوعي الذاتي للحياة الثرية على هاوية العمل السرّيّ لغرائز الانحطاط، وإذا ما كانت لديّ براعة ما فإنّما في هذا المجال، وقد غدت لديّ اليوم الخبرة التي تمكنّني من تحويل زوايا الرؤية، إنّه السبب الأوّل الذي بإمكانه أن يجعلني الوحيد المؤهّل لمهمّة قلب القيم. ومن منطق «تحطيم الأصنام والمثل» هكذا، استدلّ نيتشه على حرفته «الفلسفة» واختار لها مجازيّاً أكثر الأدوات صلابة وفاعلية «المطرقة»، لكي ينهال دون هوادة على «أكذوبة عالم المُثُل» التي، حسب تعبيره، جرّدت الواقع من قيمته ومن معناه ومن حقيقته. وبناءً عليه فضّل نيتشه «أن يكون مهرّجاً على أن يكون قدّيساً»، وهمّ بالبحث عن كلّ ما هو غريب وإشكاليّ في الوجود.

يقول نيتشه في كتابه «هذا هو الإنسان»: إنّني ذو مؤهّلات حربية بطبعي، الهجوم هو إحدى غرائزي، وأعتبر نفسي نقيضاً لكلّ ما يحمل طابعاً بطوليّاً، والشدّة هي جزءٌ من عاداتي السلوكية كيما أظلّ مرحاً منشرح الصدر في خضمّ الحقائق القاسية. وممارسته الحربية تلك وشدّته تتلخّصان في أربعة مبادئ:

لا أهاجم إلاّ ما هو مجلبة للنصر. لا أهاجم إلاّ ما لا حليف لي عليه «حيث أقف وحيداً في المعركة وحيث لا أورّط إلا نفسي وهذا ما أعتبره مقياسي الشخصي للسلوك الصحيح». لا أهاجم الأشخاص كأشخاص، بل أستعمل الأشخاص كزجاج مكبّر يمكن للمرء بواسطته أن يجعل كارثة عمومية مراوغة ومستمرة ومستعصية على الإدراك أمراً مرئياً واضحاً للعيان. لا أهاجم إلاّ ما هو خالٍ من كل خلاف شخصيّ، ومن كلّ خلفيات التجارب السيئة. هكذا تعامل نيتشه مع المسألة الدينية بشكل عامّ، والمسيحية بشكل خاصّ بوصفها «تعاليم

أخلاقية». وهكذا تعامل مع مسيحيي عصره، حيث نعت نفسه بالمناهض لـ «المسيحية» ونقيض «المسيح»، فكان أبعد ما يكون عن مؤاخذة الأفراد بأشياء سبّبها عمل آلاف من السنين، ومن هذا أيضاً بدأ بإعادة التعلّم حيث يقول: إذ إنّ كل الأشياء التي ظلّت البشرية تثمّنها إلى حدّ الآن ليست حتى بالأمور الواقعية، بل خيالات ومجرّد أوهام وبعبارة أكثر شدّة: أكاذيب طالعة من عمق الغرائز السيئة لطبائع مريضة ومضرّة بالمعنى العميق للكلمة، كلّ هذه المفاهيم من شاكلة «الإله» و «الروح» و «الفضيلة» و «الخطيئة» و «الماوراء» و «الحقيقة»، وداخل هذه المفاهيم ظلّ يَجري البحث عن عظمة شأن الطبيعة الإنسانية وطابعها القدسيّ، وهكذا تمّ تزوير كلّ مسائل السياسة والنظام الاجتماعي والتربية من الأساس، بحيث تم تكريس أشدّ الناس ضرراً كعظماء، وتعلّم الناس إبداء الاحتقار تجاه الأشياء (الصغيرة)، وهي الشؤون الجوهرية للحياة. إذاً بهذا الوثوق الرهيب كان نيتشه ممسكاً بمهمّته بما تتضمّنه هذه المهمّة من قيمة تاريخية وكونية، فالإنسان الأخلاقيّ عنده، ليس أكثر قرباً من عالم المعقولات من الإنسان المادّي، إذ إنه ليس هنالك من عالم معقولات، هذا هو المبدأ الذي اكتسب طابعه الصلب والقاطع تحت وقع الضربات المطرقية للمعرفة التاريخية، وهي الفأس التي استخدمها لاجتثاث الحاجة الميتافيزيقة للبشر من الجذور. هذه المهمّة مفادها أنّ الإنسانية ليست منقادة بنفسها إلى الطريق السويّ، ولا هي مسيّرة البتة من قبل العناية الإلهية، بل إنها على العكس من ذلك، قد فسحت المجال، بمفاهيمها القيميّة المقدسة، لغرائز النفي والفساد وغريزة الانحطاط كي تمارس سيادتها (عليها)، فمسألة أصل القيم الأخلاقية تكتسي أهمية من الدرجة الأولى بالنسبة لفيلسوفنا، فعليها حسب تقديره، يتوقّف مستقبل الإنسانية. فالعقلانية والحاجة الميتافيزيقة بالنسبة له هي محض تناقض قيمي «فحين يتراخى أدنى عضو من مجمل جسده ويتخلّى عن حماية حفظ ذاته وتأمين طاقاته الحيوية (أنانيته) بوثوق تامّ، يتداعى لذلك الكلّ، وفي مثل هذه الحالة يأمر العقلاني ببتر العضو المتداعي ولا يتضامن مع انحطاط ذاك العضو، فالعقلاني أبعد ما يكون عن

الشفقة تجاهه، ولكن اللاعقلاني، الغيبيّ، ذا الحاجة الميتافيزيقية، يريد بالتحديد انحطاط الكلّ، الإنسانية بكليتها لذلك هو يحفظ العنصر المتفكّك، فبمثل هذا الثمن يتسنّى له السيطرة عليها»، فأيّ معنى تحمل المفاهيم الرافدة للأخلاق (الله، الروح، الحياة الخالدة.. إلخ) إن لم يكن التدمير الفسيولوجي للإنسانية، فمناقضة الغرائز الطبيعية، «أي نكران الذات في كلمة واحدة - ذلك هو ما ظل يسمّى إلى حد الآن بالأخلاق»، فإنّ القول بضرورة الاعتقاد بأنّ كل شيء مسيَّر بيد حكيمة، وإنّ كتاباً إلهياً بمستطاعه أن يمنح طمأنينة نهائية بشأن التسيير الإلهي والحكمة الربانية يعني، مترجماً إلى لغة الواقع «إرادة طمس الحقيقة» التي تشهد بواقع معاكس بائس يبعث على الشفقة، ألا وهو أنّ الإنسانية ظلّت إلى حدّ اليوم مسيّرة بأسوأ ما يوجد من الأيدي ومحكومة من قبل المحتالين، «وإنّ أخلاق الانحطاط قد غدت الأخلاق بحدّ ذاتها».

إذاً فلسفة نيتشه هي فلسفة العقل الحرّ، المنعتق، فلسفة قلب كلّ القيم أو تحريرها من كلّ قيود المعايير الأخلاقية والدينية والمعرفية المتداولة، وهي فلسفة تنضوي على دعوى صريحة وصارخة معاً كي نخلّص الماضي، «أن نحول كل (ذلك ما كان) إلى (ذلك ما أردت)، هذا ما أسمّيه خلاصاً». ومنه فالإنسان في فلسفة نيتشه لديه شيء غير متشكّل، مادّة، حجارة قميئة تنتظر يد نحّات، وإنّ السعي إلى المعرفة هو إرادة الإنجاب، هذه الإرادة البعيدة عن الله، إرادة الإبداع هذه كما المطرقة مندفعة دوماً باتجاه الحجر، فحدّة المطرقة ورغبة التدمير ذاتها تعدّ شروطاً أولية لا غنى عنها بالنسبة لمهمّة قلب القيم والإطاحة بالمقدّس اللاعقلاني.

فلسفة نيتشه القاسية «كونوا قساةً أشدّاء»، هي نتيجة قناعة راسخة وأساسية بأنّ كلّ المبدعين قساة، وحتى الموضوعية وحدها لا تكفي، بل الموضوعية والموضوعية المتطرّفة هي المطرقة، وهي السلاح الفاعل تجاه وحوش ضخمة ذات تاريخ طويل.

فلسفة نيتشه، فلسفة كونية بلا شكّ، ورغم تلك الصفة العمومية إلا أنها مُحكمة، مثالها بذلك مثال تماسك العقل بالإنسانية وارتباطهما خارج نطاق(الأخلاق العامة) والتي يسميها نيتشه أخلاقا منحطّة، فالأخلاق لا تسمّى أخلاقاً إلاّ إذا كانت داعمة للإنسانية البحتة، وأن تكون تلك الأخلاق نتاج عقل مستنير، منفتح، لا مهادن مع اللاعقلاني، هذه الفلسفة التي لا تستطيع بحكم ذاتها أن تخرج عن سياق قوانين العقل، ومطرقة تلك الفلسفة بمثابة مقياس للحقائق، فالطريق إلى الحقيقة طريق معوجّة، والإنسان المثاليّ هو أبعد ما يمكن عن معرفة الطريق السوية، والمثالية بحدّ ذاتها قيد كبير يعرقل مسيرة التقدم. فحين تكتمل مهمة النحت عند نيتشه ويرفع الستار عن تحفة الأخلاق العقلانية، حينئذ فقط تذهب الأمم إن ذهبت أخلاقهم، وتسود بإنسانيتها الأخلاقيّة العقلانيّة، «فمن يكتشف حقيقة الأخلاق سيكون في الآن ذاته قد اكتشف لا قيمة كل القيم التي اعتُقد فيها من قبل، أو التي ما زال يُعتقد فيها، لن يرى ما يستحق التقدير في كل أولئك الذين أُحيطوا بأسمى آيات التقدير، ولا في أولئك الذين كُرّسوا فصيلة مقدسة من بين البشر»، عند هذا الخروج من تيه المثاليّات، سيكون المرء قادراً على تمييز الطريق المفضية إلى ظروف إنسانية - أخلاقية أفضل، وبفضل العقل هذه المرة لا بفضل نقيضه.

وتعد فلسفة نيتشه إطلالة فكرية ومعرفية، وقد أسهمت بشكل واضح المعالم في حقل الفلسفة الأوربية على مدى قرن من الزمن ، ففكرة (موت الإله) !! النيتشوية أثرت بشكل واسع وكبير في الأوساط الفكرية العالمية بحيث «لم يعد يوجد في الغرب تيار فكري أو نظرية مهمة ومؤثرة في أي من الحقول المعرفية تقول بوجود (الله) !! فتيارات الفكر الغربي الرئيسة أو فلسفاته ونظرياته في العلوم الإنسانية وغيرها ذات شخصية علمانية بالدرجة الأولى، وهذه الشخصية العلمانية هي التي بدأت تسيطر على الحضارة الغربية ككل منذ عصر النهضة، وقد أصبحت في عداد البدهيات التي لا تحتاج إلى ذكر...».

والثقافة الغربية التي ورثت خطيئة نيتشه بحكمها على (الإله) بالموت،

وانطلقت لتشكيل المشهد الفكري العالمي افترضت أسطورية الأديان، ثم وهمية المفاهيم والقيم التقليدية، وأصبح المعيار الرئيس في عالم خالٍ من الألوهية والمقدسات هو مقدار الفكر (المتفتح) من التخلص من آثار الميتافيزيقا (المنغلقة)، التي كانت تسهم في رسم انحدار الإنسان نحو التخلف والجهل - حسب نيتشه -، فبموت (الإله) ستسقط المثالية وترتفع العدمية، وستسمو معالم التجاوز والرفعة والتعالي العدمي الذي يعمل على تجريد القيم العليا من وظيفتها.

لقد قدّم نيتشه للفكر الغربي حلولاً عدة تبدأ من التخلص من هيمنة اللوجوس وصولا إلى تمزيق الأقنعة التي تخفي وراءها الزيف، للوصول إلى اللانظام، واللاحقيقة، واللاإنسان، واللاانسجام، وخلخلة مركزية العقل الأوربي، وانتهاء باستسلام العقل للاعقلانية الجديدة التي يطرحها نيتشة لأنها - كما يرى - هي الأضمن لتطور الإنسان وسيادته، وهي التي ستقوده إلى إرادة العدمية «فالإنسان يفضل أن تكون له إرادة العدم على أن لا تكون له إرادة بالمرة».

لقد أراد نيتشة الحطّ من قيمة الميتافيزيقا للوصول إلى مصارعة الميتافيزيقا، لكنه أنشأ في الوقت نفسه ميتافيزيقا خاصة به اتسمت ببعد الخيال، والبناء على أسس وهمية، والتحرر من كل القيم والأخلاق، وعدّ الإله مجرد ابتكار، اخترعه الإنسان ليقيّد نفسه به، فعلى الإنسان - حسب نيتشه - أن يخلع عنه براءته ويعلن إلحاده، لأنّ الإلحاد يحرر من البراءة، وينتصر للغرائز، ويفجّر إرادة القوة، وعندما نجحد الإله - يقول نيتشه - ننقذ العالم ونصوغ مملكتنا الجديدة.

وبهذا وضع نيتشه العالم الغربي أمام خيارين بقوله: «إما أن تلغوا مقدساتكم وإما أن تلغوا أنفسكم...»، ثم يختار طريقه هو بالقول:«إنّ العدمية هي الكلمة الأخيرة»، إنّ كل ما ينتجه العقل من مفاهيم وأنظمة فلسفية وعلمية هو - حسب نيتشه - مجرد تأويلات وأوهام تتحول تدريجياً إلى أصنام، وأنّ (إرادة القوة) هي الكفيلة بالتصدي لتلك الأصنام وتحطيمها، ولا يشكل العالم وفقا لذلك إلاّ مسرحاً تتخذ منه إرادات القوى وسطاً لصراعاتها، للوصول إلى قوة أكثر قدرة على تفعيل سلطتها، انطلاقاً من قانون التطور المؤدي - حسب نيتشه - إلى الخلاص!!.

لقد بلغ نيتشه مرحلة (التشريع) عندما أباح لنفسه صياغة إله جديد يحل محل الإله المقتول، الذي قتلته عدمية الديانات، والإله المقتول يصوره نيتشه على أنّه إلهٌ مزيفٌ صنعه الرسل والكهنة والقديسون !!والإله البديل الحقيقي يتجلى في الإنسان الخارق (السوبرمان) بمعنى أنّ نيتشه عَمد إلى تأليه الإنسان وإعطائه دوراً لا يستحقه من انتزاع ملكية السلطة الإلهية، وأنسنتها للوصول إلى المُبتغى النيتشوي في سيادة الواقع والتحكم فيه.

أما على الصعيد الأخلاقي، فما طرحه نيتشه قد لاقى آذاناً صاغية في الفكر الأوربي، فالخُلق النيتشوي المطروح هو خُلق الانحطاط وتبني الشرّ، والانعتاق من التقاليد والأعراف والدفاع عن نموذج البشر، الذي لا يحتاج إلى غفران السماء بعد الآن ـ حسب نيتشه ـ، بل إنّ النموذج الجديد يجب عليه أن يُؤسِّس أخلاقه انطلاقا من الانفصال عن المعطيات اللاهوتية والقيام بعملية عزل الإله واستلاب قدراته وصفاته، ومنحها للإنسان الجديد، ورفع شعار إنّ كلّ شي مباح، ولا توجد عوائق بين رغبات الإنسان وبين القيام بها أيّاً كانت. وقد ربط نيتشه هذه المسألة بزوال الإله، لأن هذا الزوال سيقتضي انبعاث فلسفة خلقية جديدة ذاتية الطرح، وإلحادية المنشأ، ومثالية التوجه، وعدمية المسيرة، وانحلالية الهدف.

إنّ مشكلة الأخلاق عند نيتشه هي مشكلة الحقيقة والتطابق مع إرادة القوة، بوصفها الجوهر الوجودي المتمثل بالموجودات، إنّها مشكلة غُربة المثال مع الواقع، ومشكلة انهيار القيم العليا وتفكك القيم القبلية، إنّها مشكلة النقد الجذري للضياع ، ونكران إنسانية الإنسان.

وتأثير نيتشه في معطيات المفاهيم النقدية المعاصرة كان نشطاً، إذ مارست فرضياته مهمة تحديد الهوية النقدية الجديدة، وتحقيق السيطرة على عمليات التحول التي تطال مسيرة النقد العالمي، وقد عمدت هذه المسيرة إلى إنشاء شبكة تضم عدداً من النقاد، أُنيطت لها مهمة تحضير الأفكار النيتشوية، وتكييف جميع الجهود النقدية لتمثلها، وتأهيلها لتكون سنداً للطرح النقدي المعاصر، فضلاً عن إقامة هيئات ومدارس تتبنى البيانات النيتشوية وتحولها إلى واقع نقدي تطبيقي.

إنّ تلك المحاولات لم تتسم بالتعميم الساذج أو السهل، بل تَطلَّبُ جهوداً كبيرة في تحضير وترويض الرأي النقدي العالمي واتخاذ التدابير اللازمة لإفرازات تلك الجهود التي حاولت تحسين المعطى النقدي لضمان تداوله، لأن عملية التحول الجريئة الحاصلة في معطيات المناهج النقدية بشكل عام، وما بعد البنيوية بشكل خاص، فرضت اعتماد الصيغ النصية وابتعدت بل تجاهلت الصيغ الميتافيزيقية، وسهلت عمليات دمج الآراء لمحاربة السياسة النقدية المضادة كما حصل عند رواد مدرسة تيل كيل الفرنسية، أو مدرسة ييل الأمريكية.

ومن البوادر المهمة والخطرة في الوقت نفسه التي انبثقت من تبني الطرح النيتشوي في النقد المعاصر هي: العلمانية التي تشير في الأصل إلى فصل الدين عن الدولة، وهي ظاهرة كامنة في كل المجتمعات، فالأشياء والظواهر والأفكار المحيطة بهذا العالم تجسد نموذجاً حضارياً متكاملاً، وتستند إلى رؤية شاملة، وهي تمثل عمليات علمنة بنيوية، لأن سمات المُنتج الحضاري أو الأفكار التحولات التي تُولد العلمانية هي جزء عضوي لا يتجزأ من بنية هذا المُنتج المادي الذي لا قداسة ولا ضمان فيه لأي شيء، عالم خالٍ من المعنى، لا قيمة فيه ولا غاية، لا كليات فيه ولا مطلقات، وبهذا أرادت العلمانية إقامة اتحاد مع الإله الجديد (الإنسان الخارق) لإزاحة المعنى المعياري، وهيمنة القيم النفعية، وتعطيل نماذج الطرح الميتافيزيقي والديني الكنسي.

إنّ المعطيات النيتشوية مغرية بالتبني بالنسبة للنهج النقدي المعاصر، لأنّها تمثل نظرية في القيم، فاللاحقيقة التي أشاعها نيتشه تحمل قيمة أكثر مما تحمله الحقيقة نفسها - بالنسبة للنقد الحديث -، لأن الإنسان هو الذي يخلع القيمة على الأشياء ويحددها ويضفي عليها المعنى، وبفضل القيمة النيتشوية استطاع النهج النقدي المعاصر من اكتشاف إبداعية المفاهيم بعد أن تحرر من سلطان المفارقة الغيبية وانخرط في تشكيل مدارات الطرح المعاصر وفلسفته التي تمثل بشكل عام فن تكوين وإبداع وصنع المفاهيم.

ويتسم التعامل النقدي المعاصر مع القيم النيتشوية بما يأتي:

١. توظيف تعددية تلك القيم لصالح توازن التحليل النصي.

٢. توسيع مجالات التوظيف لتشمل قطاعات أخرى تستفيد من الطرح النقدي، وإمكاناته من الناحية العملية.

٣. تطوير وإنشاء خطط لمعالجة الطرح النقدي التقليدي المعتمد على خارجيات النص، لتنظيم عمليات التقارب بين النص والمتلقي، بمعنى تفعيل عملية القراءة.

٤. ظهور مؤشرات أساسية تؤكد صلاحية الطرح النيتشوي للمسيرة السياسية المعاصرة، وهذا يقود إلى توسيع المؤشرات النقدية في تبني ذلك الطرح.

ويمكن القول إن الطرح النيتشوي قد أسس لمرحلة ما بعد النيتشوية من خلال تبني نقدها له، لا سيما جاك دريدا الذي استمد صورة تفكيكية من الهدم النيتشوي، وحمل الجهاز الدلالي له، إذ دشن نيتشه فجر التفكيك بعملية طالت العقلانية السائدة، وراجعت فرضياته تاريخ الميتافيزيقا لتصفيتها والكشف عن منابع قيمها، وكل ما أنتجه العقل البشري راغباً في الوصول إلى الجذور لتفتيتها، وبناء أسس جديدة تصل حدودها القصوى بالإعلان عن (موت الإله) !! وتعرية كل التأويلات وتمزيق وإطاحة صنمية المفاهيم، وهذا تحديداً ما فعله دريدا في الطرح النقدي لما بعد البنيوية.

وما فعله دريدا فعله فوكو أيضاً فمنهجه الحفري طال كل التأويلات والمفاهيم الرئيسة التي بُنيت عليها اليقينيات القديمة، وحاول تأسيس إمكانية قيام تأويل جديد، لقد وصلت النيتشوية الهدمية إلى كلّ أركان وأسس النقد المعاصر انطلاقا من دريدا وبارت وفوكو وريكور وصولاً إلى دولوز وتودرورف الذي أعلن تبنيه للطرح النيتشوي بقوله «نحن ندرك أننا لم نعد بحاجة إلى أخلاق... كل شيء مباح لأننا جربنا نتائجها»، في حين ذكر الناقد الفرنسي (شاتليه) أنّ المسار النقدي العالمي اليوم آيلٌ إلى العدمية إلى اللاشيء، وإلى إفراغ الإرادة من كل

جـوهـر، وتحـويل القـدسـيـة إلى سلسلة من الإجـراءات والفن إلى تركـيـبـة من الوصفات، والحكومـة إلى نظام من التهديدات، والفلسفة إلى مجمل من البيانات، والأخلاق والعلم إلى شبكة من المعتقدات، وذكر أنّ عمليات التحول تلك ليست بريئة، وأنّها تقترن بتنظيم معين لإخضاع الإنسان، وإحلال قيم تقود إلى استعباد الفرد.

لقد أصبحت الحقيقة مع تبني الطرح النيتشوي عبارة عن سلسلةِ تأويلاتٍ تُوظف شبكة من الاستعارات، وتستخدم فنوناً عدّة وإستراتيجيات، وممارسات قوة مختلفة، وعدّ (لوفيفر) العدمية النيتشوية بوصفها اختباراً جذريّاً تعلن عن مستقبل جديد، وتتسم بفقدان البراءة، وتراكم التناقضات والنزعات الدوغمائية، واللجوء إلى السلطة، وإباحة الاستلاب، وتوسيع الحضارة بعد تلاشي جوهرها السامي.

وقد كان النقد المعاصر أمام صنمين من أصنام نيتشه الأول هو (العقل) والثاني هو (الإله) وكما أنّ إرادة الحياة والقوة عند نيتشه كانت كفيلة بإسقاط صنميه بالنزوع نحو السيادة والتوسع والالتزام (بلا أخلاق وبلا معيار وبلا تحديد) والسعي دائماً وأبداً نحو التشامخ والتعالي والحطّ من قيمة الآخرين، كذلك كان النقد المعاصر الذي اتجه صوب إزالة بعض المفاهيم النقدية المرتبطة بمحيط النص والانتقال من الخلاف حول وظيفة الدليل المتحصل من التحليل النقدي للنص، وعلاقته بالدال والمدلول إلى تفعيل الدال وتعدد المدلول ـ مع بارت ـ، وإلى تفعيل الدال وتوالده مع غياب المدلول ـ عند دريدا ـ ضمن ما يصطلح عليه بـ (نظرية اللعب).

ويتأسس مشروع نيتشه الفلسفي على النقد الجنيالوجي، النسابي للقيم، بما هو بحث في الأصل عن القيم والاعتقادات لمعرفة أصولها وطريقة تشكلها، وهو المسعى الوحيد في نظر نيتشه لإنجاز نقد كلي يتجاوز فلسفة المعنى والذات، ومن التباساتها الميتافيزيقية. فالقيم عند هذا الفيلسوف يجب أن تكون نقدية، وهو ما فشل فيه سابقوه، وعلى رأسهم صاحب «نقد العقل الخالص»، كانط الذي لم

يستطع تأسيس صرح فلسفة نقدية كاملة، انطلاقا من القيم التي تتطلب قلباً نقدياً، من خلال عرض العناصر التفاضلية المقابلة لها. وهو السبيل الكفيل بتحرير المعنى من واحدية الرؤية والمطلق، ناسفاً بذلك منطق الثنائيات بما هو تجل واضح للميتافيزيقا التي سجنت الفكر الغربي منذ أفلاطون. إن نيتشه يحل مبدأ الشمولية الكانطي بالشعور بالاختلاف أو المسافة (العنصر التفاضلي)، فمن خلال هذا الشعور بالمسافة يصبح للمرء الحق في التفلسف، الذي يعني نيتشويا خلق قيم جديدة وتحديدها، انطلاقا من استقصاء نسابي للقيم التي تتعارض مع طابعها المطلق كما مع طابعها النسبي أو النفعي. وهي المهمة التي يوكلها نيتشه للفيلسوف، لأنه يطرح على نفسه بالضبط استخدام العنصر التفاضلي كناقد ومبدع، وبالتالي كطريقة، كفعل وليس كرد فعل،حتى لا يصبح النقد رد فعل، ترجمة للضغينة وروح الانتقام. إن البحث الجنيالوجي عن المعنى يمر عبر استقصاء ومعرفة القوة أو القوى التي تمتلك الشيء تفاضليا مع القوة أو القوى المسيطر عليها، والتي تجعل من الشيء أو الظاهرة كيفما كانت ليس ظهوراً وبروزاً بقدر ما هي علامة، بل علامات وهنا تصبح الفلسفة عند نيتشه. كما يؤكد ذلك جيل دولوز. علم أعراض، ونظرية عامة للعلامات. إن دولوز، وفي سياق تشريح متن نيتشه الفلسفي، يركز على كون هذا الأخير، يحل ويدحض كل الثنائيات، إنه يحل محل الثنائية الميتافيزيقية للظاهر والجوهر والعلاقة العلمية للعلة والمعلول، العلاقة المتبادلة بين الظاهر والمعنى، فليس هناك الظاهر والجوهر بالإطلاق والمفرد الخاضع للتعريف من طرف الوعي، بل هناك ظواهر وجواهر تتحدد انطلاقاً من علاقات القوى ومستويات التوتر المتحكمة فيها والمسيطرة على الشيء، وكل قوة هي امتلاك كمية من الواقع، والسيطرة عليها واستغلالها، وحتى الإدراك الحسي في وجوهه المتنوعة هو تعبير عن قوى تتملك الطبيعة. وهذا يعني أن للطبيعة بذاتها تاريخا. وتاريخ شيء ما هو، عموما، تعاقب القوى التي تستولي عليه، وتعايش القوى التي تصارع من أجل الاستيلاء عليه. والموضوع ذاته والظاهرة ذاتها، يتبدل معناهما وفقا للقوة التي تستحوذ عليها، والتاريخ هو تغيير المعاني.

ومن هذا المنطلق يوضح جيل دولوز، باعتباره أحد أهم الفلاسفة الذين اشتغلوا بعمق وجدارة على المشروع النيتشوي، على أنه لفهم فلسفة نيتشه، يجب أخذ تعدديتها الجوهرية بعين الاعتبار،بما هي الكفالة الوحيدة ليمارس العقل حريته، وبما هي المبدأ الوحيد لإلحاد عنيف، فتقدير القوى التي تحدد في كل لحظة وجوه شيء ما وعلاقاته بالأشياء الأخرى. كل ذلك يعود إلى فن الفلسفة الأرقى، فن التفسير، فالتفسير وحتى التقويم، هو وزن وفكرة الجوهر لا تضيع فيه، بل تأخذ معنى جديداً، لأن كل المعاني لا تتساوى بعضها مع بعض. فلشيء من المعاني قدر ما توجد قوى قادرة على الاستيلاء عليه. وهنا يضرب دولوز مثلا عزيزاً على نيتشه، وهو أن ليس للدين معنى واحد، بل عدة معانٍ انطلاقاً من كونه يخدم على التوالي قوى متعددة.

لذلك ـ يؤكد نيتشه على لسان دولوز ـ أن الفلسفة بما هي فن التفسير، يجب أن تمر عبر إيمانها بقناعها الزهدي متجاوزة إياه بإعطائه معنى جديداً يترجم قوتها المضادة للدين، وذلك عبر اختراق الأقنعة، وبالتالي معرفة من يتقنع ولماذا؟ وبالنتيجة ما هي الغاية والهدف من وراء المحافظة على هذه الأقنعة، وهذا العمل لا يتم إلا بفضل عين الفيلسوف النسابية، وعكس الفلسفة الديالكتيكية، فالتجاوز مع النيتشوية لا يتم انطلاقاً من النفي والإنكار والإقصاء، بل بالاعتراف بالإرادة كإثبات، وهنا يختلف نيتشه مع صاحب «العالم كقوة وإرادة»: شوبنهاور، الذي كان أميل إلى إنكار الإرادة المتماثلة مع مختلف تجلياتها والتي تؤدي إلى نفي ذاتها وإلغاء نفسها في الشفقة والأخلاق والزهدية. وهي تطبيقات ميتافيزيقية مقلقة، كما ينتقد في السياق نفسه، الديالكتيك الهيغلي، كما يوضح ذلك جيل دولوز، من خلال تأكيده على أن العلاقة الجوهرية بين القوى لا يجب أن تُفهم باعتبارها عنصراً نافياً في الجوهر، بل عنصر اختلاف وإثبات. فنيتشه يحل عنصر الاختلاف العملي، محل العنصر النظري للنفي، أو المعارضة أو التناقض، فالاختلاف العملي بما هو عنصر محدد في قضية القوى هاته يكون موضوع

إثبات واستمتاع، وبتعبير جيل دولوز :بهذا المعنى إنما توجد تجريبية نيتشوية مقابل مفاهيم الديالكتيك الثقيلة.

إن الاختلاف هو موضوع إثبات عملي لا ينفصل عن الجوهر ومكون للوجود. تقف «نعم» نيتشه في وجه «لا» الديالكتيكية، الإثبات في وجه النفي الديالكتيكي، الاختلاف في وجه التناقض الديالكتيكي، الفرح والاستمتاع في وجه العمل الديالكتيكي. الأمر الذي جعل دولوز يعتبر أن نيتشه بقدر ما اتخذ من الإنسان الأسمى مفهوما نقدياً تجاه التصور الجدلي للإنسان، وإعادة التقويم ضد ديالكتيك التملك، وبالتالي إلغاء الاستلاب، بقدر ما كان يوجه انتقاداته لهيغل،الشيء الذي دفع دولوز للقول: إن العداء للهيغلية يجتاز عمل نيتشه، مثل خيط العدوانية.

ولفهم النقد النيتشوي للهيجلية، يعطي دولوز أمثلة عن قصدية الإرادة عند كليهما، فالإرادة عند الديالكتيك يتحكم فيها العنصر النافي، الذي يجعل منها تمثلاً للقدرة، للتفوق، كاعتراف بين قوة المسيطر وتمثل قوة المسيطر عليه، لا إرادة قوة تبغي الإثبات مروراً بعنصر الاختلاف في بعده التفاضلي في علاقة القوى فيما بينها. وفي هذا السياق يشير دولوز إلى مثال يقتبسه من نيتشه في كتابه «ما وراء الخير والشر» عن علاقة العبد بالسيد ليوضح الفرق بين الرجلين ومن ثَم بين مشروعيهما الفلسفيين، ما تريده الإرادات، يقول دولوز، لدى هيغل، إنما هو فرض الاعتراف بمقدرتها، تمثل مقدرتها. والحال أنه تصور خاطئ تماما لإرادة القوة وطبيعتها. إن تصوراً كهذا هو تصور العبد، إنه الصورة التي يكونها إنسان عن القوة. إن العبد هو الذي لا يتصور القوة إلا كموضوع الاعتراف، كمادة للتمثل، رهان في مزاحمة، والذي يجعلها تتبع إذا - في نهاية المعركة - مجرد إسناد قيم قائمة. ومن هنا يقترح نيتشه الرؤية المأساوية للعالم، لرؤية معارضة للديالكتيك والمسيحية مؤكداً أن للمأساة، كما يدلي بذلك دولوز، ثلاث طرق للموت:إنها تموت مرة أولى بفعل ديالكتيك سقراط، وهذا موتها الأوربيدي، وتموت مرة ثانية على يد المسيحية، ومرة ثالثة تحت الضربات المشتركة

للديالكتيك الحديث وفاغنر شخصياً، وبالرغم من كل هذه الانتقادات فإن نيتشه لم يستطع التخلص نهائيا من المفاهيم الديالكتيكية في التحليل، في كتابه الأول: «ميلاد التراجيديا من روح الموسيقى» الذي نشر سنة ١٨٧١، والذي جاء نتيجة تأثير صديقه فاغنر، قبل أن يقطع نيتشه حبل الود معه وينتقده فيما بعد بضراوة، والكتاب هو في العمق استقصاء فكري تحليلي لتراجع التراجيديا اليونانية في القرن التاسع عشر، بسبب تغلغل الفكر العقلاني، وانتشار الفلسفة ذات العمق الجدلي، بعدما تم تفكيك تلك الوحدة المتناغمة والمتسقة التي عرفتها التراجيديا والموسيقى، لكن طبيعة اشتغال نيتشه التحليلية أدركته هيغليا، وهذا ما يستشفه دولوز من خلال قراءته النقدية لهذا العمل، يقول دولوز: «بالرغم من أن نيتشه ليس ديالكتيكيا فهو بالأحرى تلميذ لشبونهاور، ونحن نتذكر أيضا أن شوبنهاور ذاته لم يكن يقدر الديالكتيك كثيرا، ومع ذلك ففي هذا الكتاب الأول، لا تتميز الترسيمة التي يقترحها نيتشه علينا، تحت تأثير شوبنهاور، لا تتميز من الديالكتيك إلا بالطريقة التي يتصور بها التناقض وحله، وهو ما أتاح لنيتشه أن يقول، فيما بعد، عن أصل المأساة: «تفوح منه رائحة هيغلية بصورة خطيرة كفاية»... إن التناقض في أصل المأساة هو ذلك الخاص بالوحدة الابتدائية والتفريد، بالإرادة والظاهر، بالحياة والألم هذا التناقض الأصلي يشهد ضد الحياة، يوجه الاتهام للحياة، الحياة بحاجة لأن تبرر، أي لأن تفدى منه الألم والتناقض، إن أصل المأساة يتطور في ظل هذه المقولات الديالكتيكية المسيحية: التبرير، الفداء والمصالحة. لكن يبقى أن أصل المأساة سوف تجعل نيتشه الذي اكتشف انزلاقاته الجدلية، يحسم نهائيا مع مفاهيم الديالكتيك وطرق اشتغالها، وتجاوزها بمفاهيم ومضامين جديدة، كما أن هذا العمل جعله يكتشف جينيالوجيا أن أصل التعارض هو في إحلال الفكرة محل الحياة وهو أصل الانحطاط، لذلك نجده يقول في أصل المأساة: «إن سقراط هو عبقري الانحطاط الأول، يعارض الحياة بالفكر، ويحكم على الحياة بالفكرة، يطرح الحياة كما لو كان يجب الحكم عليها، وتبريرها وافتداؤها بالفكرة. إن ما يطلبه منا إنما

هو التوصل انطلاقا من ذلك إلى الشعور بأن الحياة المسحوقة تحت ثقل النافي، غير جديرة بأن تشتهى لأجل ذاتها، وتعاني في ذاتها، سقراط هو الإنسان النظري النقيض الحقيقي الوحيد للإنسان المأساوي».

إن الإنسان المأساوي، كما اكتشف، دولوز من خلال قراءته للمتن النيتشوي، في الوقت الذي يعي فيه عدوه الحقيقي الذي يمارس مهمة النفي، يجب أن يكتشف في نفسه/ جسده العنصر الخاص بالإثبات، أما بخصوص انتقاداته للمسيحية، فإن نيتشه يكتشف فيها سيطرة العنصر النافي والعدمية، لذلك نجده يقول بأن المسيحية تشرح المأساة انطلاقا من مرجعية النفي والعدمية، فالحياة هي دائما موضع اتهام، فمادام هناك ألم يعني أن هناك ظلماً وذنوباً ومن هذا المنطلق وجب تبريرها وافتداؤها، الأمر الذي يسميه فيلسوف إرادة القوة، «بالإحساس بالخطأ» أو «استبطان الألم»، ولشرح النقد النيتشوي جيدا للمسيحية بخصوص المأساة، ينتقل بنا جيل دولوز، إلى كتاب إرادة القوة، ليسوق شرحا يقارن من خلاله نيتشه ديونيزوس بالمسيح، فالحياة الديونيزوسية «تثبت حتى العذاب الأكثر حدة» أي أنها لا تحل الألم عن طريق استبطانه، إنها تثبته في عنصر خارجيته، وانطلاقا من ذلك ينمو التعارض بين ديونيزوس والمسيح، وهنا يستشف نيتشه أن مفاهيم المسيحية هي نفسها مفاهيم الديالكتيك، بل إن الديالكتيك الحديث هو الأيديولوجيا المسيحية بالتحديد، هكذا إذا فإن مفاهيم من قبيل: الحياة الخاضعة لعمل النافي، التناقض المتطور، حل التناقض ومصالحة التناقضات... سوف يستغني نيتشه عنها معوضا إياها بالإثبات التفاضلي، وباقي مفاهيم إرادة القوة،. فالمأساة تتحدد بالفرح المتعدد، بالفرح الجمعي باعتباره بُعداً جمالياً، وليس مُعطيًا يتطلب الخوف والشفقة، كتطبيقات الأخلاقية، الذي لا يحل شيئا بقدرما يرجع الحيلة إلى الفعل النافي وإلى العدمية، وبتعبير دولوز، فإن المأساوي لا يتأسس في علاقة بين النافي والحياة، بل في العلاقة الجوهرية بين الفرح والمتعدد، بين الإيجابي والمتعدد، بين الإثبات والمتعدد ·.لهذا السبب يتخلى نيتشه عن تصور الدراما الذي كان يدافع عنه في

أصل المأساة، لأنها لا تزال تفخيما مسيحيّاً للتناقض وهنا بالضبط يوجه انتقاداته لصديق العمر الموسيقار فاغنر الذي ألّف في المرحلة التي ذاع فيها صيته في ألمانيا، موسيقى درامية، أنكر في تأليفها ومن خلالها الطابع الإثباتي الخاص بالموسيقى.

. ما الوجود عند نيتشه؟

يتحدد الوجود عند هذا الفيلسوف تحديداً جنيالوجيّاً وذلك بالعودة إلى الأصول المحددة له، من خلال المفاهيم الفلسفية السابقة، والقيم التي تحكم المجتمع الأوربي، وهي أصول إغريقية، وقيل مسيحية، والتي جعلت من الألم وسيلة للبرهان على ظلم الوجود الذي استمر في صيرورته معلناً الظلم والإحساس بالخطأ عنواناً، تتصارع من خلاله الأشياء في ماهيتها ومفكرة بصورة متبادلة عن ظلمها لصالح كائن أصلي نفتدي من أجله، فعزو الأخطاء والمسؤوليات، والاعتراض الحاد والاتهام الدائم، أوالضغينة، إنما تشكل جميعاً تفسيراً ورعاً للوجود، بما هي مقولات الفكر السامي والمسيحي، وفي تفسير الوجود والتفكير، وهنا يقترح نيتشه طريقة جديدة في التفكير، تتمثل في إعطاء اللامسؤولية معناها الإيجابي، يقول في إرادة القوة: «لقد أدركت اكتساب الشعور بلامسؤولية كاملة، وأن أجعل نفسي مستقلاً عن المديح وعن اللوم، عن الحاضر وعن الماضي». إن اللامسؤولية هي أعظم وأنبل وأجمل سر لدى نيتشه، بتعبير جيل دولوز، فطريقة نيتشه الجديدة في التفكير هي السبيل الجنيالوجي لاكتشاف العمق الأخلاقي للقيم والعدمية التي ترد الحياة إلى عالم مفارق، عالم الله، فليس هناك، من وجهة نظره، شيء خارج إرادة القوة، فكل شيء يتعلق بقوة قادرة على تفسيره وكل عجز يمكنه أن يرجعنا إلى العالم المفارق وإلى الحياة كعدمية وكمل نافٍ، هو في العمق فصل للقوى عما تستطيعه وبالتالي إدراكها كمذنبة، وبالتالي يصبح الوجود في تعريفه، هو الوجود المقدر. القوة غير المفصولة، والإرادة غير المشطورة، وهذا ما يستفيض في شرحه في: «إرادة القوة».

إن قراءة عاشقة للمتن النيتشوي كفيلة بجعل القارئ يكتشف أن نيتشه يعتبر أن الفلسفة الإغريقية عرفت إشراقات قبل سقراط، بل إن الفلسفة سوف تعرف بداية الانحطاط والاندحار مع هذا الفيلسوف الإغريقي، لذلك، وكما يورد ذلك جيل دولوز، فإن نيتشه وجد في هيراقليطس المفكر المأساوي الوحيد، ومشكلة العدالة تتطرح على امتداد مؤلفاته. فهيراقليطس يرى الحياة بريئة وعادلة بصورة جذرية. إنه يفهم الوجود انطلاقا من غريزة اللعب، بل إن الوجود ظاهرة جمالية، لا ظاهرة أخلاقية أو دينية. لذلك فإن نيتشه لا يتوانى في معارضة انكسيماندر بهذا الفيلسوف المأساوي، كما يفعل نيتشه الأمر ذاته مع أستاذه شوبنهاور.

فالوجود لا يتحدد إلا بالصيرورة وإثبات المتعدد الذي هو إثبات الواحد في حد ذاته، لذلك لم ير هيراقليطس أي ذنب للوجود. وأي عقاب للمتعدد، وأي تكفير عن الصيرورة، من هنا يأتي إعجاب نيتشه بهذا الفيلسوف، خاصة وأنهما يلتقيان في نقطة أساسية وجوهرية في تفسير الوجود وفهمه، بعبارة أخرى، يصبح الوجود لا علاقة له إطلاقاً بالذنب أو المسؤولية، وبالتالي فإن اثبات الصيرورة وإثبات وجود الصيرورة هما زمنا لعبة ما، يتألفان مع حد ثالث هو اللاعب، أو الفنان أو الطفل اللعبة التي يشبهها نيتشه برمية النرد، التي تثبت الصيرورة، وتثبت وجود الصيرورة. إن زهور النرد التي نرميها في اللحظة الأولى هي إثبات الصدفة التي هي الضرورة، وفي اللحظة الثانية هو التركيب الذي تكونه لذا وهي تسقط، هو إثبات الضرورة، وبهذا يجعل نيتشه من الصدفة إثباتاً يكفي معرفة اللعب والتحدي، بما هو إثبات الصدفة وليس إلغاءها عبر إسقاطات المنطق الغائي، والتي يرجعها نيتشه نسبيًا إلى العقل بما هو روح الانتقام والضغينة والإحساس بالخطأ. فإذا كان إثبات الصدفة هو إثبات الصيرورة، فإن هذه الأخيرة لا يحكم عليها من خارجها، من عالم مفارق حيث لا تتلقى قانونها من مكان آخر، فهي تمتلك قانونها الخاص المتمثل في الحركة الدائرية، في العودة الدائمة بتعبير نيتشه، في هذا السياق يؤكد جيل دولوز، أننا

نفهم أن نيتشه لا يتعرف إطلاقاً على فكرته عن العودة الدائمة لدى سابقيه. فهؤلاء لم يكونوا يرون في العودة الدائمة وجودًا للصيرورة بما هي كذلك، الواحد المتعدد، أي العدد الضروري المنبثق بالضرورة من كل صدفة، وربما باستثناء هيراقليطس، لم يكونوا قد رأوا «حضور القانون في الصيرورة، واللعب في الضرورة».

فمادام أن الفكر المأساوي قد تم تعويضه بالفكر المسيحي والديالكتيكي، فإن نيتشه يطلق على هذا المشروع من العدمية، نفي الحياة والحط من قدر الوجود والذي يعود إلى روح الانتقام، بما هي العدمية وأشكالها: الضغينة، الإحساس بالخطأ، والمثل الأعلى الزهدي،. كونها تشكل نموذجاً لا ينفصل تيبولوجيّاً، ففلسفة نيتشه والتي من خلالها نكتشف أن العدمية ليست حدثا تاريخيّاً أو محدداً سيكولوجيّاً، بقدر ما هي محرك التاريخ أو المعنى التاريخي الذي يجد في المسيحية في لحظة ما تجليه الأكثر ملاءمة، إن روح الانتقام هو العنصر النسابي الخاص بفكرنا، العنصر الصوري لطريقتنا في التفكير، للميتافيزياء في حد ذاتها، بما هي تجلٍّ للعدمية. من هذا المنطلق يأتي المشروع النيتشوي لهدم الميتافيزياء، وذلك بالدعوة لميلاد الإنسان الأسمى. والتي يسميها نيتشه بالرسالة الفرحة. الذي لا يعرف المثل الأعلى الزهدي ولا يشعر أصلاً بالخطأ، كما لا تحركه الضغينة ورد الفعل، إنه الإنسان الفاعل بامتياز. في هذا السياق تأتي إرادة القوة كمشروع انقلابي ضد الأفلاطونية والفكر الأوربي بما هي طريقة جديدة،يقول عنها دولوز: «يسمي نيتشه رسالته الفرحة الإرادة، هكذا يسمي المحرر ورسول الفرح، إن الرسالة الفرحة هي الفكر المأساوي، لأن المأساوي ليس في اعتراضات الضغينة، أو في نزاعات الإحساس بالخطأ، أو في تناقضات إرادة تشعر أنها مذنبة ومسؤولة. ليس المأساوي حتى في الصراع ضد الإحساس بالخطأ، أو العدمية. لم يفهم الناس يوماً في راي نيتشه، ما هو المأساوي: مأساوي = فرحان. طريقة أخرى لطرح المعادلة الكبرى: إرادة = خلق. لم يفهموا أن المأساوي هو إيجابية خالصة ومتعددة، بهجة دينامية. المأساوي هو الإثبات:

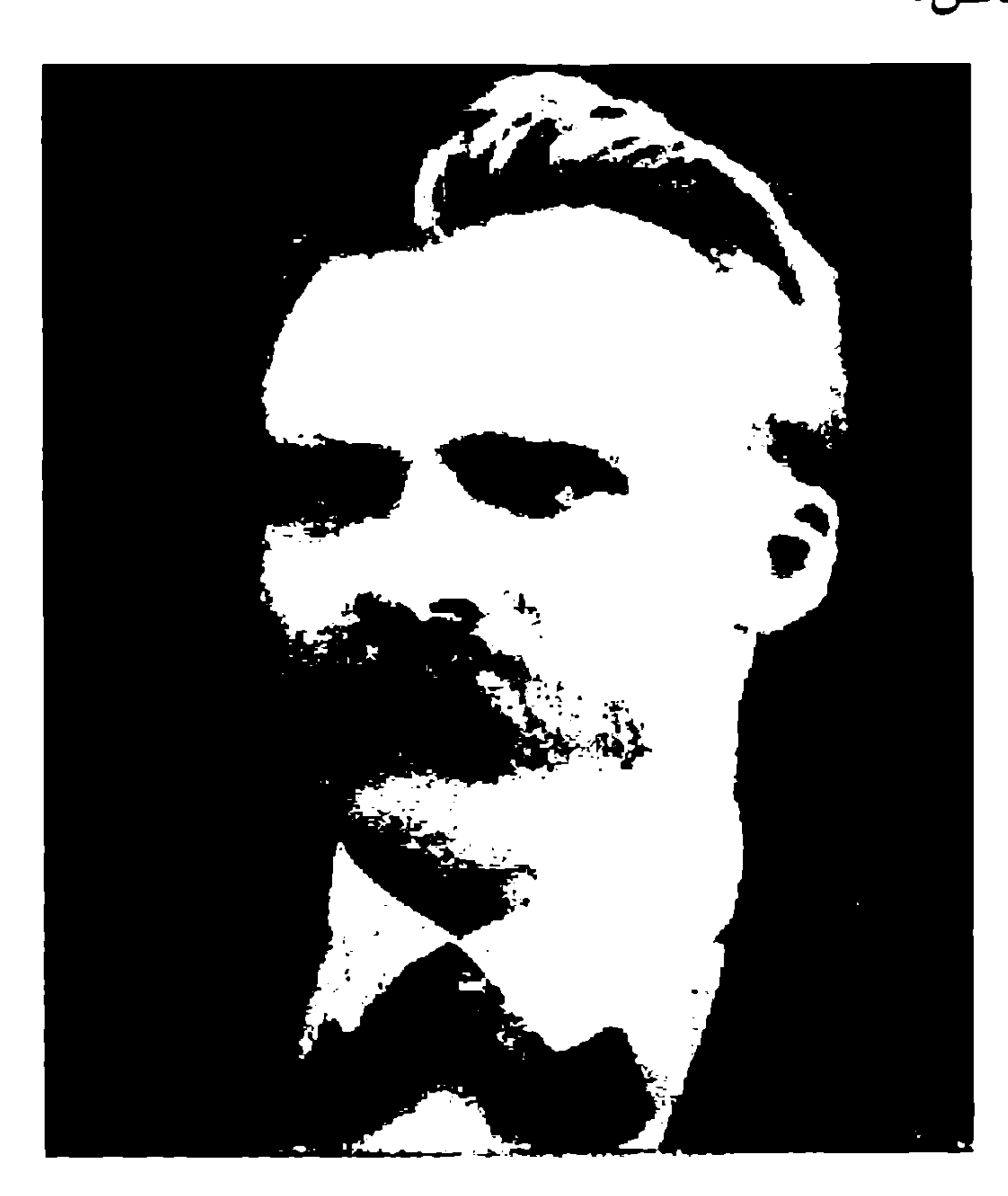
لأنه يثبت الصدفة، وفي الصدفة ضرورتها، لأنه يثبت الصيرورة، وفي الصيرورة الوجود، لأنه يثبت المتعدد، وفي المتعدد الواحد. مأساوية هي رمية النرد. وكل ما تبقى عدمية، تفخيم ديالكتيكي ومسيحي، كاريكاتور للمأساوي، كوميديا بالخطأ»، وهنا نجد جيل دولوز يعلن أن هذا النقد موجه حتى إلى الذين تفلسفوا مأساوياً أكثر من أسلافهم، وذلك من أجل توضيح أصالة وتفرد المتن النيتشوي، من خلال تبيان الفارق بين نيتشه والفلاسفة السابقين، يقول دولوز: «حين تجتاحنا الرغبة في مقارنة نيتشه بكُتّاب آخرين سموا أنفسهم أو جرت تسميتهم (فلاسفة مأساويين)» يجب ألا نكتفي بكلمة مأساة. علينا أن نأخذ بالحسبان إرادة نيتشه الأخيرة (وصيته)، لا يكفي أن نسأل: بم يفكر الآخر؟ هل هذا شبيه بما يفكر به نيتشه؟ بل يجب أن نضيف كيف يفكر هذا الآخر؟ ماهي، في فكره، الحصة الباقية من الإحساس بالخطأ؟ هل يبقى المثل الأعلى الزهدي وروح الانتقام في طريقته في فهم المأساوي؟ لقد عرف باسكال وكييركفارد وسيستوف، بصورة عبقرية، كيف يمضون بالنقد إلى أبعد مما فعل سابقوهم. لقد أوقفوا الأخلاق، وأطاحوا العقل. لكن لما كانوا عالقين في شباك الإحساس بالخطأ، كانوا يستمدون قواهم بعدُ من المثل الأعلى الزهدي. كانوا شعراء لهذا المثل الأعلى. إن ما يعارضون به الأخلاق، العقل، لا يزال هذا المثل الأعلى الذي يغوص فيه العقل، هذا الجسم الصوفي الذي يمد جذوره فيه، الداخلية - الرتيلاء. لكي يتفلسفوا، يحتاجون لكل الموارد ولخيط الداخلية، القلق، التنهد، الذنب، لكل أشكال الاستياء. بهذا يكون جيل دولوز قد أنهى الفصل الأول من كتابه «نيتشه والفلسفة» خاتماً إياه بكون الإحساس بالخطأ والمثل الأعلى الزهدي، والعدمية هي حجر المحك لكل نيتشوي. ثمة مَنْ يستطيع تبيان إذا كان قد فهم المعنى الحقيقي لفن المأساة أو لم يفهمه.

- الفاعل ورد الفعل:

إذا كان الفرق بين الإثبات والعدمية، هو إثبات الحياة كتجلٍ لغياب روح الانتقام، ونفي الحياة كتجل لسيطرة الفعل النافي، فإن جيل دولوز، يفتتح في

سياق توضيحه وشرحه للمتن النيتشوي، الفصل الثاني من هذا نفس الكتاب، بالحديث عن الفعل ورد الفعل، انطلاقا من الفصل المنهجي بين الوعي واللاوعي، فالوعي لدي نيتشه، هو دائماً وعي أدنى بالنسبة إلى الأعلى الذي يخضع له، أو يلتحق به. ليس الوعي وعيا للذات أبداً، بل هو وعيي أنا بالنسبة إلى الـ «هو»، الذي ليس وعياً، من جهته. ليس وعيا للسيد، بل هو وعي العبد بالنسبة لسيد لا يلزمه أن يكون واعياً وبتعبير نيتشه في كتابه إرادة القوة، القسم الثاني، «لا يظهر الوعي عادة إلا حين يريد كل أن يتبع كلاً أعلى... يولد الوعي بالنسبة لوجود قد يمكننا أن نرتبط به»، وهذه هي كما يقول دولوز: عبودية الوعي: إنه يشهد فقط على تَكوّن جسم أعلى وهو ما يشكل في العمق نقدا نيتشوياً لفلسفة الوعي، إذ يعتبر الوقت قد حان للنظر للوعي ليس روحيا إطلاقا، بل بكونه دلالة تحول أعمق ونشاط قوى، الأمر الذي يحيلنا على عودة الجسد باعتباره حقلاً قوياً، وبنية مغذية تنازعها جملة من القوى وليس كمية من الواقع، بل كميات من القوى في علاقة توتر دائم بعضها مع البعض الآخر، إذ في الأخير ما يحدد هذا الجسم أو ذاك هو العلاقة بين قوى مسيطِرة وقوى مسيطَر عليها، وهذه القوى في علاقاتها تشكل واقعا اجتماعيا، سياسيا، بيولوجيا وكيميائياً، لذا فالجسم هو دائما ثمرة الصدفة، بالمعنى النيتشوي، التي هي جوهر القوة، وما الجسم الحي إلا كناتج تعسفي للقوى التي يتركب منها، وفي جسم ما، تسمى القوى المسيطرة فاعلة والقوى المسيطرة عليها أو الدنيا رادة الفعل أو ارتكاسية، وبتعبير دولوز: تتحدد القوى الدنيا كرادة الفعل: إنها لا تفقد شيئاً من قوتها، من مقدار قوتها، وهي تمارس فيما تضمن الأوليات والغائيات، فيما تنفذ شروط الحياة ووظائف الحفظ والتكيف والمنفعة، ومهامها وهذه القوى الارتكاسية في حد ذاتها لا يمكن أن تفهم إلا بعلاقتها بالقوى الفاعلة، التي لا تقع في متناول الوعي، خاصة وأن النشاط الرئيسي غير واع،فمن المحتم أن الوعي ارتكاسي من حيث الجوهر الجسم من وجهة نظره، وأن يفهمه بطريقته، أي بصورة ارتكاسية، ويحصل للعلم أن يتبع طرق الوعي مستنداً إلى قوى ارتكاسية أخرى، الجسم منظور إليه دائما

من الجدة الصغيرة، جهة ردود الفعل الخاص به. فالمشكلة الحقيقية عند نيتشه هي اكتشاف القوى الفاعلة التي من دونها لا تكون ردود الفعل بحد ذاتها قوى، وهنا يؤكد نيتشه على نشاط قوى اللاوعي والتي يجعل من الجسم شيئاً ما أعلى من ردود الفعل. إن قوى الجسم الفاعلة هي ما يجعل من الجسم هو الـ «هو» الذي يتحدد كأعلى ومذهل، وبالتالي فعلى العلم أن يبحث في النشاط بما هو علم اللاوعي الضروري، وهو ما يسميه بالعلم الفرح، عكس ما تذهب إليه فلسفة الوعي/ والوضعية التي تشكل الخلفية المرجعية للعلم الحديث الذي لم يتخلص من توجيه الأخلاق طالما لم ينطلق من اللاوعي، وهذا ما حذا بنيتشه إلى توجيه انتقاداته لداروين الذي يفسر التطور، أو الصدفة في التطور بصورة ارتكاسية، فلا يجب أن ننسى أن رد الفعل يدل على نموذج من القوى مثلما هي حال الفعل، إذ يؤكد دولوز أنه لا يمكن إدراك ردود الفعل، أو فهمها علمياً كقوى، إذا لم نربطها بالقوى العليا التي هي بالضبط من نموذج آخر. إن كلمة ارتكاسي هي صفة أصلية للقوة، لكن لا يمكن تفسيرها بما هي كذلك إلا في علاقتها بالفاعل، انطلاقاً من الفاعل.



في هذا السياق يثير دولوز مسألة أساسية شكلت صلب مفهوم القوى عند نيتشه، وهي الكم والنوع، والتي يصبح تحديدها كميا صرفاً أمراً مجرداً وناقصاً وملتبساً في الوقت نفسه، ففن قياس القوى يستدعي تفسيرا للصفات وتقويما لها وبعبارات نيتشه «لا يريد التصور الإيولى والتسليم وبغير كميات، لكن القوة تكمن في النوعية، لا يمكن الإوالية إلا أن تصف ظاهرات، لا أن توضحها... ألا يمكن أن تكون كل الكميات علامات نوعية؟.. إن إرادة تحويل كل النوعيات إلى كميات ضرب من الجنون» إرادة القوة. فإذا كانت الإشكالية الجوهرية في هذا السياق، هو كما يقول جيل دولوز: إذا لم يكن بالإمكان فصل قوة عن كميتها، لا يمكن فصلها أيضاً عن القوى الأخرى التي هي في علاقة بها؟ وهي الإشكالية التي طرحت كثيراً بصدد المتن النيتشوي، فإن دولوز وانطلاقا من فهمه العميق لهذا الأخير يوضح أن النوعيات ليست شيئا سوى الفرق في الكمية، الذي يتناسب معه في قوتين يفترض على الأقل أن بينهما علاقة... إن النوعية تتميز من الكمية، لكن فقط لكونها ما لا يمكن مساواته في الكمية، ما لا يمكن إلغاؤه في الفرق في الكمية. إن الفرق في الكمية هو إذاً، بمعنى ما، العنصر القابل للتحويل في الكمية، وبمعنى آخر، العنصر غير القابل للتحويل إلى الكمية بالذات، ليست النوعية شيئا غير الفرق في الكمية. وهذا بالضبط ما جعل نيتشه يوجه انتقاداته للعلم، ليس من منطلق اهتمامه بالعودة الأبدية كما أسيء فهمه، يقول دولوز: «صحيح أن نيتشه لا يمتلك الكثير من الجدارة العلمية أو الميل إلى العلم، لكن ما يفصله عن العلم هو اتجاه، طريقه في تفكير. إن نيتشه، سواء كان مخطئا أو محقاً، يعتقد أن العلم، في معالجته للكمية يتجه دائما إلى التسوية بين الكميات، والتعويض من حالات اللامساواة. إن نيتشه ناقد العلم لا يتذرع أبدا بحقوق النوعية ضد الكمية، إنه يتذرع بحقوق الفرق في الكمية ضد المساواة، وبحقوق اللامساواة ضد التسوية بين الكميات لكن يبقى أمام نيتشه بحسب دولوز، مهمة تعويض هذا النقص في المسعى العلمي، والذي يقترح له العودة الأبدية كمذهب كوسمولوجي وفيزيائي، فالعودة الدائمة كما يتصورها نيتشه

تفترض نقد الحالة الختامية أو حالة التوازن التي يسعى العلم إليها، فلو كان ـ كما يقول ـ للكون وضع توازن، لو كان للصيرورة هدف أو حالة نهائية، لكانت بلغتها، والحال أن اللحظة الراهنة كلحظة تمر، تثبت أنها لم تبلغ بعد: إذا ليس توازن القوى ممكناً (إرادة القوة ـ القسم الثاني). الأمر الذي يجعل نيتشه ينتقد الفلاسفة القدامى في نظرتهم للصيرورة انطلاقا من الفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، فاللحظة يجب أن تكون حاضراً وماضياً، حاضراً ومستقبلاً، في الوقت ذاته يجب أن يتعايش الحاضر مع ذاته كماض وكمستقبل، كملاقة تأليفية للحظة مع ذاتها والتي تشكل في العمق العودة الدائمة جوابا على مشكلة العبور، فليس الوجود هو الذي يعود، بل العودة بحد ذاتها تشكل الوجود، لذا كما يقول دولوز شارحا فكرة نيتشه: «يجب التفكير في العودة الدائمة كتأليف: تأليف للزمن وأبعاده، تأليف للمتنوع ولإعادة إنتاجه، تأليف للصيرورة وللوجود الذي تثبته الصيرورة، تأليف للإثبات المزدوج». إن عزل العودة الدائمة عن تعالقها المفاهيمي في سياق المتن النيتشوي لا يمكننا من فهمها واستيعابها فلسفيا ومفاهيم لكونها، أي العودة الأبدية، تشكل في العمق تعبيراً عن مبدأ هو سبب المتنوع وإعادة إنتاجه، والفرق وتكراره، إنه إرادة القوة بما هي العنصر النسابي للقوة، التفاضلي والتعاقبي في الوقت ذاته. إن القوة هي العنصر الذي ينتج منه في آن معاً الفرق في كمية القوى الموضوعة في علاقة (بعضها مع بعض) والنوعية التي تعود،، في هذه العلاقة، وإلى كل قوة. إن إرادة القوة تكشف هنا طبيعتها: إنها مبدأ تأليف القوى. وفي هذا التأليف بالذات، الذي يتعلق بالزمن، تمر القوى ثانية بالظروف نفسها أو يعيد المنتوج إنتاج نفسه. إن التأليف هو تأليف القوى، والفرق بينها وإعادة إنتاجها. والعودة الدائمة هي التأليف الذي تكون إرادة القوة مبدأه وهنا يشير دولوز إلى أن فهم إرادة القوة لا يجب أن يمر عبر فصل هذه الأخيرة عن القوى، والذي يسقطنا بالنتيجة في التجريد الميتافيزيائي كما هو الحال إذا خالطنا القوة والإرادة. إذاً لا يجب أن ننسى الفرق بين القوى الذي يشكل وجودها، والعنصر الذي يشتق منه أصلها التكويني

المتبادل. فمفهوم القوة الظافر يحتاج إلى مكمل، وهذا المكمل هو شيء داخلي، إرادة داخلية، تضاف إذاً إرادة القوة إلى القوة، لكن كالعنصر التفاضلي والتعاقبي المنطقي، كالعنصر الداخلي لإنتاجها، وفي هذا السياق يختلف نيتشه اختلافاً جذريّاً مع كانط وشوبنهاور، وهو ما يشير إليه دولوز، فشوبنهاور لم يحاول تخليص الكانطية من الديالكتيكية وبالتالي فتح آفاقاً جديدة للنقد، ليس لأن الكوارث الديالكتيكية بتعبير نيتشه تأتي من الخارج، وسببها الأول إنما هو تقصيرات النقد، لذلك، يؤكد دولوز، أن نيتشه وجد في العودة الدائمة وإرادة القوة، تغييراً جذرياً للكانطية، وإعادة اختراع للنقد الذي خانه كانط في الوقت ذاته الذي تصوره فيه، واستئنافاً للمشروع النقدي على أسس جديدة ومع مفاهيم جديدة .لذلك سرعان ما يدعو جيل دولوز قارئه إلى ضرورة معرفة وفهم مصطلحات نيتشه التي تشكل تعالق مفاهيم، يعتبر بحق القلب النابض لمتنه الفلسفي:

١. فإرادة القوة تعني العنصر النسابي في القوة، والنسابي يعني التفاضلي والتعاقبي، إن إرادة القوة هي العنصر التفاضلي في القوة، أي عنصر إنتاج الفرق في الكمية بين قوتين أو عدة قوى يفترض أنها في علاقة.

٢. ينتج من إرادة القوة كعنصر نسابي الفرق في كمية القوى الداخلة في علاقة ونوعية كل من هذه القوى فيِ الوقت ذاته، ووفقا للفرق في كمية هذه القوى، يقال إنها مسيطِرة أو مسيطَر عليها، وتسمى فاعلة أو ارتكاسية انطلاقا من نوعيتها.

٣. و مبدأ صفات القوى موجود في إرادة القوة نفسها، أي أن الصفات تتعلق بصورة مباشرة بالعنصر التعاقبي والنسابي، ففاعل وارتكاسي يدلان على الصفات الأصلية الخاصة بالقوة، لكن إثباتي ونفيي يدلان على الصفات الأولية لإرادة القوة، لذا وجب الفرق بين صفات إرادة القوة، وصفات القوة في حد ذاتها.

٤. إن إرادة القوة لا تفسر فقط، بل تقوم، أي أن التفسير هو تحديد القوة التي

تعطي معنى للشيء، والتقويم هو تحديد إرادة القوة التي تعطي الشيء قيمته، بمعنى آخر أن التفسير يسعى إلى تحديد صفات القوة التي تعطي لهذه الظاهرة أو الشيء معنى معينا، والتقويم، يكمن في نوعية إرادة القوة التي تعبر عن نفسها في الشيء، هل هي إثباتية أو نافية.

ولاستيعاب دلالات وقصدية نيتشه من إرادة القوة، يحيلنا جيل دولوز، إلى فك التعالقات والتشابكات الممكنة بين القوى الفاعلة والقوى الارتكاسية، إذ يركز على كون أن هناك اختلافاً في الأصل بينهما، وصعوبة فك هذا الارتباط المفاهيمي تتجلى في كون، أن الفعل ورد الفعل ليسا فقط في علاقة تعاقب، بل أيضا في علاقة تعايش في الأصل بالذات، ولكن بصورة مقلوبة، بمعنى آخر، إن الاختلاف من منظور القوى الارتكاسية يصبح نفيا والإثبات يصبح تناقضا،فالقوى الفاعلة نبيلة، لكنها تجد نفسها مقلوبة في مرآة القوى الارتكاسية، هكذا، فإن من خصائص هذه القوى أن تنفي من الأصل الاختلاف الذي يكوّنها في الأصل، أن تقلب العنصر التفاضلي الذي تشتق منه، أن تعطي عنه صورة مشوهة، وبتعبير نيتشه «الاختلاف يولد الكراهية» لهذا السبب، لا تفهم نفسها كقوى، وتفضل بأن تنقلب ضد الذات على أن تفهم نفسها بما هي كذلك وتقبل بالاختلاف. لكن يبقى السؤال الكبير دائما، هو كيف تنتصر القوى الارتكاسية؟ وهل تمتلك كمية أكبر حينها؟ وما مصير القوى الفاعلة؟ يجيبنا بالفعل جيل دولوز، مؤكدا أن نيتشه لا يتصور إطلاقاً القوى الارتكاسية كقوة أرقى وأكبر من القوى الفاعلة، بل كطرح وتفكيك وإنقاص، فالقوى الارتكاسية تعمل بشكل مختلف، إنها تفصل القوى الفاعلة عما تستطيعه، تنتزع منها قسما من مقدرتها، أو كل هذه المقدرة تقريبا، وبذلك لا تصير فاعلة، بل تصبح هي الأخرى ارتكاسية، وهكذا ومن: «أصل الأخلاق» إلى: «إرادة القوة» يحملنا جيل دولوز باحثا عن وجوه انتصار الارتكاسي في العلم الإنساني، ليوضح أن القوى الارتكاسية لا تنتصر عن طريق تأليف قوة أرقى، بل عن طريق فصل القوة الفاعلة، التي بالرغم من ذلك، يعتبرها نيتشه، القوة الأرقى، والمسيطرة والفاعلة، فحتى عندما تنتصر القوى

الدنيا، لا تكف عن أن تكون أدنى وارتكاسية من حيث النوعية، ومن أن تكون عبدة على طريقتها، بمعنى حتى في حالة انتصارها تبقى نافية للحياة، مدمرة للجسد والمتعة وللعب الديونيزوسي، لأنها ترهن العالم الأرضي للعالم المفارق، بل وتجعل من الحياة، افتداء وثمن الخطيئة والظلم واللا عدل... لذلك نجد نيتشه يضع القوى الفاعلة في أعلى هرم تراتب القوى، والتراتب كمفهوم عنده يعني أولا الفرق بين القوى الفاعلة والقوى الارتكاسية، وتفوق القوى الفاعلة على الارتكاسية ثانياً، ضمن مفهوم التراتب تتدرج إشكالية أعمق وأكبر، إنها مشكلة العقول الحرة، والتفكير الحر، ومن هذا المنطلق يوجه نيتشه النقد للفكر الوضعي، وذلك من خلال تعويضه للفكر الحر بالعقل الحر، فبما أن - يقول دولوز - الفكر الحر الذي لا يأخذ بالحسبان صفات القوى، فهو في خدمة القوى الارتكاسية، بفعل الموهبة، ويعبر عن انتصارها. عكس العقل الحر المفسر الذي يحكم على القوى من وجهة نظر أصلها ونوعيتها. أو كما يقول، نيتشه: «ليس هناك من وقائع، ليس ثمة غير تفسيرات».

لذلك يوصي بعدم الخلط بين التراتب الذي يقيمه، أو تقيمه بشكل آو بآخر إرادة القوة،بين القوى الارتكاسية والقوى الفاعلة،وبين التراتب الذي قد تقيمه الأخلاق والدين ،لأن المعاني بينهما تختلف اختلافا جذرياً،لأننا بذلك نجعل من الكنيسة والأخلاق والدولة أسياد كل التراتب أو القابضين على ناصيته. وهذا ما يصل إليه الفكر الحر في النهاية وتصل إليه القوى الارتكاسية عندما تتمكن من فصل القوى الفاعلة عما تستطيعه،لكن ومن منظور اكتشافه للعودة الأبدية كَسرٌ فلسفي لهذا الوجود، لوجود يُدين لإرادة القوة بشكل كبير، إن لم يكن هو هذه الإرادة في العمق، فإن نيتشه وانطلاقا من تبشيره للبشرية بالإنسان الأسمى، فإنه يجعل من العلاقة بين صفتي هذه الإرادة، ويقصد النفي والإثبات،وبينها وبين العودة الدائمة، إمكانية تحول، كطريقة جديدة في الشعور وفي التفكير، لذلك سرعان ما سوف يجعل من قلب القيم: الفاعل بدل الارتكاسي، متنفس الصيرورة، أو كما يقول دولوز: إنه بحصر المعنى، قلب قلب، لأن الارتكاسي كان

قد بدأ بالحلول محل الفعل، لكن تحويل القيم أو إعادة التقويم يعني الإثبات بدل النفي، لا بل النفي محولا إلى مقدرة إثبات، أي التحول الديونيزي الأسمى.

- إرادة القوة بين نيتشه وسابقيه:

إذا كان نيتشه يحدد إردة القوة انطلاقا من السؤال المأساوي، فإنها تعني من ضمن ما تعنيه، الإلحاح النسابي والنقدي في آن معا لكل أفعالنا ومشاعرنا وأفكارنا، والطريقة التي تقوم على ربط مفهوم ما بإرادة القوة،لجعله عرض إرادة لا يمكن حتى تصوره من دونها،وبالتالي تحديد كونه، ووفقا لنوعية الإرادة، إثباتي أو ناف، ومن هنا يتحدد النموذج الذي تبغيه إرادة القوة، إن ما تريده إرادة قوة ليس موضوعا، بل هو نموذج، نموذج ذلك الذي يتكلم، الذي يفكر، الذي يفعل، الذي يرد الفعل، لا يُحدد نموذج إلا بتحديد ما تريده الإرادة في نسخ هذا النموذج، وبهذا يضع نيتشه فلسفة الإرادة محل الميتافيزياء القديمة، بل إنها تدمرها وتتجاوزها، وهذا ما يجعل جيل دولوز، يمضي بعيدا في اعتبار أن نيتشه هو أول من صنع فلسفة إرادة ،وأن الفلسفات السابقة، بما فيها تلك التي تتدرج في الإطار النقدي، لم تتمكن من التخلص من كوارث الميتافيزياء، إن لفلسفة الإرادة كما يتصورها نيتشه، بل ودولوز، مبدأين يشكلان الرسالة الفرحة التي تكلمنا عنها سابقاً، وهي: فعل الإرادة = فعل خلق، الإرادة = الفرح، وهذا الفعل في العمق هو فعل خلق قيم جديدة وفعل تحرر،وهو ما يختلف جذريا مع مفهوم الإرادة في الفلسفة التقليدية،وعلى ضوء الميتافيزياء القديمة، وهو ما يوضحه دولوز، عندما يجعل من الفلاسفة السابقين (هوبس،شوبنهاور،كانط...) طرفا في المقارنة التي يقيمها لصالح نيتشه، يقول دولوز: «يجعل الفلاسفة من الإرادة إرادة قوة بمعنى الرغبة في السيطرة يلمحون اللانهاية في هذه الرغبة، إذ يجعلون من القوة موضوع تمثل، يلمحون الطابع الوهمي لهكذا متمثل، إذ يخرطون إرادة القوة في معركة، يلاحظون التناقض في الإرادة بالذات. يعلن هوبس أن إرادة القوة كما لو كانت في حلم لا يخرجها منه غير الخوف من الموت. يشدد هيغل على الوهمي في وضع السيد لأن السيد يتبع العبد لأجل الاعتراف به. الكل يضع التناقض في

الإرادة، والإرادة في التناقض أيضاً. ليست القوة الممثلة غير ظاهر. وجوهر الإرادة لا ينطرح فيما تريده من دون أن تضيع هي ذاتها في الظاهر. لذا يعد الفلاسفة بتقييدالإرادة، تقييد عقلانيا أو عقديا يمكنه وحده أن يجعلها تحتمل العيش معها، وأن يحل التناقض. على كل هذه الوجوه، لا يؤسس شوبنهاور فلسفة إرادة جديدة، على العكس، تقوم عبقريته على استخلاص النتائج القصوى من الفلسفة القديمة، على دفع القديمة إلى أقصى نتائجها. لا يكتفي شوبنهاور بجوهر الإرادة، إنه يجعل من الإرادة جوهر الأشياء، «العالم مرئيا من الداخل». لقد صارت الإرادة الجوهر عموما وفي ذاته. لكن مذاك، صارت ما تريده التمثل، الظاهر بوجه عام.

وهذا ما جعل، كما يقول دولوز، شوبنهاور يستمر في فهم العالم كوهم، كظاهر، كتمثل.لكن الأمر مع نيتشه يختلف جذريا، ذلك أن الإرادة لا تعني أنها تريد القوة، إرادة القوة لا تستتبع أي تجسيم، إن من حيث أصلها، وإن من حيث دلالتها، وإن من حيث جوهرها. يجب تفسير إرادة القوة بشكل آخر: القوة هي ما يريد في الإرادة. القوة هي في الإرادة العنصر التعاقبي المنطقي والتفاضلي. لذا تكون إرادة القوة خلاّقة من حيث الجوهر. لذا لاتقاس القوة أبداً بالتمثل، فهي لا تُمثل أبداً،وحتى لا تُفسر أو تقُوَّم، إنها ما يُفسِّر،ما يقوِّم، ما يريد. لكن ما تريد؟ تريد بالضبط ما يشتق من العنصر التعاقبي المنطقي .في نفس السياق تحضرنا انتقادات نيتشه لكانط. فدولوز يؤكد أن نيتشه أراد في أصل الأخلاق إعادة كتابة نقد العقل الخالص. الاستدلال الزائف للروح، تعارض العالم، مخاتلة المثل الأعلى: يقدر نيتشه أن الفكرة النقدية تتحد مع الفلسفة، لكن كانط أخطأ بالضبط هذه الفكرة، وأفسدها وخربها، ليس في التطبيق وحسب،بل منذ المبدأ، ،ذلك أن كانط اعتمد على مبادئ صورية،وجعل من النقد نقداً للعقل بواسطة العقل، وهنا سقط في التناقض، عكس نيتشه، الذي حل علم النسابة محل المبادئ الصورية، فإرادة القوة كمبدأ منطقي تعاقبي ونسابي، كمبدأ تشريعي، قادرة على تحقيق النقد الداخلي.كما يؤكد دولوز في معرض تشريحه للمتن

النيتشوي أن هذا النقد ليس موجها فقط ضد كانط، بل إلى ما آلت إليه الكانطية من بعده، (خلفاء كانط في النقد: هيغل، فيورباخ،...) فإذا كان العالم الحقيقي لا ينفصل عن الإرادة، إرادة التعامل مع الحياة والعلم كظاهرة فإننا نكتشف تعارضاً بين المعرفة والحياة، والتمييز بينهما هو في العمق تمييز ذو طابع أخلاقي، معارضة ذات أصل أخلاقي،لكن هذه المعارضة الأخلاقية هي مجرد عرض،للتناقض الديني أو الزهدي، الذي يجد شرحه في العالم المفارق، في تبخيس الحياة والحط من قيمتها،وهي ما يسميها نيتشه على المستوى التيبولوجي بإرادة العدم، التي لا تتحمل الحياة إلا بشكلها الارتكاسي. إنها هي التي تخدم القوى الارتكاسية كالوسيلة التي ينبغي أن تتناقض بواسطتها الحياة، تنفي نفسها بنفسها، تعدم نفسها. إن إرادة العدم هي التي تنفخ الحياة منذ البدء، في كل القيم التي تسمى أعلى من الحياة. وهاكم - على لسان دولوز - أكبر خطأ لدى شوبنهاور: لقد ظن أن الإرادة تنفي نفسها في قيم الحياة العليا .في الواقع ليست الإرادة هي التي تنفي نفسها في القيم العليا، إنما القيم العليا هي التي ترتبط بإرادة نفي للحياة، إعدام لها. وتحدد إرادة النفي هذه «قيمة» القيم العليا. أما سلاحها فهو نقل الحياة إلى تحت سيطرة القوى الارتكاسية، بحيث تجري الحياة بأسرها أبعد على الدوام، مفصولة عما تستطيعه، متصاغرة أكثر فأكثر،نحو العدم، نحو الشعور الخانق بعدمها. إن إرادة العدم والقوى الارتكاسية هما العنصران المكونان للمثل الأعلى الزهدي.

الارتكاسية من الضغينة إلى الأنا الأعلى الزهدي:

كما سبق الذكر،فإن النموذج الفاعل في إرادة القوة، يعبر عن علاقة بين القوى الفاعلة والقوى الارتكاسية، بحيث تكون الثانية تحت سيطرة وتصرف القوى الفاعلة بطبيعة الحال، لكن أحيانا قد تنتصر هذه القوى الارتكاسية دون أن تشكل كلا أكبر وكمية أرقى من القوى، بل بفصل القوى الفاعلة عما تستطيعه، وبضم هذه الأخيرة إليها لتصبح بدورها ارتكاسية،ولفهم واستيعاب هذه القوى، نجد جيل دولوز يغوص عميقا في المتن النيتشوي لتعريف وخلخلة الجهاز

الارتكاسي، وبذلك يسعى إلى حصر التعالقات بين الضغينة، والإحساس بالخطأ وأخيراً المثل الأعلى الزهدي.

الضغينة أو الاضطغان:

لتعريف مبدأ الضغينة يلتجئ دولوز،إلى بسط الاختلافات الموجودة بين الوعي واللاوعي، وذلك من خلال الترسيمة التي يقترحها فرويد للحياة والتي يسميها «الفرضية التوبيكية»، والتي من خلالها يقر بأن نفس المنظومة لا يمكنها أن تحفظ التحولات التي تخضع لها بأمانة،وتقدم قابلية دائمة النداوة، لذلك وجب وجود منظومات أخرى، وهي مثلا بالنسبة لفرويد اللاوعي ،وما قبل الوعي، والوعي (المنظومات الثلاث التي ابتكرها فرويد سنة١٩٢٠ أو التي توصل إليها في المرة الثانية سنة ١٩٥٥ ،وهي ما تحت الأنا، والأنا، وما فوق الأنا) على هذه الشاكلة والتي تعود في العمق إلى نيتشه،يفترض دولوز إذاً أن منظومة خارجية بالنسبة للجهاز تتلقى الإثارات القابلة للإدراك بالحواس، لكنها لا تحتفظ منها بأي شيء، لا تمتلك ذاكرة إذا،وأنه توجد خلف هذه المنظومة منظومة أخرى تحول الإثارة المؤقتة الأولى إلى دائمة. تتطابق هاتان المنظومتان أو التسجيلان مع التمييز بين الوعي واللاوعي: «ذكرياتنا لاواعية بطبيعتها»، وعلى العكس يولد الوعي حيث يتوقف الأثر الذاكري.

لذلك فالمنظومة الواعية نتاج تطور بين الخارج والداخل، بين العالم الداخلي والعالم الخارجي،ومن منطلق كون الفعل يتأسس على / وفي ضوء الوعي، فإن رد الفعل أو الارتكاسية تتم بالعكس عندما تجتاح الآثار الذاكرية الوعي، لكن للوعي قوة فاعلة متميزة ومنتدبة،وهي ما فوق - واعية ،إنها ملكة النسيان. التي وعكس ما تم تحديدها كنافية، شأن علم النفس، فإن لها طابعا فاعلا وإيجابيا، فنيتشه يحدد ملكة النسيان بكونها ملكة توقيف بالمعنى الحقيقي للكلمة، جهاز تلطيف، قوة لدائنية، ومجددة وشافية، وهذا إذا في الوقت ذاته الذي يصبح فيه رد الفعل شيئا ما مفعولا به، لأنه يتخذ موضوعا له الإثارة في الوعي،ولأن رد الفعل على الآثار يبقى في اللاوعي كشيء غير محسوس لكن عندما تتضرر ملكة النسيان،

باعتبارها جهاز توقيف،تميل حينها الإثارة إلى الاختلاط بأثرها في اللاوعي، ويصعد رد الفعل على الأثر إلى الوعي ويكتسحه،لقد أصبح شيئاً محسوساً، ونتائج ذلك أن القوى الفاعلة لم تعد قادرة على الفعل في رد للفعل تحرم من شروطها المادية للممارسة، لا تعود تتوفر لها الفرصة لممارسة نشاطها، يجري فصلها عما تستطيعه وبالنتيجة تصبح الضغينة هي رد فعل محسوس، يكف في الوقت نفسه من أن يبقى مفعولا به، بعدما تضررت ملكة النسيان وأصيبت بخلل وظيفي،وبهذا لا يعتبر نيتشه الضغينة كمحدد للمرض، بل المرض بما هو مرض هو شكل من الضغينة أو الاضطغان، الذي يتحدد طوبولوجيا، بانتقال القوى الارتكاسية، بتبديلها للمكان،إن ما يميز إنسان الاضطغان هو اكتساح الآثار الذاكرية للوعي، صعود الذاكرة إلى الوعي بالذات،وإذا كان إنسان الاضطغان هو كلب بتشبيه نيتشه، لا يرد الفعل إلا على الآثار، هو لا يوظف إلا آثاراً: إذ تختلط الإثارة بالنسبة لإنسان الاضطغان اختلاطا موضعيا بالأثر، لا يعود يستطيع الفعل برد الفعل.. لكن يجب أن يفضي بنا هذا التحديد الطوبولوجي إلى تيبولوجيا للاضطغان. لأنه حين تنتصر القوى الارتكاسية على القوى الفاعلة، عبر هذه الموارية، تشكل نموذجاً بحد ذاتها.

وبالتالي فإن إنسان الاضطغان لا يرد الفعل، وذلك بفضل نموذجه، إن رد فعله يحس بدلا من أن يفعل به،لأنه يجعل من موضوعه مسؤولا عن عجزه الخاص به عن أن يوظف شيئاً آخر غير أثرها،وهو عجز نوعي أو نموذجي .إن إنسان الاضطغان يشعر بكل كائن وكل موضوع كإهانة بالمقدار النسبي بالضبط الذي يخضع به لتأثيره. إن الجمال والطيبة هما بالنسبة إليه حتما، إهانتان لا تقلان أهمية عن ألم أو مصيبة يجري الشعور بها.لا يتم التوصل للتخلص من أي شيء، لا يتم التوصل لنبذ أي شيء. كل شيء يجرح. يقترب الناس والأشياء بلا تحفظ اقتراباً شديداً، تترك كل الأحداث آثاراً،والذكرى جرحاً متقيحاً، الشيء الذي يجعل الارتباط بين الضغينة وروح الانتقام قائماً، وهو الأمر الذي حذا بدولوز بتشبيه هذا الارتباط بالعقدة الأوديبية السادية الشرجية. فنيتشه يصور الذاكرة

على أنها هضم لا ينتهي، وشخص الاضطفان على أنه شخص شرجي، وهذه الذاكرة المعوية والسامة هي ما يسميه نيتشه العنكبوت، الرتيلاء، روح الانتقام، بل إن نيتشه، يقول دولوز: يريد أن يصنع علم نفس يكون حقّاً تيبولوجيّاً، أن يؤسس علم نفس على صعيد الذات. حتى إمكانات شفاء سوف يجري إخضاعها لتبديل النماذج (القلب والتحويل).

وهكذا إذاً يستفيض دولوز في تشريح مبدأ الضغينة، من خلال سماته الأساسية والتي تتجلى في: العجز عن الإعجاب، والاحترام، والحب، وبتوزيع المسؤوليات والاتهام الدائم، وعزو الأخطاء، ذلك أن هاته السمات تميل إلى تكوين عدوانية،تتحكم في شخصية الارتكاسي، فالميل إلى العدوانية هو في عداد القوة بالدقة ذاتها التي ينتمي بها الشعور بالانتقام والضغينة إلى الضعف، لكنه بالمقابل لا يعترف بهذا الضعف،كاختلاف في إطار إرادة القوة، لكونه ضحية الاستدلال الزائف، الذي يجد تجلياته في افتراض أن قوة واحدةً هي التي تكبح مرةً نفسها في الشيء، وتطلق العنان لنفسها في نفس الشيء، مرة أخرى، وللتدليل أكثر يعطينا جيل دولوز مثالاً عزيزاً على نيتشه، وهو الطير الجارح والحمل الوديع، هكذا إذاً فلنفترض أن حملا عالما بالمنطق. يصاغ قياس الحمل الثاني على الشكل التالي: الطيور الجوارح خبيثة (أي الطيور الجوارح هي كل الخبثاء، وكل الخبثاء هم طيور جوارح)، والحال أنني عكس طير جارح، إذاً أن طيب.

لكن الضغينة لا تقف عند هذا الحد، إنها تنمو وتنتقل من موضع إلى آخر في انتظار الانتقال إلى المرحلة الموالية وهي الإحساس بالخطأ،ذلك أن الوضع الأول للضغينة، هو طوبولوجي يعبر عن الطريقة التي تتملص بها القوى الارتكاسية من فعل القوى الفاعلة،أي انتقال القوى الارتكاسية، واكتساح ذاكرة الآثار للوعي، أما الموضع أو الوجه الثاني للضغينة، هو تيبولوجي ،يعبر عن الطريقة التي يأخذ بها الاضطفان شكلاً: تصبح ذاكرة الآثار سمة نموذجية، لأنها تجسد روح الانتقام، وتمارس عملية اتهام دائم، وإذ ذاك، تعارض القوى الارتكاسية القوى الفاعلة وتفصلها عما تستطيعه أي قلب ميزان القوى، وإسقاط صورة ارتكاسية. بيد أن

الأمر يحتاج إلى من يعطي لهذه القوى الارتكاسية شكلاً،إنه الكاهن، يقول دولوز في معرض حديثه عن هذا العبور من التوبولوجي إلى التيبولوجي، وبلسان نيتشه النسابي: «ينطوي أصل الأخلاق على سيكولوجيا الكاهن الأول.» ذلك أن الذي يعطي الاضطغان شكلاً، ذلك الذي يقود الاتهام، ويتابع مسعى الانتقام أبعد فأبعد، ذلك الذي يجرؤ على قلب القيم، إنما هو الكاهن. وبوجه خاص الكاهن اليهودي، الكاهن بشكله اليهودي. إنه المعلم في الديالكتيك، الذي يعطي العبد فكرة القياس الارتكاسي. هو الذي يصنع المقدمات النافية، هو الذي يتصور الحب، حبا جديداً يأخذه المسيحيون على عاتقهم، مثل خلاصة حقد لا يصدق.

وبذلك ينشأ الإحساس بالخطأ والداخلية، بانقلاب القوى الفاعلة ضد نفسها وإلى الداخل، فالتحول إلى الداخل والانقلاب ضد الذات، هما الطريقة التي تصير بها القوى الفاعلة ارتكاسية، بعدما فصلت عما تستطيعه، يقول دولوز مستشهداً بمقطع لنيتشه من كتابه ما وراء الخير والشر: «كل الغرائز التي لم تنطلق، التي تمنعها قوة قمعية من الانفجار باتجاه الخارج، تنقلب إلى الداخل: هذا ما أسميه استبطان الإنسان... هذا هو أصل الإحساس بالخطأ».

وبذلك يجري اختراع معنى جديد للألم، معنى داخلي، يزداد مضاعفة باستبطان القوة، وتسليطها نحو الداخل، وكما هو حال الضغينة، فالإحساس بالخطأ ينمو بدوره منتقلاً من لحظته الأولى التي تحدثنا عنها إلى لحظته الثانية، وهي اللحظة التي يتغير فيها اتجاه الضغينة، من الذات إلى الآخر، ويشرف على هذا التحول في الاتجاه، الكاهن، لكن هذه المرة الكاهن المسيحي، الذي اخترع فكرة الخطيئة، يقول عنها نيتشه، في أصل الأخلاق، المبحث الثالث،: «بقيت الخطيئة حتى اليوم الحدث الأساسي في تاريخ النفس المريضة،إنها تمثل بالنسبة إلينا أكثر ضروب البراعة شؤماً في التفسير الديني». وبهذا لا تتوقف الضغينة من نشر عدواها عند هذا الحد بل تصل إلى مستوى جعل كل ما هو فاعل في الحياة يشعر بالذنب، وبالعذاب، وبهذا الخصوص يشدد دولوز، على توازي الإحساس بالخطأ والضغينة. إذ إن كلاً منهما ليس فقط له وجهان،

أحدهما طوبولوجي والآخر تيبولوجي، بل إن الانتقال من وجه لآخر لا يتم إلا بواسطة شخص الكاهن الذي يشتغل بدوره بواسطة وهم، الذي يصبح مع الأنا الأعلى الزهي الذي يبقى حاضراً منذ البداية باعتباره مركباً وحاصل الضغينة والإحساس بالخطأ،وهم الدين ويصبح الكاهن الزهدي الواسطة التي من خلالها يغلب الأنا الأعلى الزهدي على الإرادة التي تجعل القوى الارتكاسية تنتصر، وتجعل إرادة القوة تنمي الإسقاطات والأوهام، التي بفضلها تستطيع القوى الارتكاسية فصل القوى الفاعلة عما تستطيعه، إن الأنا الأعلى الزهدي يصبح، من قبيل التعريف: «التعبير عن قرابة القوى الارتكاسية مع العدمية، التعبير عن العدمية كمحرك للقوى الارتكاسية».

هذا بالفعل ما وقع فيه الإنسان في المرحلة الما قبل تاريخية، من خلال الترويض، إذ باتت الثقافة كنشاط نوعي تقوم على إعطاء الإنسان عادات، وبجعله يطيع القوانين، وذلك بترويضه حتى يتمكن من الفعل بقواه الارتكاسية، من خلال تزويد الوعي وتعزيزه بالذاكرة، التي تطلبت أعمال تعذيب، واستشهادًا وتضحيات دموية، كما يدلي ذلك نيتشه في أصل الأخلاق، الأمر الذي يجعل من الإنسان في التاريخ، كحاصل للثقافة، الإنسان المدجن، والنشاط النوعي هو النشاط المشوه، والممسوخ الذي يجعل نفسه في خدمة القوى الارتكاسية،دون أن يتساءل عن أصل القيم الحالية،التي جاءت نتيجة انتصار القوى الارتكاسية،لكن نيتشه لا يقف عند هذا الحد، بل ومن منظوره للعودة الأبدية كما سبق وتكلمنَا، ومن منظور الحركة العامة للثقافة والتي بموجبها تزول الوسيلة في الحصيلة، والمسؤولية كمسؤولية أمام القانون، والقانون كقانون للعدالة.. إذ يولد روح القوانين الإنسان المتحرر من القانون، وتولد أخلاقية العادات الإنسان المتحرر من أخلاقية العادات، وبعبارة نيتشه، التدمير الذاتي للعدالة، يقترح نيتشه وفي المرحلة الما بعد تاريخية، الإنسان الأسمى أو الفرد الأسمى، المتحرر من أخلاقية العادات، الفرد المستقل وما فوق الأخلاقي، الذي لايشبه غير نفسه، باختصار كما يقول نيتشه نفسه، «الإنسان صاحب الإرادة النظيفة، والمستقلة والثابتة،

الإنسان الذي بوسعه أن يقطع الوعود... » وذلك انطلاقا من مفهوم التحويل الذي ابتكره نيتشه كميكانيزم، يتم بموجبه قلب العدمية والعنصر النافي إلى إثبات،بعدما تفك القوى الارتكاسية تحالفها مع إرادة العدم،بما يعني ذلك تغييراً في النوعية في إرادة القوة، إذ لن تعود القيم، وقيمتها، تشتق من النافي، بل من الإثبات بما هو إثبات، يجري إثبات الحياة، بعدما تم الاستغناء عن العالم الآخر، المفارق، الذي لن يتم في العمق إلا من خلال التدمير والتجاوز، على أن التدمير كتدمير فاعل للإنسان الذي يريد الهلاك وأن يتم تجاوزه هو البشارة بالمبدع، وهو الأمر الذي يشير إليه نيتشه في : «هكذا تكلم زرادشت» هكذا يصبح النافي مقدرة إثبات: يربط نفسه بالإثبات، ينتقل إلى خدمة فائض الحياة. لم يعد النفي هو الشكل الذي تحتفظ الحياة خلفه بكل ما هو ارتكاسي فيها، بل على العكس الفعل الذي تضحي بواسطته بكل أشكالها الارتكاسية. إن النفي يغير معناه في الإنسان الذي يريد الهلاك، الإنسان الذي يريد أن يجري تجاوزه، لقد أصبح مقدرة إثبات، الشرط الأولي لنمو الإثبات، البشير الطليعي للإثبات بما هو إثبات والخادم المتحمس له.

وهذا بالفعل ما جعل دولوز يؤكد أن لم يجد تناقضاً في فكر نيتشه. فمن جهة، يبشر نيتشه بالإثبات الديونيزي الذي لا يلطخه أي نفي. ومن جهة أخرى، يفضح إثبات الحمار الذي لا يعرف أن يقول لا، والذي لا ينطوي على أي نفي. في حالة من الحالات، لا يترك الإثبات شيئا يبقى من النفي كمقدرة مستقلة أو كصفة أولَى: النافي مطرود كليا من كوكبة الوجود، من دائرة العودة الدائمة، من إرادة القوة ذاتها ومن علة وجودها، لكن في الحالة الأخرى، لن يكون الإثبات فعليا أو كاملاً إذا لم يسبق نفسه ويتبعها بالنافي.يتعلق الأمر عندئذ بنافيات، لكن بنافيات كمقدرات إثبات.

هذا لا يؤمن نيتشه، كما يؤكد ذلك جيل دولوز، بالاكتفاء الذاتي للواقعي مثلما لا يؤمن بالاكتفاء الذاتي للحقيقي: إنه يتصورهما كتجلي إرادة،هي إرادة الحط من قيمة الحياة، إرادة معارضة الحياة بالحياة. كما أن الإثبات المتصور كصعود.

كإثبات لما هو كائن، كصحة للحقيقي أو إيجابية للواقعي، هو إثبات زائف. كما يعتبر أن العالم ليس حقيقيا ولا واقعياً، بل هو حي، وأن ليس هناك من حقيقة للعالم متصورة، أو واقع للعالم ملموس، كل شيء هو تقويم، حتى المحسوس والواقعي.

إن الإنسان الأسمى ومن منظور العودة الدائمة، قد جاء ضد كوارث الديالكتيك، والتي من جملتها النفي والتعارض، لذلك فإن الاختلاف الذي تولده إرادة القوة كعنصر تفاضلي، يجعل من الإنسان الأسمى صيرورة،صيرورة فاعلة تجعل من الحياة ترقى إلى مستوى أن تُعاش وأن تُحب، وليس نفيا كما تعتبره الديالكتيكية، إن الاختلاف يصبح مبهجاً وفرحاً،يقول دولوز في هذا السياق: «إن درس العودة الدائمة هو أنه ليس هناك عودة للنافي. إن العودة الدائمة تعني أن الوجود انتقاء. العودة الدائمة هي إعادة توليد الصيرورة، لكن إعادة توليد الصيرورة هي أيضاً توليد صيرورة فاعلة... والدرس النظري الذي يعطيه نيتشه هو التالي: إن الصيرورة، والمتعدد، والصدفة لا تنطوي على أي نفي، الاختلاف هو الإثبات الخالص، العودة هي وجود الاختلاف الذي يستبعد كل النافي... إن نيتشه كما توصل إلى ذلك جيل دولوز، يفضح كل المخاتلات التي تشوه الفلسفة: جهاز الإحساس بالخطأ، تأثيرات النافي الزائفة التي تجعل من كل من المتعدد، والصيرورة، والصدفة، والاختلاف بالذات، تعاسات ضمير، ومن تعاسات الضمير لحظات تكون، أو انعكاساً أو نمواً. هاكم التعليم العملي الذي يعلمه نيتشه: إن الاختلاف مبهج، وإن المتعدد والصيرورة والصدفة كافية، وإنها بذاتها أسباب للفرح، وإن الفرح وحده يعود. إن المتعدد، والصيرورة، والصدفة هي الفرح الفلسفي بحصر المعنى حيث يستمتع الواحد بنفسه، ويحذو حذوه الوجود والصيرورة.

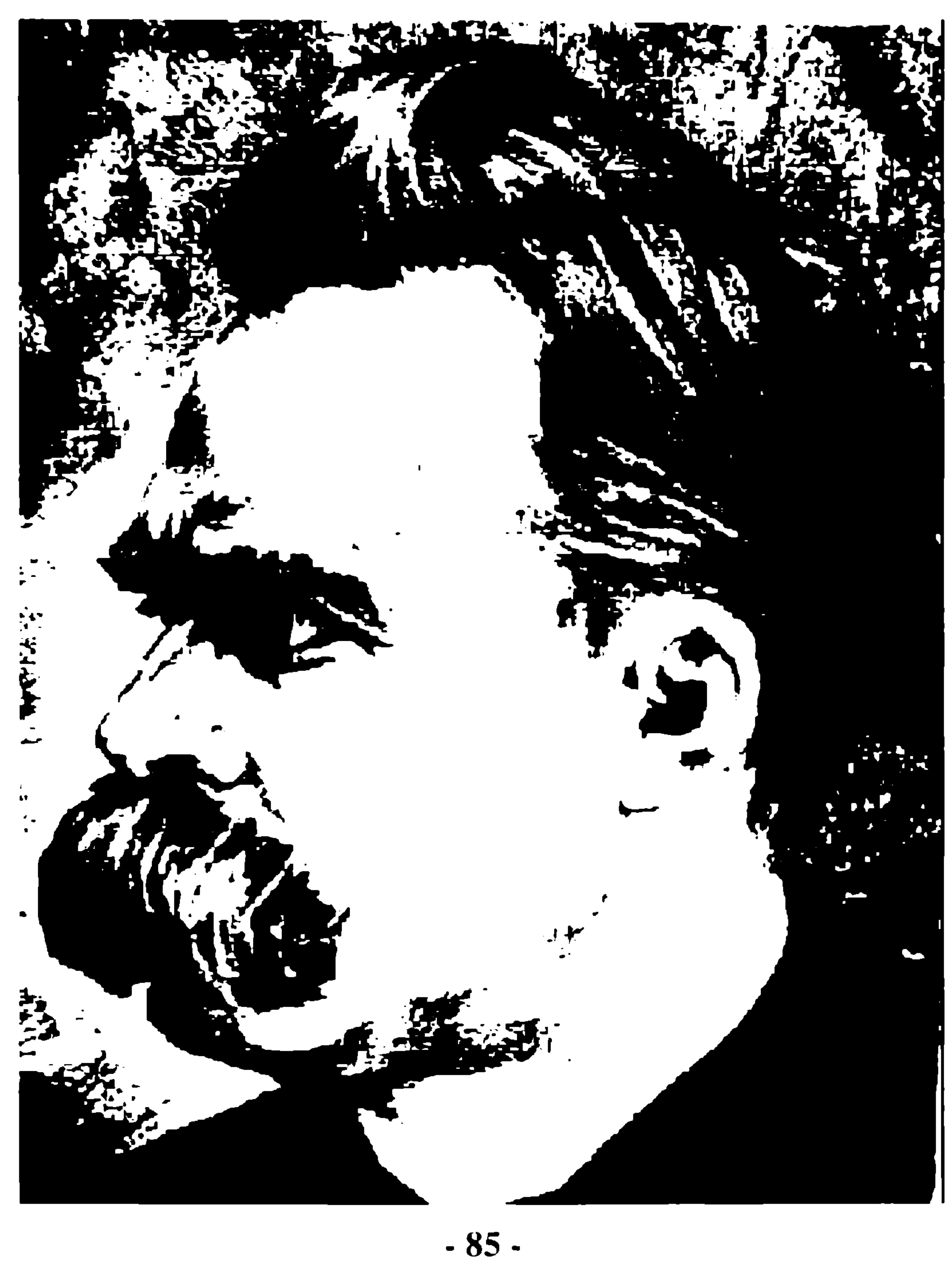
وبطبيعة الحل للمرور من الاختلاف الديالكتيكي، الذي هو في العمق الأيديولوجيا المسيحية، ومن إرادة العدم ومن هيمنة القوى الارتكاسية، التي تعبر عن فكر العبد، ومن عزل الضغينة والإحساس بالخطأ والأنا الأعلى الزهدي بما

هو مركب الإثنين معاً، إلى الاختلاف الفرح والمبهج، وإلى إرادة القوة، كمقدرة إثبات،يقترح المتن النيتشوي، على لسان جيل دولوز، ليس فقط العودة الدائمة والإنسان الأسمى،في تعالقاتهما المفاهيمية،بل كذلك ،وعلى مستوى ربط النظري بالعملي والفكر بالحياة، الضحك بما هو تحويل الألم إلى فرح،وبما هو إثبات المتعدد وواحد المتعدد، والرقص بما هو تحويل الثقيل في الحياة إلى خفيف، وبما هو إثبات الصيرورة ووجود الصيرورة، واللعب بما هو تحويل السافل إلى عال، وبما هو كذلك إثبات الصدفة وضرورة الصدفة. وهذا بكل تأكيد ما تختزنه فلسفة الإرادة،لدى الفيلسوف الألماني نيتشه، والذي يعتبر كتاب جيل دولوز: «نيتشه والفلسفة» الذي صدر للمرة الأولى سنة ١٩٦٢ من بين أهم الكتابات والدراسات الرصينة والعميقة في آن،على هذا الفيلسوف. الذي لا يزال متنه الفلسفي في حاجة ماسة للتنقيب والبحث والمساءلة.

3

الفصل الثالث

فلسفة نيتشه..
معالم اللحظة النيتشوية!!



شكلت الرؤية الفلسفية لدى نيتشه أو كما توصف بـ «اللحظة النيتشوية» وما اتسمت به من خصائص منعطفاً خطيرًا في تاريخ الفكر، وتكمن أهم خصائصها في كونها لم تمثل حلقة في تطور الفكر العالمي، وإنما كانت هى فكرا قائمًا بذاته، حيث كانت مستقلة تماماً عما سبقها من فلسفات، خاصة بتغييرها لطريقة إدراك المعنى وتبديلها لإستراتيجية التأويل!!

وتقوم فلسفة « نيتشه » على أسس أهمها:

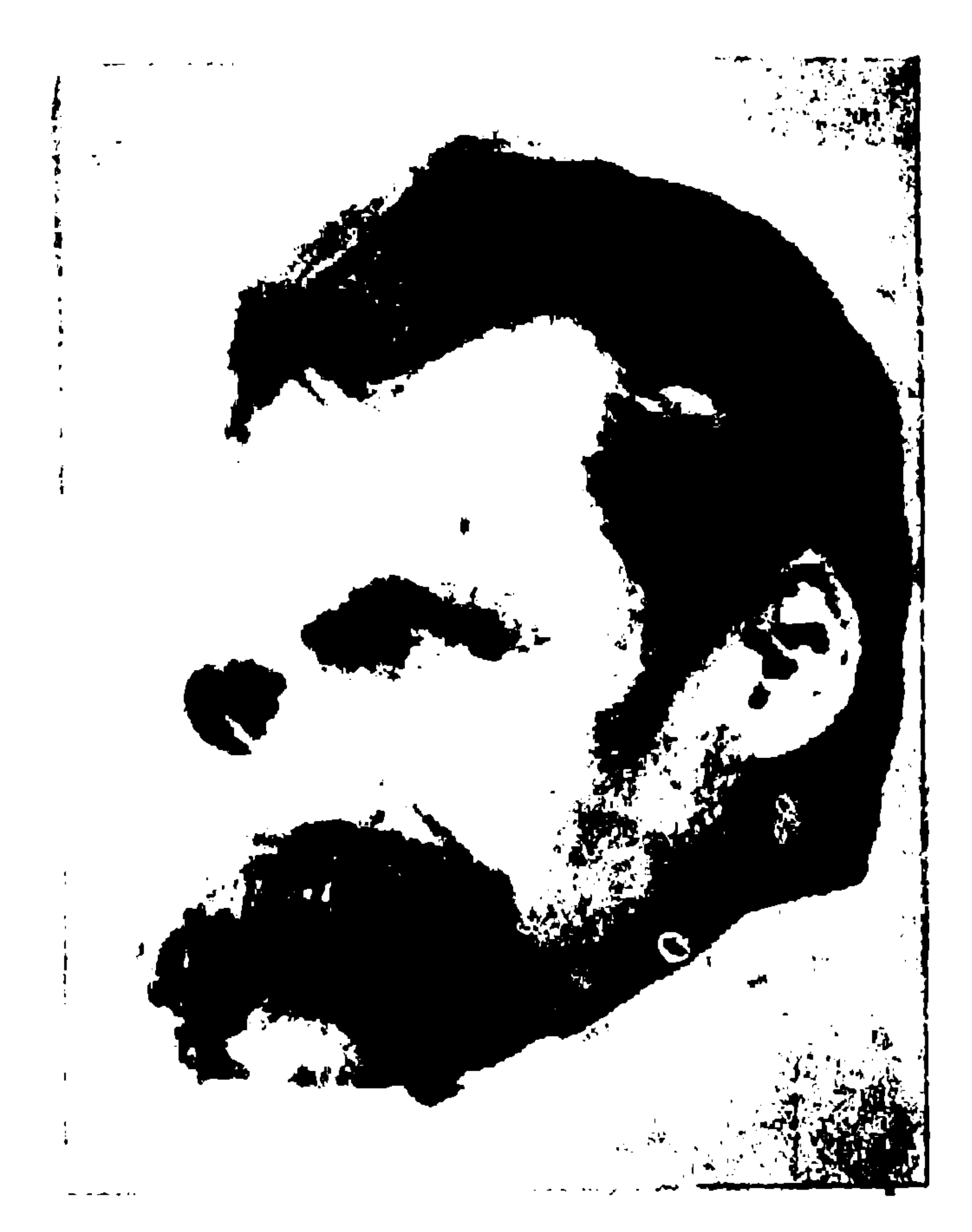
● التأكيد على الذاتية في مقابل الموضوعية بالنسبة للصلة بين الإنسان والعالم. فقد ذهب نيتشه ـ كما ذهب «شوبنهاور» من قبله ـ إلى أن أفكار الإنسان ومعارفه عن العالم الخارجي متأثرة بأوهام ذاتية، ومعتقدات شخصية لا حقيقة لها في الخارج. وأن الحقائق الموضوعية للعالم تختلف عما يتصوره الإنسان ويعتقده عنها، لذلك كانت معارف الإنسان عن العالم إنما هي أوهام ذاتية، وخرافات مورثة.

● إن أخطر هذه الأوهام الذاتية، وأكبر تلك الخرافات المورثة التي تخالف الواقع وتصادم الموضوع إنما هو الدين وكل ما يتصل به.فالدين هو أكبر خرافة توارثتها الإنسانية جيلاً بعد جيل !! وليس من شك أن الدين والأخلاق وما يتصل بذلك إنما هي مظاهر ضعف وانحطاط، لكن هذه المظاهر يتعهدها رجال الدين القساوسة، ويظهرونها على أنها فضائل، لكي يحتفظوا بسيادتهم على جماهير الناس، وتزداد مكانتهم ومكاسبهم المادية، رغم وضوح الكذبة ورغم أن الدين وما يتصل به أمور يرفضها العلم، ويكفر بها العقل الذكي.

● أهم ما في فلسفته جانبان: جانب سلبي، وجانب إيجابي، أما الجانب السلبي.. فيتمثل في النقد العنيف والقاسي والملح للدين والقيم والأخلاق، فهو لا يفتأ في كل مؤلفاته ينقدها ويحاربها على أمل أن يقضي عليها. وقد استغرق

هذا الجانب السلبي القدر الأكبر من مؤلفاته، وأما الجانب الإيجابي.. فهو تمجيد القوة والدعوة إليها، وإلى القضاء على كل ما يعارض القوة ويعرقل مسيرتها، ويعوق تقدم الإنسان مما يسمى بالقيم والأخلاق، من مثل: الحب، والرحمة، والعدل، فهذه الأمور وأمثالها قد عاقت الإنسان إلى أن يتجاوز نفسه، ويرتفع عن مستواه الحالي، ليصل إلى الإنسان الأقوى، أو ما سماه «السوبرمان» ولن تصل الإنسانية إلى هذا الإنسان الأقوى إلا إذا ألقت وراء ظهرها بما يسمى بالقيم، ثم استعملت القوة في الصراع بين الضعفاء والأقوياء، ومن ثم يقضى على الضعفاء، ولا يبقى إلا الأقوياء، ثم الصراع بين الأقوياء، وهكذا حتى تصل البشرية إلى المستوى الأعلى دائماً من أجل ذلك دُعِيَ الرجل «فيلسوف القوة»، ودعيت فلسفته «فلسفة القوة». وهي تسميات غير دقيقة، وإطلاقات خاطئة، والاسم الصحيح، أو الوصف الدقيق لهذه الفلسفة وكل ما يماثلها أنها: «فلسفة الحمقى والمجانين»، وليس ذلك إطلاقاً مجاوزاً للحقيقة، فقد صدقت الأحداث ذلك. وكان الرجل حين تسجيله أفكاره هذه وكتابته مذهبه شبه مجنون، ثم أصيب بالجنون فعلاً وظل الأحد عشر عاماً الأخيرة من حياته في جنون شبه كامل، ورغم ذلك كان يكتب ويحرر مذهبه ذاك.

● فيما يتصل بالجانب الخلقي.. فقد وضع مقياساً للأخلاق ربط فيه بين القوة والفضيلة، بصرف النظر عن مجالات استعمالها، فإن القوي عنده له مطلق الحرية في استعمال قوته في كل المجالات، ولو كان سفك الدماء البريئة، بل إنه يحض الأقوياء على سفك دماء الضعفاء حتى لا يعوقوا مسيرة البشرية إلى الأعلى، كذلك كل ضعف هو رذيلة. بصرف النظر - أيضاً - عن أسباب الضعف، وسواء كانت بفعل الإنسان وإرادته كمن يجهد نفسه فوق الطاقة، أو يتعاطى مطعومات أو مشروبات تضعف الصحة، أو كان ذلك خارجاً عن إرادته وإمكاناته كالضعف بسبب المرض، أو بطبيعة بنية الجسم. وأيضاً: ربط بين الخير والقوة والشر والضعف؛ فأضحى الميزان الخلقي عنده: أن القوة هي الخير وهي الفضيلة ، وأن الضعف هو الرذيلة وهو الشر.



● دعا «نيتشه» إلى شعار يقول «كن نفسك، ولا تكن غيرك». وهو يعني بهذا أن يرفض الإنسان كل الأشياء التي ورثها، والتي تربطه بالآخرين، وأن يحطم القيم، والعادات، والأعراف، والتقاليد، بل يجب عليه أن يحطم أخطر تلك القيود التي تمنعه عن «الخلق» والابتكار وتحقيق ذاته، وهذه القيود الأخطر هي في نظره: الدين، والوطن، والأمة. فهذه الثلاثة يمثل كل منها قيداً يمنع الإنسان من الانطلاق نحو «الخلق» والابتكار. فالناس يؤمنون بهذه الأشياء، والإيمان يعوق الإنسان عن تحقيق ذاته: لأن الدين مأخوذ عن السابقين، فأنت لا تخلقه ولا تنشئه، بل تقلد السابقين، وكذلك الأمة والوطن، ومثل ذلك كل القيم. إنما هي موروثات عن الذين سبقوك. فأين أنت؟ أين ما قمت أنت بخلقه واختراعه؟ لا شيء، ولذلك فأنت صورة مكررة ممن سبقوك.. ولكي تبدع، ولكي تكون نفسك، وتحقيق ذاتك، لا بد أن ترمي بكل شيء موروث عن السابقين، وتخترع أنت القيم الخاصة بك، والتقاليد والأعراف والسلوك الخاص بك أنت، والذي يناقض كل ما كان عليه الآخرون السابقون.

● يركز «نيتشه» في فلسفته على «خلق» الإنسان الأعلى، أي الوصول بالإنسان عن طريق الصراع، و «التطور الذاتي الصاعد»، وهو يطبق هنا مذهب التطوريين، فيذهب إلى أن الكائنات بدأت من الخلية الواحدة «الأميبا»، ثم تطورت إلى الأعلى، حتى وصلت في تطورها إلى الإنسان الذي وقف عند حد معين ولم يكمل مسيرة الارتقاء ليصل إلى الأعلى منه، فكل الكائنات من أدناها قد أدت رسالتها في الترقي إلا الإنسان، وكان على الإنسان أن يفعل نفس الشيء، لكنه وقف في محله، وقد أعاقته أوهامه الذاتية عن الدين، والأخلاق، والقيم، والإبقاء على الضعفاء، وهذه أفقدت المسيرة أهدافها، وعلى الإنسان أن يبدأ المسيرة من جديد، ولن يتم ذلك إلا بالقضاء على الدين والقيم، وإحياء الصراع، وتطبيق قانون «البقاء للأقوى» حتى يصل في النهاية إلى الإنسان السوبرمان !!.

● وللوصول إلى هذه الغاية يجب ألا تترك الأمور تسير تلقائيّاً، بل يجب أن تسير الأمور حسب منهج معين، يلتزم به الجميع دون تهاون، والمنهج اللازم إنما يتم عن طريق أمرين: تحسين النسل، والتعليم، وتحسين النسل يأتي في المرتبة الأولى.وتحسين النسل يتطلب رفض الزواج العشوائي الذي يقوم على ما يسمي: الحب، والذي يقع فيه عظماء الرجال ضحايا للخادمات وأمثالهن تحت ما يسمى بالحب، لكن ينبغي أن يختار الأرقى من الرجال لأمثالهم من النساء، فتتزوج النساء الراقيات الرجال الراقين، ويكون الزواج محكوماً بهذه المعايير، يقول «نيتشه»: «يجب ألا نسمح بزواج يقوم على الحب، وأن يتزوج خير الرجال من خير النساء، أما الحب فلنتركه لحثالة الناس، إذ ليس الغرض من الزواج مجرد النسل، بل يجب أن يكون وسيلة للتطور والترقي... بمثل هذا المولد وهذه التربية يرتفع الإنسان فوق الخير والشر، ولا يتردد في اللجوء إلى العنف والقوة في سبيل الوصول إلى غايته».. والغاية التي يقصدها الرجل إنما هي الوصول إلى الإنسان الأعلى «السوبرمان».

● وكما بذل «نيتشه» مجهودا ضخماً ومستمرّاً في الدعوة إلى حياة الصراع والقوة للوصول إلى «خلق» وإيجاد «السوبرمان». كذلك بذل الفيلسوف مجهوداً

مضاعفاً ومستمراً في محاولات القضاء على الأديان التي تمثل عدوه الأول. ويتمركز حولها حقده ومقته الشديد، لقد جعل بطله « زرادشت»الذي اخترعه ليكون شبيهاً بسَمِيِّه الفارسي « زرادشت ». وليكون معلماً كما كان « زرا دشت » الفارسي معلماً، لقد وضع نيتشه على لسان بطله زرادشت حديثاً طويلاً رمزياً أراد أن يبين فيه أن الدين خرافة، وأن الآلهة قد ماتت، يقول «نيتشه» في كتابه: «هكذا تكلم زرادشت»: «ينزل زرادشت وهو في الثلاثين من عمره من جبله الذي أوى إليه سابحاً في تأملاته، ليعظ الجماهير، ولكن الجماهير كانت مشغولة عنه بمشاهدة رجل يرقص على الحبل، ولكن الراقص على الحبل يسقط ويموت، فيحمله زرادشت على كتفيه ويذهب به بعيداً ليدفنه في قبره ويغلقه عليه»، إن هذه القصة الرمزية أراد بها نيتشه أن يبين للناس الحقائق الصحيحة، لكن الناس كانوا مشغولين بالدين والقيم والخرافات، التي رمز لها «نيتشه» بالأراجوز أو الراقص على الحبل، لكن الدين ما يلبث أن يموت بفضل جهود نيتشه، كما مات الراقص على الحبل عندما رأى زرادشت، وأن نيتشه هو الذي سوف يدفن الدين بيديه، ويعلن موت الآلهة كما فعل زرادشت... لقد التقى زرادشت وهو نازل من الجبل بناسك يحدث الناس عن الإله، فقال زرادشت لنفسه: «هل يمكن أن يكون ما قاله الناسك حقاً؟ يبدو أن هذا الناسك العجوز الخرف لم يسمع بعد أن الآلهة قد ماتت، لقد ماتت جميع الآلهة، ونريد الآن أن يعيش «السوبرمان» الإنسان الأعلى»!!!

● زعم «نيتشه» أن الوجود له غاية، وغاية الوجود هي «الصيرورة» أو «الدور السرمدي». وهو يعني بهذا أن ينفي ما جاءت به الأديان من القول بالنعيم الدائم، والعذاب المقيم، وأن هذه الدنيا ستنتهي بدار خالدة أبداً لا تفنى، وحتى يحارب هذه الحقيقة الدينية، قال بنظرية «الدور السرمدي»، وهي نظرية معروفة في التراث الثقافي اليوناني، وهي تقرر أن الموجودات جميعها تمر في دورات متتاليات صاعدات، تبدأ الدورة بالخلية الأولى، أو بالذرة، ثم تترقى وتتطور تصاعدياً، حتى تصل إلى أعلى ما يمكن أن تصل إليه الموجودات من ترق صاعد،

ثم يفنى كل شيء تماماً، لتعود دورة أخرى من جديد وعلى نفس النمط، وتتكرر نفس الظروف والأحوال والموجودات... وهكذا في دورات دائمة سرمدية لا تنتهي.. قالوا: وهذه غاية الوجود.... وهذه النظرية جمع فيها القائلون بها من اليونان بين أمرين ظنوهما حقيقتين مُسَلَّمتين، أولاهما: أن العالم الطبيعي دائم أزلي أبدي، لا بداية له ولا نهاية، وثانيتهما: أن الوجود الشخصي متغير ولا يبقى على حال، ورأوا أنهم بذلك قد حلوا مشكلة الثبات والتغير في الوجود المادي الذي لا يؤمنون إلا به، فالعالم في مجموعه ثابت ودائم، لكن الأشياء والصور فيه متغيرة وصائرة من حال إلى حال، وقد اعتنق «نيتشه» هذه الفكرة الفاسدة التي تخلى عنها حتى أصحابها، وظن أنه بذلك وضع النهاية للدين وكل ما جاء به... لكنه زاد على الفكرة الإغريقية التي شرحناها، فكرة أخرى أضافها هو من عنده، وهي أن الأشياء التي تعود في الدورة التالية هي نفسها التي كانت في الدورة السابقة، حتى «نيتشه» والشعب الألماني بصفاته وسماته دون أي تغيير.

وسوف نورد هنا أهم الاتهامات التي يوجهها البعض في الشرق والغرب لفلسفة نيتشه.



تمثال نيتشه النصفي الشهير بمتحف برلين

يقول متهمو ومنتقدو نيتشه إنه ليس هناك فكر، وليست هناك فلسفة تخلو من نقد أو تقويم، لكن فلسفة «فريدريك نيتشه» لا تنطبق عليها هذه القاعدة، فهي لا تحتاج إلى نقد أو تقويم، ليس لأنها تعلو على النقد، أو لأنها خالية من المآخذ، بل لأنها أقل قيمة، وأوضح بطلاناً، وأظهر سقوطاً وإسفافاً، وأبين ضلالاً وفساداً من أن تُنقد، إن الفكر لكي يخضع للنقد لا بد أن يحتوي على حد أدني من العقل والمنطق، يجعله أهلاً لأن ينظر فيه العقلاء ويهتموا له، لكن فكر هذا الرجل قد فقد الحد الأدنى من العقل والمنطق، حتى أضحى خيالاً وأوهاماً هي في الواقع أحط من الخيال، وأسف من الأوهام.. إنه لا يقدم للناس أفكاراً وحقائق يقيم الأدلة على صدقها، بل يكتفي بأن يسرد أوهامه ويتجشأ خيالاته التي تنضح بالحقد والمقت لكل شيء في الوجود: الدين، والأخلاق، والقيم، والإنسان، والحق، والخير، والجمال، ولم يَفْلتْ شيء في الوجود من مقته وكراهيته وحقده، حتى نفسه التي بين جنبيه.

ويُتهَم نيتشه بأن خيالاته وأوهامه التي يقدمها للناس على هيئة أفكار فلسفية، إنما هي خيالات وأوهام مريضة، لإنسان فاسد مريض، وقد كانت خيالاته وأوهامه جديرة بأن تذهب سدى، وأن ينبذها الفكر الإنساني كما نبذت الحياة صاحبها، لولا أن اليهود توسموا في هذا الفكر ما يفسد الإنسانية، ويلوث كل ما فيها من حق وخير وجمال، فأمسكوا بهذا الفكر ونشروه، فكان منه هذا الكم الهائل من الغثاء، والذي أضحى معدوداً من المذاهب الفكرية التي على الناس أن يدرسوها ويحللوها حتى يظهروا ما فيها من زيف وفساد فيجنبوا أنفسهم والآخرين ضررها ووباءها.. وإلا فكم من المجانين قادر على أن ينتج مثل هذا الهراء وأكثر.

ويرى رافضو فكر نيتشه إنه لم يقدم لنا فكراً منطقيّاً يقيم الدليل على صدقه، بل يكتفي بسرد أفكاره وتجشؤ أوهامه. إنه قدم خيالا ووهما لا فكرًا، ومن ثم كانت جميع أفكاره من ألفها إلى يائها كمًّا من التخيلات التي لا دليل عليها، ولا سند لها. سوى أنها إفرازات تكشف عن صفتين أساسيتين لصاحبها.

أولاهما: كم هائل من الحقد والكراهية والمقت لكل شيء في الوجود، الدين والأخلاق والقيم والمجتمعات الإنسانية، إنه يمقت كل شيء حتى نفسه، ويصل مقته نفسه إلى التحريض المستمر على قتلها والقضاء عليها.. أليس قد ملأ فلسفته بتحريض الأقوياء على قتل الضعفاء والمرضى؟ ومن كان أشد منه ضعفاً ومرضاً؟ إن فكره يجعله أول المستحقين للقتل والتدمير وإخلاء المجتمع الإنساني منه.. إننا نمقت قتل الإنسان أخاه، لكنَّا نقول: ليت قوياً من الأقوياء في زمانه سمع مقالته مرة واحدة ونفذها في شخص واحد، ليت أحد الأقوياء تبرع وناب عن الإنسانية كلها في قتله، وتطهير المجتمع الإنساني منه ومن أفكاره.

ثانيتهما: جرأة مَرَضية اتسمت بقدر هائل من التبجح والتوقح والعدوانية، جعلته يتجشأ على الناس ويقذف في وجوههم بآرائه المريضة، وأفكاره المعتوهة كأنها حقائق مسلمة، ويعتدي على أقدس المقدسات، ويناقض البدهيات والفطريات دون أدنى قدر من الحرج. وهذه كلها شكلت أقوى الأدلة على جنون الرجل، وانقلاب الموازين عنده.

ويقول المنتقدون أيضا إن «نيتشه» أقام فلسفته وأفكاره على أساس من التعارض بين الذاتية والموضوعية، فقرر أن معارف الناس عن العالم الخارجي إنما هي أوهام متأثرة بذواتهم، ومغايرة للواقع، كذلك قرر أن الواقع مغاير لمعارف الناس. وإذا كان الفيلسوف قد وضع نفسه في كفة والعالمين في كفة، ثم أصدر حكمه منفرداً على جميع الناس أنهم واهمون، وأن علومهم ذاتية لا صلة لها بالواقع.. نقول: إذا كان هو قد سمح لنفسه أن يفعل هذا؟ أو ليس من حق الناس أن يتخذوا منه نفس الموقف، ويحكموا عليه بمثل ما حكم به هو عليهم؟ ومن ثم.. فإن معاملة «نيتشه» بنفس منطقه هذا، وتطبيق تلك القاعدة التي جاء بها، من شأنه أن يزري بفكره كله، وأن ينسف فلسفته بجملتها؛ لأنها - حسب قواعده - مجرد أوهام ذاتية لا صلة لها بالواقع، والواقع معارض لها ومغاير، وكل ما فيه مختلف عنها... فليس علينا - كي نهدم فكره من جذوره - إلا أن نعامله بفكره، ونطبق عليه مبادئ فلسفته بل إنه أولى بذلك من غيره، لأنه إذا كان قد

اتهم الأسوياء من الناس بأنهم واهمون، وأن أفكارهم وعقائدهم إنما هي خيالات وأوهام ذاتية لا صلة لها بالواقع.. فماذا عنه هو الذي قضى حياته مريضاً مشلولاً شبه أعمى نصف مجنون، ثم وقع به الجنون المطبق قرابة الاثني عشر عاماً الأخيرة من حياته التي قضاها يتخبط في ظلام العمى والجنون؟ ليس من شك في أنه الأولى والأحق بصفة الواهم المتخيل الذي يعيش بعيداً عن الواقع، والذي لا يمت له بصلة.

ويتهم منتقدو نيتشه بأنه فيلسوف حاقد أقام فلسفته على أنقاض كل ما هو خير وحق وجميل في هذه الحياة. إنه عاشق للشر والباطل وكل قبح وفساد، إنه ينفر ويحذر من كل ما هو خير وطيب وفاضل، ويرغب في كل ما هو شر وخبيث ودنس... إن أوضح الأدلة على فساد مذهبه أنه أخذ على عاتقه أن يقلب الحقائق، وأن ينقض القيم، وأن يحيل المجتمعات البشرية إلى ساحات للحرب، يقضي فيها الأقوياء على الضعفاء، ثم تستمر الحرب بين الأقوياء، حتى تتحول المجتمعات البشرية إلى أنقاض وخرائب يرتفع فوقها نعيق الغربان والبوم.

ويقولون إن الرجل المريض بعقله يخلط بين الوسيلة والغاية، فالقوة التي ظل طوال حياته يتغنى بها ليست غاية في ذاتها، وإنما هي وسيلة، إن القوة تكون خيرة إذا ما استعملت في سبيل الخير، وتكون شريرة وقبيحة إذا ما استعملت في تحصيل الشر، أما القوة في ذاتها فلا توصف بخير ولا شر، ولا بفضيلة ولا رذيلة، وإنما يتوقف ذلك على الموضوع الذي تستعمل فيه، ولعلنا نتذكر هنا ما ورد في السنة الشريفة من ميزان توزن به القوة من حيث كونها خيراً أو شراً، حين مر على أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم - رجل شاب قوى، يسرع في طريقه، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لو كان هذا في سبيل الله - يقصدون قوة الفتى وشبابه وسرعته في السعي -. فأخبرهم الرسول ﷺ بالميزان الصحيح للقوة حيث قال: إن كان قد خرج يسعى على أبوين كبيرين، فهو في سبيل الله، وإن كان قد خرج يسعى على نفسه ليعفها عن المسألة فهو في سبيل الله، وإن كان قد خرج بطراً ورياء فهو في سبيل الشيطان، أو كما قال ﷺ، هذا هو الميزان الذي

توزن عليه القوة، وقد اقتصر الرسول ﷺ في ذم القوة على أن يكون صاحبها قد خرج كبراً ورياء ومفاخرة. فماذا لو علم الرسول ﷺ أنه خرج ـ كما يدعو نيتشه الأقوياء ـ ليقتل الضعفاء، ويروي الأرض بدماء المرضى؟

ويقولون إن نيتشه أراد أن يحول المجتمعات الإنسانية إلى مختبرات، وأن يحول الناس رجالاً ونساء إلى فئران تجارب وأن يلغي من حياة الناس العواطف والمشاعر، حيث يدعو إلى أن تقوم العلاقات بين الرجال والنساء حسب قواعد جامدة، وبرامج باردة يضعها القائمون على الأمر، فيأتون برجل معين ويفرضونه على امرأة معينة، وكأن الناس قطيع من الأغنام قام عليها راع قاسي القلب، ميت الإحساس.. وبذلك تتحول المجتمعات إلى بيئات لا أثر فيها لعاطفة أو شعور، إن هذه وحدها كفيلة بأن تضرب المجتمع الإنساني في الصميم، وتحيله إلى أخس من مجتمع الحيوان الأعجم.

كسؤال لا يستنفد، هكذا يبدو نيتشه بكثافة حضوره في الدرس الفلسفي المعاصر، ولعل مرد ذلك الحضور، هو موقفه «الجينالوجي» كما موقفه الذي يسعى لقلب تراتب القيم، تمهيداً لتأويل جمالي للحياة، لطالما اقترن مفهوم العدمية به، ولاسيما في مستوياتها المختلفة، ومنها «العدمية الضمنية» وما تنفيه ـ هذه العدمية ـ هو ما يطلق عليه نيتشه الحياة.

فهل تشكل مساهمة نيتشه في تاريخ الفلسفة تحولاً حقيقيّاً في تأويل تاريخ الفلسفة وتاريخ الثقافة الأوروبية برمتها؟!

وذلك السؤال كان هاجس من تتبعوا فكر نيتشه ونقده العنيف، ومحاولته استرجاع حس تاريخ مفقود، بانفتاح دال على «عدمية ثرية» ولاسيما في نزوعها الإنساني على الرغم من المفارقات التاريخية والمعرفية التي وسمت فكر «صاحب الجينالوجيا».

كثيرة هي المقاربات النقدية التي أراد أصحابها الوقوف أمام الخطاب

النيتشوي، في دلالة ومعنى فهمه للتراتب أو التفاضل كإشكالية تتموضع في أنساق فكرية ومعرفية منها القيم والأخلاق والفن والدين والميتافيزيقا.

ثمة مساهمة جادة ورصينة للباحث الجزائري د. عبد الرزاق بلعقروز في كتابه نيتشه ومهمة الفلسفة ـ قلب تراتب القيم والتأويل الجمالي للحياة.. تتميز بانفتاحها على نظرية التراتب وتكامل منهجها التحليلي والمقارن، بمعنى ثمة منهج تكاملي ضبط تلك الدراسة المشبعة بالطريقة الاستقرائية، ليجلو وليسائل نظرية التراتب النيتشوية في سياقها ومظانها، بمعنى الاختلاف في الأصل، بمعنى التفاضل، بمعنى الترويض والاصطفاء، بصرف النظر عن الصعوبات التي واجهت البحث أو قلة الدراسات في ذلك المنحى، أو اقتصار بعضها على عنصر محدد من عناصر الثقافة،... جاء الكتاب بفصول ثلاثة، تتوزع على خارطة اشتغال معرفي يسائل نيتشه في نظريته على مستوى المصطلح والمفهوم، ومن ثم من هيمنة الثقافة الأفلاطونية إلى التأويل الجمالي للوجود، وجينالوجيا التراتب الأخلاقي، أو من الإنسان إلى الإنسان الأسمى. من أجل إيجاد الخيوط الدالة التي تنتبه إلى حقل التاريخ، لتؤول إشكالية التراتب، إذ تنطوي مقاربة الباحث ـ بلعقروز ـ فضلاً عن منهجيتها، بسعيها للوقوف على أرضية الفكر النيتشوي وصولاً لمساءلته معرفيّاً، مضيفاً إلى الدرس الفلسفي العربي طريقة لفهم التجاوز، التجاوز كدالة في خطاب نيتشه وفلسفته ولغته، بتنوع مداخله لتأويل فلسفة نيتشه بالمعنى الكلي، فضلاً عن تتبعه المحاور الفلسفية الكبرى التي هيأت لنيتشه الذهاب عبر حقل معرفي ليستولد أشكال قراءته للتاريخ الأوروبي وللثقافة الأوروبية في صيرورة جدله ومن ثم اختلافه.. وانشغاله بإشكالية التراتب كنسق يقسم العالم إلى تعارضات مختلفة "أدنى، أعلى، شرير، طيب، قبيح، جميل» إلخ.. وهذه تحيل إلى معانٍ وتدل عليها وتدل على معنى هو عبارة عن قناع يغلف تأويلات مستبطنة وسابقة. هكذا يبدو سجال النص النيتشوي مع القيم السياسية لعصره (كالديمقراطية، والمساواة، والعدالة، والتسامح) ليعلن أن قضية التراتيبية هي قضيته الرئيسة ولكن ما هو موقع التراتب في الفكر

الفلسفي؟! ذلك ما نجده في استخلاص الباحث، أي التراتب انطلاقاً من بعض النماذج الفلسفية، كأنه يحكم تاريخ الفلسفة، أو أن تاريخ الفلسفة هو تاريخ قلب التصورات وتفكيك القناعات وذلك لتصحيح التراتبات الزائفة بمعنى إضافي أي أن التراتب (توزيع الأفراد وفق مختلف المستويات على قدر أهميتهم يوزعون من الأعلى مستوى إلى الأدنى اجتماعياً وسياسياً) يمارس حضوره في شكل نظرية فلسفية فمعاناة المسافة ومراتب الناس قد احتل الصدارة في نظرية نيتشه الثقافية، التي تستدخل معها عنصري المعنى والقيمة، فما قيمة أخلاق ما، أو فن ما، كماهية للسؤال النيتشوي الأساسي ونتعرف على منظوره الخاص مما قصده بالنوايا الأخلاقية أو اللاأخلاقية بمعنى أصل أفكارنا عن الخير والشر ولاسيما في تقابلات المرايا والألوان، ما سر استخدام مجازها، هل للدلالة على الأقنعة التي تغلف وجوه القيم أم ثقوب نطل من خلالها على حضور الأشياء، نيتشه كان يعني ذلك كله كما ذهب تحليل الباحث بلعقروز، ليقف على حقيقة أنه لا وجود لأصل نقي وصاف إنما الأصل داخل ذاته ينطوي على التعدد وليس التطابق والتشذر،، وليقف أيضاً على مفهوم نيتشه «الضبابي» الذي لا يتحدد في صيغة نهائية ودلالة الفئة التي يصطفيها نيتشه، المتفوقة والقوية والغنية ليحقق معادلته المفقودة: الإرادة تساوي الإبداع في وجود أرضي جميل سينادي بالعيش معه كهدف، ما يؤدي إلى إعادة الاعتبار لقيمة العالم وتأسيس الثقافة الأوروبية على أسس بديلة منها التأويل الجديد الذي يمجد الأرض وتكليف الفن بوظيفة تحرير الإنسان من ثقل التراتب النافي للحياة والمقزم لقيمتها على الأرض، مؤسساً لعلم جمال الحنين أو التوق للماضي، يذهب نيتشه إلى أن الشعر محفز للحياة وأكثر من ذلك ليضع قسمة نهائية بين التجربة العقلية والتجربة الجمالية «بأفلاطونيته المقلوبة» لكنه في مناهضته «لعمال الفلسفة» أو «حارسي القيم» يقلب السؤال الأخلاقي موظفاً أشكال التحليل السيكولوجي والفني لتكريس عقيدة التراتب بين البشر مستأنفاً تصورات آرثر دي غوبينو في كتابه «تفاوت الأجناس البشرية» وأن ما يصطلح عليه الباحث بتفكك النيتشوية على غرار تفكك الهيغلية، سيبدو

كنتيجة حاسمة لاستنفاد فكرة المفاضلة بين الثقافات والحضارات، وفكرة الانسان الأسمى لكنها في شرطها التاريخي أنتجت تلك الانعطافات الجذرية في تاريخ الفلسفة ليؤسس عليها ما يعرف اليوم بتيار ما بعد الحداثة ولنستنتج مع الباحث نزوع الثقافة الغربية إلى التشاؤم، بل نزوع الفلسفة بأنظمتها المعرفية إلى الشك والقلق، ربما أصبحت بدورها (ضحية) كما يقول نيتشه بتأويل الباحث ضحية عصره بالمعنى المعرفي، دون تجاوز أن نيتشه انحاز للإرادة والفكر من أجل تحريرهما وليختزل الوجود بالإبداع والإرادة بالبناء ويصبح العالم نصًا يفيض بالمعنى فهل وقع نيتشه ـ الفليسوف ـ في حبال لميتافيزيقا وتحولت لغته إلى قوة مارست ضغطها عليه، سؤال لا يبتدئ من نيتشه ولا ينتهي عند الفلسفات المعاصرة، في سعيها لمضاعفة التأويل الجمالي للحياة.. تعويضاً عن مزالق اللغة وضلالاً وجودياً مفترضاً.

في كتابه عن نيتشه واللاأخلاقية يحاول أحد المفكرين الفرنسيين للقرن المنصرم تفسير ظاهرة استفزت العديد من محترفي الفلسفة، ألا وهي الشهرة التي حازها نيتشه في الأوساط الثقافية الأوروبية. يقول بأن هذه الشهرة التي بدت للعديد من الفلاسفة بأنها فضيحة، لها أسباب ظاهرية وأخرى باطنية وعميقة. فأسلوب الاستعارة يصلح لجمهور ليس لديه لا الوقت ولا الوسائل للتعمُّق في أي شيء، بل إنه يُصغي بانتباه شديد للألغاز الحِكَمَويّة، خصوصا إذا كانت شعرية، إلى حدّ تبدو له وكأنها وحي منزَّل.

ثم إن غياب البراهين العقلية والحجج المنطقية تُضفي على الدوغمائية المعارِضة مسحة من السلطة الروحية في أعين ذاك الخليط من أنصاف المتعلّمين، من أدباء وشعراء وموسيقيين وهاوين من جميع الأصناف. مفارقات تبدو في ظاهرها أصيلة تُعطي لمن يقبلها الغرور الوهمي بأنه مُبدع. إلاّ أن هذه الشهرة، يواصل الكاتب، لها أسباب أعمق وذلك أنها قدّمت تعاليم موغلة في الشخصانية والأرستقراطية على أنها قلبٌ نهائي لكل دين وأخلاق. كتاب زرادشت هو قصيدة شعرية تولّد نشوة في أذن السامع بغضّ النظر عن محتواها، وهو

أيضا ردّة فعل، صائبة بمعنى ما، ضدّ الأخلاق الوجدانية التي كرّسها أولئك الذين يدعون إلى «ديانة العذاب الإنساني». بعد نقد هذه الوجدانية المُشطّة، نيتشه يُحارب العقلانية. والمفكرون العقلانيون الذين تتجه لهم سهام نقده على صنفين: هناك العلماء الوضعيون الذين يعتقدون بأن العلوم الصحيحة تكفي للتفكير الإنساني، وهناك الفلاسفة العقلانيون الذين يرون أن الواقع عقلاني وأن العالم في ذاته هو كائن مُنظَّم تسري فيه العقلانية من جميع جهاته. لكن نيتشه يعارض هذين التوجهين، كما فعل شوبنهاور، بفلسفة الإرادة. إن أولوية الإرادة والقدرة على الوجدان والفكر هي جوهر تعاليمه وأسّها.

لكن على الطرف النقيض من هذا الحكم، يتموقع أحد المفكرين الفرنسيين المعاصرين، هوبير سوفرين في كتابه «زرادشت نيتشه» حيث يرى أن نيتشه سواء من حيث الأسلوب أو الأفكار هو فيلسوف مجدّد، لاراهني، وطريقته في التفلسف لا تتسع إلى البراهين وسلسلة الحجج التي كان يستخدمها الفلاسفة الكلاسيكيون: الثقافة الديونيزية كفت عن الانحصار في قوالب العقلانية وفضلت الشعر والحكمة والاستعارة: » إذا كان هذا الأسلوب، البنوي الشعري في آن، أسلوبا غير معتاد، فذلك لأن نيتشه غير معتاد سوف نرى في الواقع أن عبر تحويل القيم يشرع نيتشه في اعتراض جذري على كلّ ثقافتنا بواسطة المشروع الطموح المتمثّل في استبدالها بثقافة أخرى مختلفة وأرقى يمكن القول إنها فويشرية سنرى أن الملمح الجوهري للثقافة الجديدة التي يتطلّع إليها نيتشه، إنما هي الإبداع، والعفوية، والفنّ، التي يشكّل اللعب أو النشاط الطفولي، أو الرّقص أفضل صورها، والتي يمكن أن يكون رمزها ديونيزوس، إله السُّكْر والرقص، لا سقراط. إن ما يطالب به نيتشه إنما هو ثقافة يستعيد الديونيزوسي، المخنوق منذ اليونان الكلاسيكية بيد الأبولوني والسقراطية، يستعيد فيها مكانه بالضبط. لهذا السبب سوف يفضّل نيتشه على «سلاسل الأسباب الطويلة» التي كانت تفتن ديكارت كثيرا، الشعر والمثل السائر، والكلمة الجامعة، والمجاز والنشيد التقريظي،

والاستعارة والمحاكاة الساخرة ثمّة هنا فكر وتعبير ينبثقان من تلك الثقافة الأخرى المبشًّر بها ولا تجري قولبتها في قوالب ثقافتنا العقلانوية».

لكن كيف كانت صورة نيتشه بالنسبة لمعاصريه؟ وما المحطات المهمة التي مرت بها إنتاجاته الفكرية؟

نبدأ من اختصاصه الأول وهو الفيلولوجيا: حينما اطّلع الفيلولوجي الكبير فون فيلاموفيتس، على عمل نيتشه «مولد التراجيديا من روح الموسيقى»، أصابه الذهول من كيفية تلاعب الأستاذ الشاب الذي يدرّس تلك المادة في جامعة بازل، بعِلمه لأجل إرضاء استيهامات فاغنر حول الموسيقى. وقال بلهجة تأنيب قاسية، ليس من الصعب، نقض جميع هذه التوهمات والبرهنة، على أن أستاذ الفيلولوجيا هذا قد شيّد أحكامه «على عبقرية مُموَّهة وتحكّمات في علاقة مع الجهل وقلّة حبّ الحقيقة».

أحد زملاء نيتشه، الفيلولوجي هرمان أوسنر، بعد تصفّحه «مولد التراجيديا»، أصيب هو أيضا بخيبة أمل وعبّر عن استيائه قائلا: «إنه عبث لا أكثر ولا أقلّ. هذا الكتاب لا يصلح لشيء: مَن كتبَ شيئا من هذا القبيل فقد أعلن موته بالنسبة للعلم».

«مولد التراجيديا» كعمل فيلولوجي، بدا للمختصّين أنه يمثل ضربا في العمق لعلم الفيلولوجيا، واستهتاراً بمبادئ البحث التاريخي، لا يمكن السكوت عنهما. وفعلا بعد أن عدَّد الأخطاء الفادحة التي سقط فيها نيتشه، الفيلولوجي فيلاموفيتس اختتم نقده بهذه الكلمات: «أعتقد أنني قدّمتُ البراهين على مُعاتبتِي إيّاه بالجهل ونقصان حبّ الحقيقة. ولكن أخشى أني أخطأت في حق السيد نيتشه. فإنْ اعترضَ علي بأنه لا يعبأ بـ «التاريخ والنقد» ولا بذاك «التاريخ الكوني المزعوم»، وبأنه يريد «خلق عمل فنّي ديونيزي»، «وسيلةَ تَعزيَة ميتافيزيقية»، وبأن أقواله ليست لها الوجود العيني الفظّ للواقع النّهاري، بل هي «الواقع الجليل لِعَالَم الأحلام». إن كان الأمر على هذه الشاكلة فإنني أسحب كلّ

أقوالي، وأقدّم صاغرا اعتذاراتي. أترك له عن طواعية إنجيله لأن سلاحي لا يَفلّ فيه».

فيلاموفيتس يؤكد أنه سيسحب أقواله على هذه الشروط فقط، ولكن إن تمادى نيتشه في استهتاره بمبادئ المنهج النقدي التاريخي، وواصل في الوقت نفسه تدريس الفيلولوجيا، فإنه لن يسحب كلامه. بل في هذه الحال ينصحه بشيء واحد: وهو أنّ على السيّد نيتشه أن يَفيَ بوَعده. فليُشهر ترسه وليَتَنقّل من الهند إلى اليونان، لكن عليه أن يَنزل من علياء كرسيّه الذي كان من واجبه أن يُلقّن منه العلم؛ فليجمع أمام رُكبَتَيه نمورا وفهودا، لكن ليس الشباب الفيلولوجي الألماني الذي، في العمل المتزهّد الناكر لذاته، يجب أن يَتعلّم فقط البحث عن الحقيقة فوق كلّ شيء، أن يتعلّم تحرير حكمه بالتزام، لكي يمنح التراث الكلاسيكي إلى الشباب الشيء الوحيد الدائم، الذي تَعِد به ربّات الشعر والذي في ذلك الاكتمال والصفاء لا يمكن أن تهبَه إلاّ الدراسات الكلاسيكية: «المحتوى في قلبه والشكل في روحه».

بعد مرور سنين عديدة وحينما أعاد استذكار حادثة صراعه مع نيتشه حول جوهر التراجيديا، قال فيلاموفيتس: «لقد عمل بنصيحتي: تَرَك كرسيّه الجامعي والعِلم وأصبح نَبيّا لدين ما هو بدين، ولفلسفة ما هي بفلسفة».

لا يمكنني أن أضيف شيئا على حكم مَن عرفه مِن معاصريه كفيلاموفيتس، ولكن شيئا لا بدّ من قوله وهو أن نيتشه قبل التوجّه نهائيّا نحو الفلسفة حاول في ميدان الموسيقى وأراد مزاحمة فاغنر في عقر داره. وهذا التصرّف هو برهان على سوء نوايا الرجل وعدم صدقه والكيد الذي يكنّه، في قرارة نفسه، ويواريه عن أصدقائه.

وقد أنشأ مقطوعة موسيقية على البيانو، بعنوان «صدى ليلة من ليالي سيلفستر» أهداها كوزيما زوجةَ ريتشارد فاغنر بمناسبة عيد ميلادها، كما كان قد فعل زوجها في السنة السابقة. وليس من باب الصدفة أن تَعمّد نيتشه

إهداءها إياها في نفس تلك المناسبة، ومن السّهل حدس نواياه المبيّتة والتي لم تتفجّر بكل مأساويتها إلاّ بعد موت فاغنر.

وقد اعترفت كوزيما، عندما باشرت تأدية تلك المعزوفة النيتشوية، بأنها من شدّة الضحك - على الرغم من مشاعر الصداقة التي تكنها لنيتشه - لم تستطع المواصلة في تأديتها على آلة البيانو.

وكأني بنيتشه قد فقد الرّصانة والإحساس بالواقع، وغابت عنه الحيطة والتبصّر، والدّليل على ذلك أن الرّجل لم يكتف بتلك السخرية التي قوبلت بها مقطوعته الموسيقيّة وبذاك التحذير اللطيف الذي وجّهه إليه فاغنر، قائلا: «لو أنّك أصبحت موسيقيّا لكُنتَ، تقريبا، ما سأكونه أنا لو دخلتُ ميدان الفيلولوجيا». وقد نصحه بجدّ أن يبقى فيلولوجيا ويستمدّ إيحاءاته من الموسيقى. لكنه أبى إلاّ أن يُعيد الكرّة، وتلك كانت الطامة الكبرى. كان على نيتشه - كما يلاحظ آلتهاوز «أن يتوقف عند حدّ مقطوعته المؤلمة «صدى سان سلفستر». لكنه اعتقدَ بلزوم المُضيّ قدُما، والصمود في الطريق الذي اختاره... ولكي يَستَكمِل تعاسته، بدأ في إعادة تطوير مقطوعته الموسيقية «سيلفستر» للبيانو بأربع أيدٍ، وحوّلها إلى ما يُسمى بـ «تأمّلات في المانفريدي». وقد اختار للحكم على مقطوعته الموسيقية هانس فون بولوف مدير أوركسترا فاغنر، دون علم هذا الأخير بذلك.

نيتشه، على كل حال، يعرف جيّدا أن هذا الموسيقار في صراع دائم مع فاغنر وبينهما ضغينة وكره شديد. ويبدو أنه، بفعلته هذه، قد ألقى بنفسه إلى التهلكة؛ فالضربة التي سددها له فون بولوف، تجاوزت في خطورتها وحدّتها الضربة التي تلقّاها من فيلاموفيتس. فعلا، لمّا اطّلع فون بولوف على مقطوعة نيتشه تَملّكه العجب وقال له بلهجة تأنيب مُرّة، بأن تأمّلاته حول المانفريدي هي «أقصى عجرفة خياليّة، إنّها الشيء الأكثر كرها ومناقضة للموسيقى الذي لم أره في حياتي، منذ زمان، مكتوبا على أوراق موسيقية. لقد تساءلتُ عديد المرّات: ألا يكون كل هذا ليس إلاّ نوعا من الفذلكة؟ ربّما كنتَ تَنوي تأليف مَسْخٍ من موسيقى

المستقبل المزعومة؟ أكان عن قصد منك هذا الاستهتار المستمرّ بكلّ قواعد التأليف الموسيقي من السّينتاكس (تركيب الكلمات) الأكثر تعقيدا إلى الأرطوغرافيا (ضبط الخطّ)؟ تأملاتك حول المانفريدي، من وجهة نظر موسيقيّة، لها فقط نفس قيمة الجريمة في دنيا الأخلاق... وبَعدُ، لقد اعترفتَ أنت نفسك بأن موسيقاك «قبيحة» - وهي فعلا كذلك - مُضِرّة بك أنت شخصيّا الذي لم تقدر على قتل كثرة أوقات فَراغِك إلاّ باغتصاب أوثرب (ربّة الموسيقى) بتلك الطريقة».

إنّه حكم في غاية الصرامة والقسوة، وقد أتاه من رجل لا يمكن اتهامه مسبقاً بالكراهية والعداء الشخصي. فقد كان بولوف من المُعجبين بكتاب نيتشه «مَولد التراجيديا» وقد ذهب خصّيصا، إلى مدينة بازل، لمقابلته والتحدّث معه. لكن إعجابه بكتابه لم يمنعه، كموسيقي متخصص، أن يُدلي برأيه ويُقيّم عمل من تجرّأ على غزو أرض ليست بأرضه، ومزاحمة الموسيقيين المحترفين في عُقر دارهم.

هكذا تلقّى نيتشه الضربات الواحدة تلو الأخرى، ضربات من اليمين والشمال دون أن يستفيق من سباته أو يتدارك الموقف، وكأنه يتلذذ بالإهانات أو يَطلبها عمدا. والغريب في الأمر أن الإهانة الأخيرة جاءته إثر أسابيع قليلة من تلك التي وجّهها إليه فيلاموفيتس، حيث اتهمه بالإفلاس الفيلولوجي ونصَحَه بالتخلّي عن التدريس: نيتشه نقيض الفيلولوجي أصبح الآن أيضا نقيض الموسيقي، وهذان الحكمان يمتلكان سندهما من خلال تصريحات نيتشه ذاته، حيث وصف نفسه عديد المرات بأنه ضد فيلولوجي، أما موسيقاه التي بعثها إلى فون بولوف، فقد أرفقها برسالة وصف فيها مقطوعته بأنها «مُقزّزة»؛ هي مجرّد أنينُ موسيقي مثل أنين «القطط على السّطوح».

ولنا أن نحدس، كيف أنّ اعتزاز نيتشه المفرط بنفسه تَكسّر حين اطّلاعه على الردّ الساحق الذي وافاه به فون بولوف. ماذا فعل نيتشه؟ تصاغر أمام الموسيقار وذرّ على رأسه الغبار. ثم أجاب، مذعناً، بنبرة لا تخلو من سخرية: «فلتكونوا

مُتيقنين من أنني ما كنتُ لأجرؤ، حتى على سبيل الفذلكة، على مُناشدَتكم الفحص في موسيقاي إن كان لديّ بَصيص اعتقاد من أنها عديمة القيمة إطلاقا! لكن مع الأسف، لحدّ الآن لا أحد أيقظني من وهمي البريء بأنني قادر على إنشاء موسيقى، حتى وإن كانت مضحكة ومن أيدي هاو... ومع ذلك أواصل الاعتقاد بأنه كان بإمكانكم إصدار حكم بدرجة أكثر حظوة. طبعا درجة قليلة. إن عَزفتُ تلك اللاّموسيقى بطريقتي الشخصية، سيّئة ولكن مُعبّرة... تَصوّروا أنه إلى حدّ الآن، منذ فترة شبابي الأولى، عشتُ على أكثر الأوهام جنونا وتذوّقتُ كثيرا من الغبطة من موسيقاي... صَدّقوني إن موسيقاي الأخرى، هي أكثر إنسانية، أعذب وأنقى... أنتم قد أعنتموني كثيرا. هذا اعتراف أقوله بتألم كبير. مثل الأطفال الصغار الذين اقترفوا بعض الحماقة أقول لكم: «لن أفعلها أبدا».

لم أورد هذه النبذة من حياة نيتشه لغاية استعراض كبواته أو التندّر بمصائبه؛ الفلسفة هي أعظم من أن تُعنى بمثل هذه النمائم. ولكن الفلسفة تُعلّمنا أيضا كشف الزيف ورفع الحجاب عن الأخطاء المتعمّدة والتنبيه عليها، والتحذير من الوقوع فيها. يكفي القارئ مقارنة رأي معاصريه في موسيقاه الذي ذكرته أعلاه، ورأي أحد الفلاسفة المحدثين، حتى يحدس بمفرده مدى البلبلة والزيف والالتباس التي تخضع لها الدراسات النيتشوية الآن، والتي تمتدّ لتطال حتى دقائق سيرة حياته.

يقول ألكسيس فيلوننكو متحدّثا عن علاقة نيتشه بالموسيقى: «كان نيتشه في الواقع موسيقيّاً ممتازاً. فقد كان من جهة ماهرا في العزف على البيانو، وكان من جهة أخرى مرتجلا في العزف موهوبا. والشهادات في هذا المجال قاطعة؛ وأخيرا فإن القطع القليلة التي خلّفها لنا تعبّر عن شخصيّة شديدة العذوبة، بعيدة عن صوتيّات الموسيقى الفاغنريّة إن فاغنر يُحمّسنا، أمّا نيتشه فهو يُهَدهدنا. وذلك هو ما استخلصتُه من فاغنر ومن مقطوعات نيتشه الحافلة على نحو مأساوي بالفجوات». ثمّ يضيف متسائلا: «لماذا لم يحاول نيتشه فعلا أن يَمتهن مهنة الموسيقى؟».

لم تكن لديه الكفاءة اللازمة وموسيقاه رديئة جدًا وفي أدنى المستويات. هذه هي الإجابة الصحيحة، حسب ما يمكن استخلاصه من شهادات معاصريه، لكن فيلونتكو يتركنا في حيرة ويُشكِل علينا الأمر حينما يقول: «الحقّ لا أعرف شيئا عن ذلك. أو بالأحرى لديّ شعور ما: أظنّ أن نيتشه كان خجولا بصورة لا تُصدّق. والفنان الحقيقي هو إنسان استعراضي لا يعرف الحياء بصورة مذهلة». نيتشه خجول! أمر لا يُصدّق حقا. لا أريد التعمّق في هذه النقطة، يكفي الاطلاع على سيرة حياته، حتى تُدحض هذه الفكرة بدون رجعة.

وقد تخلّى نيتشه عن الموسيقى، بعد التقييم السلبي المدمّر الذي وافاه إياه الموسيقار بولوف، ولكن الرجل هو أبعد من أن ينسحب من الساحة الثقافية، بل إنه دخل في ميدان الفلسفة وفيها وجد، أخيرا، مستقرّه النهائي ومَجده الخالد.

أقول: ليته ما فعل ذلك! ليته بقي في مجاله واكتفى ببحوثه الفيلولوجية! لأني أعتقد أن الرّجل حقّا قد أضرّ بالفلسفة ضرراً كبيراً، وجرّ وراءه خلقاً كثيراً كرّسوا أفكاره متسامحين مع ما تحمله من نتائج خطيرة ومُدمّرة على الفكر النظري والعملي على حدّ سواء.

لكن المعضلة الكبرى هي أن جوهر تعاليم نيتشه ونتائجها الخطيرة، على المستوى الفكري واستتباعاتها السياسيّة والاجتماعيّة، لم يقع الكشف عنها من طرف أتباعه من الفلاسفة، الذين في غالب الأحيان أظهروا معه تسامحا مفرطا وتساهلاً في الحكم مع تغطية لا تليق بهم، بل من طرف المؤرخين المعاصرين. وهذه إحدى المفارقات الثقافية الكبرى في عصرنا الحاضر.

في كتابه «تواصل النظام القديم» يخطّ المؤرخ أرنو ماير، نتائج فلسفة نيتشه وتأثيرها السلبي على مسار التاريخ الثقافي الأوروبي وعلى أفكار أجيال لاحقة. حيث يقول ما معناه، بأنه على الرغم من التناقضات المقصودة التي حمّلها أفكاره والاستفزازت المتعمّدة في كتاباته، والصفة الملتوية لتخميناته فإن تفكير نيتشه كان في انسجام مع توجهه السياسي المعادي للديموقراطية والذي يكنّ حقدا

شديدا للاشتراكية زاد من حدّته مع مرور الزمن ومع سقوط معالمه التي تشبث بها الواحدة تلو الأخرى. في المجال الاجتماعي كان الرجل من المتحمّسين للداروينية، لا كنظرية علمية تقدّمية، كما رآها معاصراه ماركس وإنجلز، مَثّلت كسبا عظيما في المجال العلمي، خلّص الإنسان ونظرته للطبيعة من اللاهوت والأسطورة. بل إنه قد تحمّس لجانبها الأيديولوجي الرجعي والأكثر عداء للإنسانية. العالم بالنسبة إليه هو حلبة صراع بين فصيلين من الناس: الأسياد والعبيد المستغلين والمقهورين. والقهر والتسلط ومحق الضعفاء هو جوهر إرادة القوّة لصالح الثقافة العليا؛ ولأجل تثبيت الفن واستمرارية الثقافة يمكن التضحية بقسط كبير من البشرية.

لذلك فإن المثل الأعلى لما يجب أن يكون عليه المجتمع هو العالَم اليوناني القديم وعصر النهضة لأنهما أنتجا طبقة الصّفوة والنخبة الأرستقراطية من حيث الأخلاق والذوق. الأرستقراطية منتجة التعابير الثقافية والفنية العالية من حقها احتقار العامة التي لا تشاركها حتى في الإنسانية.

ويبدو أن نقده للحداثة، كما يقول المؤرّخ، نابع أصلا من نظرته النخبوية الإقصائية، ومن إعلائه من مفهوم إرادة القوّة ومن تشبثه بالتمييز بين الناجحين وهم الأقلّية وبين الفاشلين في الحياة وهم السواد الأعظم من الناس الذين عليهم أن ينصاعوا صاغرين لحتميّات القوّة.

أودّ أن أضيف بأنني لم أتجنّ على نيتشه حينما قلتُ بأنه مُنظّر رجعي، فجميع التيارات اليمينية في الغرب، الآن وسابقا، تتبنّى أفكاره وشعاراته، وما فَتَنهم فيها هو لاعقلانيتها العضوية، وشحنتها الحربية ثمّ تركيزها على التضاد بين أقطاب لا يمكن أبداً الجمع أو المصالحة بينها. وهذا الأمر راهنيّ جدّا، ويَمسّنا نحن العرب أكثر من أي أحد آخر: يكفي مثلا سرد كيفية تصوّره للتاريخ القديم، وعرضه لصيرورة الحضارة المتوسّطيّة حتى نَعِي بخطورة الرسالة التي يودّ إيصالها للجميع. وكأني بتلك الصفحات من كُتبه التي دوّن فيها تصوّراته هي نسخة مطابقة لكل المنظرين اليمينيين في أيامنا هذه، أعني أولئك الذين يركّزون

طرفيها في كل جهات العالم، بل يجب إعادة ربطها ـ هذه هي المهمّة العاجلة اليوم: «أنا أرى في فاغنر ذاك الإسكندر النقيض».

إذا تركنا جانبا أسطورة فاغنر، ومَحّصنا لبّ خطابه فإن نيتشه هنا يقدّم المادة الخام لكل المفكرين العنصريين. فعلا، مَن من القوميّين اليمينيين اليوم لا يصادق على أقوال نيتشه هذه؟ مَن منهم لا يطمح في بعث الروح اليوناني الأصيل، والتمسّك بالإرث الغربي؟ لقد أضافوا اليوم إلى التراث اليوناني الكلاسيكي، وبعد عقدة الذنب التي أصابتهم، الإرث اليهودي ـ المسيحي، في الوقت الذي يكفي فيه مراجعة كتابات المنظرين والفلاسفة الغربيين حتى نرى أنهم أنكروا بشدّة أية صلة بين الشرق والغرب، وأية علاقة تربطهم باليهودية. هذا التملّق لليهود بعد إهانتهم، لا يُضعف من مخاطر الانغلاق والإقصاء، بل إنه يضاعفه ويزيده حدّة: فالعالَم المُقصى الآن أصبح العالم الإسلامي الذي يُمثل الشرق، وبالتالي فكل من لا ينتمي إلى حضارة اليونان، ولا يتبنّى الديانة اليهودية المسيحية فهو النقيض الطبيعي للغرب، وبالتالي ناقص عقل ودين، ومن ثمّ وجب إرجاعه للجادّة عن طريق القوّة.

لكن قد يعترض أحدهم بأن نيتشه بينما يَلعَن باستمرار العالم المسيحي الغربي ويزدريه، فهو يُحابي العالم الإسلامي ويكنّ له مشاعر الإعجاب؛ ثم ألم يُعلِن في فترة ما عن الشعار التالي: «حربا دون هوادة على روما! سلاما وصداقة مع الإسلام»؟ فعلا هذه الكلمات وردت في «عدوّ المسيح» (٦٠)، ولكنها مُخاتلة؛ في ظاهرها الرحمة وفي باطنها العذاب، وعلى كل حال فهي دليل على تناقضات هذا الرجل وتذبذبه الدائم. فهو في مرحلة ما، جمع الإسلام واليهودية والمسيحية في بوتقة واحدة، وحكم عليها بأنها نتاج الشرق، أي النقيض الطبيعي للعالم الغربي الجرماني. ثم في «العلم المرح» (١٤٤) أثنى على أخطر تهديد يمس الحضارة الإنسانية، أعني حروب الأديان. فهي، بالنسبة إلى نظرته الحربية للتاريخ، شكّلت أكبر تقدمٍ للإنسانية، لا بل للجماهير عامة. وذلك لأنها تبرهن على أن الجمهور، بفضل حرب الأديان، أخذ يتأمل المفاهيم بشيء من الاحترام.

نيتشه، قانونه هذا: لا يُثني على ملة أو حضارة أو دين إلاّ بقدر ما يعثر فيها، أو يضع هو نفسه فيها، من أسباب القوة والصلافة والعذاب. انظر مثلا إلى مواقفه من اليهودية: بعد أن بدّع على تعاليمها، منساقا وراء الكليشيهات السارية في العالم المسيحي، وحينما اطلع بجدّ على أدبياتها الدينية وتاريخها، تراجع، بدّل موقفه وقال بأن «اليهود هم في الطرف النقيض لكل المنحطّين»؛ ثم إن اليهود الأوائل الذين قتلوا واضطهدوا وأبادوا الكنعانيين (كما يفعلون اليوم مع الفلسطينيّين) هم في نظره أعظم وأجمل من اليهود المتأخرين الذين أصيبوا بالخصاء، وأصبحوا نعاجا تفترسهم الذئاب: «تاريخ إسرائيل يملك قيمة لا تُقدّر كتاريخ نمطي لتغيير طبيعة القيم الطبيعية... بدئيا، وقبل أي شيء في أزمان الملوك، إسرائيل اتبعت علاقة صحيحة مع كل الأشياء، هذا يعني علاقة طبيعية، يهوه كان تعبيرا عن ضمير القوة... منه يُنتظر النصر والخلاص... هذا هو المنطق لكل شعب في حالة قوة ويمتلك إدراكا جيدا بهذه القوّة».

أما شعاره المنادي بالصداقة مع الإسلام، إذا وضعناه في سياقه التاريخي، فإنه سيفقد من مغزاه الثوري، لأنه جاء كردّة فعل ضد مناشدة الكنيسة الكاثوليكية، آنذاك للقوى الغربية التدخل ومنع المتاجرة بالعبيد التي مازالت تقوم بها بعض البلدان الإسلامية. ولذلك فإن قولته تلك داخلة في عموم تصوّره للحضارة التي لا ينبغي أن تقوم إلاّ على جماجم العبيد: لقد تحوّل عدوّه من الشرق إلى الغرب، وهذه الزحزحة الجغرافية قام بها فقط لأنه استشف بدء استفاقة الضمير الغربي، وخطر انهيار عالمه الأرستقراطي الفجّ.

نيتشه يُثني على إسلام وهمي، ابتدعه من محض خياله وصبّ عليه أمانيه، كما يَفعل الآن المثقفون الغربيون أو أنصافهم. الإسلام بالنسبة إليه هو الأرستقراطية الحربيّة في مقابل دهماء المسيحية وضعفها، التي تحتقر الجسد، والجنس، والحرب. هكذا تمّ، بمجرّد مجموعة من الأماني والأوهام اللاتاريخية، اختزال الإسلام في قوالب موحّدة وصلبة، كما لو أن فضائله تقتصر على الجنس والحرب والعبودية، ولكأن المسيحية لم تُحارب أبداً ولم تعرف أرستقراطية أو تفاضلا.

ما عدا بعض الومضات الخاطفة، والتي من المحتمل جدّا أنه استمدها من كتّاب فرنسيين معاصرين دون ذكر أسمائهم، كتابات نيتشه هي خزّان لمثل هذه الأفكار، وهي مَعين للعنصريّين، لكارهي البشر، لمحترفي العنف، للإبادات الجماعية، للتطهير العرقي وبالجملة لكل ما هو لاإنساني مفرط في لاإنسانيته. فعلا، نيتشه يحتقر الإنسان العادي الشغيل الذي يسعى لتحصيل رزقه بعرق جبينه، ويطالب بتحسين حالته المادية؛ يزدري رجل العلم المُنكبّ على دراسة الطبيعة لغرض اكتشاف قوانينها، ولرفع حالة الجهل المُهينة عن عقول الناس. على أنقاض هذه الإنسانية الوديعة، فهو يُبشّر بإنسانية كاذبة، براغماتية، متعجرفة لا تملك من قيمة إلاّ القوّة، ولا غاية لها إلاّ فرض ذاتها وإبادة من هو أضعف منها، أي تقريبا ما تفعله إلى الآن، ومنذ قرن من الزمن، أمريكا بالعالم أجمع. انظر بماذا ينصح الناس في زرادشت وعلى أي أسس بنى نصائحه تلك: «الإنسان هو شيء يجب تجاوزه»، مثل القرد الذي هو بالنسبة للإنسان أضحوكة أو موضع خَجل، كذلك الإنسان السويّ في مقابل ما يسمّى بالإنسان الأعلى. كل شيء هالك في سبيل هذا النمط الجديد من الإنسانية: الفضيلة، العقل، العطف والرحمة، الكل يجب أن يسعوا إلى تدمير أنفسهم كي يُهيّئوا الأرض إلى تلك النخبة المصفّرة من الأرستقراطية النيتشوية. هذه العنصرية التدميرية التي لا تصلح إلاّ كزاد للمنظرين اليمينيين في العالم الغربي، يعرضها علينا نيتشه في زرادشت، بلغته الشعرية المنمّقة، ويريد منّا أن نُصغي إليه ونَتّبع حكمته، وكأنها وحي منزّل. بل إن أتباعه أيضا يَطلبون من الناس تقبّل وحيه هذا، استلهامه وتمعّنه ليلا نهارا كما لو أنه مُنتهى ما وصل إليه العقل البشري.

نحن نردّ عليهم بضاعتهم، ونطلب منهم أن يرجعوا البصر ويتمعّنوا النصوص جيّدا، وإن كانوا فعلا جدّيّين أن يُقدِموا على تحقيق نصائحه في واقع حياتهم، أو يجرّبوها لِبُرهة من الزمن. أنا أطرح عليهم تحدياً: أن يُنجِزوا ولو قسطا صغيرا من نصائح نيتشه، ويحققوا نموذج الإنسان الجديد الذي يتمناه زرادشت: «الحق أقول لكم إن الإنسان نهر قذر. ولا بدّ أن يكون المرء بحرا لكي يتقبّل نهرا قذرا

دون أن يغدو متّسخا... ما هي أكثر الساعات سموّا مما يمكنكم أن تعيشوا؟ إنها ساعة الاحتقار الأعظم، الساعة التي تغدو فيها سعادتكم ذاتها قرفا في أعينكم وكذلك عقلكم وفضيلتكم. الساعة التي تقولون فيها: «ما أهمية سعادتي! إنها فاقة وقذارة وطمأنينة بائسة»... ساعة تقولون: «ما أهمية عقلي! هل يتلهّف للمعرفة كما الأسد يتلهف لغذائه؟ إنه فاقة وقذارة وطمأنينة بائسة!... ساعة تقولون: «ما أهمية فضيلتي!..».

ثم «ما هو عظيم في الإنسان إنما كونه جسرا لا هدفا؛ ما يمكن أن يكون جديرا بالحب في الإنسان هو كونه معبرا وصيرورة اندثار. أحبّ أولئك الذين لا يعرفون كيف يعيشون دون أن يكونوا في ذلك منحدرين إلى الهلاك، إذ هم الذين يعبرون إلى الضفة الأخرى... أحبّ أولئك الذين لا يتطلعون إلى النجوم بحثا عن مبرر للهلاك وللتضحية بأنفسهم؛ بل ينفقون أنفسهم لصالح الأرض كي تصير الأرض ملكا للإنسان الأعلى في يوم ما. أحبّ ذلك الذي يحيا من أجل أن يعرف، والذي يعرف من أجل أن يحيا الإنسان الأعلى في يوم ما، وهكذا هو يريد هلاكه».

النيتشويون عليهم أن يختاروا موقعهم في صلب الفئات الثلاث من المجتمع المُعَافَى الذي ينشده، حيث يُفرّق بين أفرادها بحواجز لا يُمكن تخطّيها أبدا: حواجز النظافة، مجال الشغل، مثال الكمال والنجابة. لقد جذب لصفّه الطبيعة، وبنى داروينيته الاجتماعية هذه على أساس الاعتقاد بأن الطبيعة نفسها هي التي ميزت بين تلك الفئات: النابغون روحانيا؛ النابغون عَضَليّا؛ ومَن ليس لهم من النباغة شيء، وهم الأغلبية. الأولون هم المُختارون، الفئة العليا - «أنا أسمّيها: الأقلّية»، ونظرا إلى أنها وصلت قمة الكمال، فهي تُجسد على وجه الأرض السعادة، الجمال، الخير. فقط للأناس الأكثر روحانية مسموح لهم بأن يكونوا جَميلِين «الجمال للقليل من الناس»، وبرفاهية السعادة، والطيبة. هؤلاء الناس بما أنهم الأقوياء يجدون سعادتهم فيما يجد فيه الآخرون دمارهم: في الدهاليز، في القسوة تجاه الذات وتجاه الآخرين؛ مهمّتهم هي التسلية بالأغلال التي تسحق

الآخرين. إنهم أعزّ نوع من الإنسانية: فهُم يسيطرون لا لأنهم يريدون، بل فقط لأنهم موجودون.

الفئة الثانية، هم الحافظون للقانون، الساهرون على النظام والأمن، إنهم المحاربون النبلاء، الذين يحققون إرادة الروحانيين، ويُريحونهم من أثقال الحكم المباشر.

الفئة الثالثة هي في الدرك الأسفل، لقد حكمت عليها الطبيعة بأن تكون كذلك. هذه ـ يُحذر صاحب المجتمع الجديد ـ ليست أمورا اعتباطية مصطنعة، بل إن خلافها هو المصطنع، وبالتالي فهو ضد الطبيعة. نظام التمييز بين الفئات، والتراتب الهرمي، هما أعلى تمظهر لقانون الحياة، للمحافظة على المجتمعات، وجعل الأصناف السامية والعالية ممكنة. أن لا تساوي القوانين هو الشرط الأساسي الذي يجعل من القوانين موجودة. الثقافة العالية هي ثقافة هرمية: لا يمكن أن تنشأ إلاّ على قاعدة عريضة من الضعفاء والمسحوقين. يكفي، شبعتُ من هذه الترهات.

ويرى كثيرون أن العيب ليس فيه بل في نصوص نيتشه ذاتها. أينما ولّينا وجوهنا، وحيثما تصفحنا كتابا من كتبه، سواء السابقة أو اللاحقة في كرونولوجيا أعماله، إلاّ وارتطمنا بنفس الأطروحات، ووجدنا نفس التعاليم التي يَكررها مرّات عديدة، ويُلوّنها بشتى أصناف الخطابة، ثم يقذف بها للقارئ كما لو أنها أفكار فذة وفريدة من نوعها.

عالم نيتشه هو عالم السادية، والتعذيب الجسدي؛ عالم يجب أن يخجل فيه الأقوياء من احترام القوانين والمواثيق، لأنهم فوق القانون؛ وأقصى درجات لذتهم هي الوحشية، وممارسة القسوة على الضعفاء: وكأن نيتشه هنا يُكلّم جلادي أبوغريب، ـ المعتَقَل الأمريكي ـ في العراق أو مُحتَرفي التعذيب فعلا، التلذذ بتعذيب الخلق هو أقصى حالة من حالات التسلية والمُتعة لأناس ينعمون بالعيش في حرب دائمة، لأنفُس تزخر قوّة واندفاعا؛ أنفس انتقامية، قاسية، ماكرة

شكّاكة، مستعدّة للقيام بأبشع الأفعال فقط لأنها قوية. هذه الأنفس لا تشبع من ارتكاب الجرائم البشعة: «الوحشية تنتمي إلى أقدم حفلات البهجة الإنسانية»، والآلهة نفسها تفرح بمشاهدة القسوة التي يقترفها الإنسان. أما الشفقة فهي بحدّ ذاتها مذلة وغير لائقة بالأنفس القوية المهيبة. نيتشه، يتحسّر على الزمن الذي كان فيه التعذيب فضيلة، نكران العقل فضيلة، الانتقام فضيلة، وعلى العكس من ذلك الرخاء رذيلة، حبّ المعرفة تَفَاهة، السلم خطر، الشغل سُبّة، الجنون إله، التغيّر نقصان أخلاقي وواقع مُنذر بالتفسّخ.

إنه عالم مقلوب، كما قلتُ، لا يمكن أن يقبع في ذهن إنسان سليم، لكن العالم المقلوب بالنسبة إلى دجّال الفلسفة هذا، هو العالم المستقيم الذي يَنبغي أن يَتحقق على أرض الواقع. أخلاق الأرستقراطية المُهيمِنة، هي أخلاق الوحوش الضارية التي لها في ميزانيتها «سلسلة بَشعة من جرائم القتل والحرائق والاغتصابات والإعدامات التي يقومون بها بكبرياء وهدوء، وكأن الأمر لا يعدو أن يكون سوى عمل طائش من أعمال الطلبة». إنه الحيوان الأشقر الرائع الذي يتجوّل بحثا عن الفريسة وعن النصر، يحتاج إليهما كمتنفس لحيوانيته « هذا الحيوان الأرستقراطي هو واحد في كل الثقافات» لا فرق في ذلك بين الأرستقراطية الرومانية والعربية والجرمانية أو اليابانية، ولا بين أبطال هوميروس والقراصنة الاسكندنافيين. فالأعراق النبيلة هي التي تَركت فكرة كونها «همجية» مرسومة على الطرق التي سلكتها، وأعلى درجات ثقافتها تشي بوعيها بذلك، بل بافتخارها به... جرأة الأعراق النبيلة هذه، وهي جرأة حمقاء وعبثية وتلقائية، كما أنها طبيعة.أعمالهم التي هي أعمال لا يمكن توقعها أو تصديقها - يُشيد بيركليس خاصة بلا مبالاة الأثينيّين بأمان الجسم وبالحياة والرفاهية واحتقارهم لهذا كله، يشيد بالمرح الكبير والفرحة العارمة اللذّين يشعرون بهما عند كل تدمير وعند التلذذ بالنصر وممارسة القسوة - كل هذا يتلخص لدى من كانوا ضحاياه في صورة «الهمجي» أو «العدوّ الشرير».

أليس هذا بالعالم المقلوب حقا؟ أليس هذا بعالم جلادي البشرية المحدثين، الذين يُسرّحون الآن أبشع غرائزهم الحيوانية ضد شعبَين عربيّين أعزلين؟ عالم مقلوب لأنه عالم الأمريكان الذين إذا دخلوا قرية فتكوا بأهلها وأهلكوا الحرث والنسل، والأدهى أنهم لا يودّون أن نسمّيهم بالهمجيين أو الأشرار. نيتشه يَمنعنا حتى من تسمية الأشياء بأسمائها، لقد حطّم معاني الكلمات وقلبها إلى أضدادها: عالم هوميروس في رأيه هو عالم رائع على الرغم من أنه عالم فظ وعنيف.

في «ماوراء الخير والشرّ» صبّ جام غضبه على المرضى، ووصفهم بأنهم حشرات طفيلية، وسبّهم وأهانهم جهارا. في «جنيالوجيا الأخلاق». الكتاب الذي سمّاه بول ريكور «نصا عظيما». صعّد من موقفه واصلا درجة من العجرفة والصلافة والحقد ليس لها نظير في أدبيات الفلسفة على مدى تاريخها. قال: يجب، بكل حزم، حماية الأقوياء الناجحين، ضد المحيط الطاعوني للمرضى. إن هؤلاء يُجسّدون في ذاتهم الخطر الأكبر الذي يُهدد الأصحاء، فتعاسة المعافين لا تأتي ممّن هم أقوى منهم بل ممن هم أضعف منهم.

شيء لا يُصدّق حقا: ما يهدد الإنسان ليست العداوات والحروب، والفقر والاستعمار والكوارث الطبيعية؛ لا، أبدا، التهديد يأتي من أضعف مخلوقات الله في العالم «المُعتَلّون هم أكبر خطر يهدد الإنسان، وليس الأشرار أو «الحيوانات المفترسة». الفاشلون والمهزومون وذوُو العاهات والضعفاء جدّا هم الذين يلغمون الحياة ويسمّمون ثقتنا فيها وفي الإنسان وفي أنفسنا ويَضعونها موضع سؤال كبير». ما الحلّ إذن؟ يجب قلب العالم، يجب منع هؤلاء حتى من التنهّد، أو تمنّى أن تُفرج عنهم كربتهم يوما ما، عليهم أن يبقوا كما هم أي أعشاب طفيلية، نباتات مسمومة، ماكرة ومتظاهرة بالضعف.

هذه إدانة لأرقى المشاعر الإنسانية، إدانة للأخوة والتضامن والرفق، نيتشه، عوضا عن أن يُوجّه إدانته إلى تجاوزات المجتمع الأرستقراطي الاستغلالي،

يوجهها إلى العدالة. الصراع، لا يتموقع في صلب تناقضات النظام الرأسمالي الشرس الذي يفرض الاستغلال في الداخل والاستعمار في الخارج، بل الصراع الحقيقي يدور «بين المرضى والأصحاء».

لا تأنيب ضمير ولا إصلاحات اجتماعية، ولا حتى بصيص أمل في التغيير، كلها محاولات يائسة يعمد إليها «هؤلاء المشوّهون فيزيولوجيا وذوو العاهات» لقلب عالمه: «وجهة النظر الراقية هي التي يجب أن تقول: إلى الوراء "أيّها العالم المقلوب».

نذير الشؤم والقسوة تكلّم، فانسكبت من فيه عبارات سوقية فظة؛ وحتى إن سرّح في بعض الأحيان خياله وامتطى حصانه المجنّح، فهو لم يقترف أبداً خطأ أن يكون روحا خالصة، لأنه يعود لينغرس في صلب واقعه الراهن ولكي يختار دائما موقعه الرّجعي. هذه المرة انصبّت قسوته على الحيوانات البريئة والسود الأفارقة العاملين في حقول القطن في أمريكا. لقد أذاقهم أسيادهم أبشع الإهانات وساموهم سوء العذاب، لكن بالنسبة للفيلسوف الذي يدعو نفسه لاراهنيا، الأسياد لا ذنب لهم وأفعالهم غير مدانة لأن طبيعة الأفارقة والحيوانات مغايرة لطبيعة الأسياد وتتحمّل النكال أكثر منهم: «هذا على الأقل هو ما استنتجه طبيب قام بعلاج بعض السود (السود الذين ننظر إليهم على أنهم يمثلون إنسان ما قبل التاريخ)، لأنه حين عالجهم من حالة التهاب داخلي شديد الخطورة، وهي خطورة قد تصيب الأوروبيين القويّي البنية باليأس، لاحظ أن هذه الالتهابات لا يكون لها نفس التأثير على السود... وأنا من جهتي لا أشك في أن آلام كل الحيوانات التي استُخدمت حتى الآن لأغراض علمية لا تشكل سوى شيء قليل مقارنة بلَيْلة واحدة من تألم رجل واحد من رجال عصرنا ضعيف الإرادة تتآكله الثقافة والهستيريا».

4

الفصل الرابع

نيـــتـــشـــه وســـالومي..

الحب المســـتـــحـــيل!!



من الشخصيات النسائية التي شغلت الأوساط الأدبية والفكرية فى أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن شخصية تحتل مكانة خاصة هي: لو أندريا سالومي. وقد صدرت عنها أو لها فى الفترة الأخيرة عدة كتب جديرة بالقراءة والتمعن. فهي تكشف لنا عن خبايا علاقاتها برجال مشهورين ليس أقلهم: نيتشه، أو ريلكه، أو فرويد. كما أنها تبين لنا نوعية العلاقة القائمة بين المبدعين الكبار وما يدعى عادة بالجنس اللطيف (أحيانا يكون أقل لطفاً مما نتوقع... وأكثر غباءً).

والواقع أن السؤال المطروح هو التالي: هل تساعد المرأة الموهوبة العبقري على تفتح عبقريته؟ وبأي شكل؟ وما هو الثمن المدفوع لقاء هذه المساعدة؟ للإجابة عن هذه الأسئلة يستحسن بنا أن نتوقف عند علاقتها بالرجل الأول.

كان اللقاء الأول قد ترتب ترتيباً من قبل صديق نيتشه الفيلسوف بول ري وسيدة ألمانية تهتم بالثقافة والمثقفين من الخارج -أي بشكل سطحي ولكن مفيد- هي (مالفيلدا فون ميزنبوغ). ومن كثرة ما كتب له بول ري عن هذه الصبية الساحرة القادمة من البلاد السلافية رد عليه نيتشه بالرسالة التالية:

«سلّم لي على هذه الروسية، إذا كان للسلام من معنى! لاريب في أني أطمع بهذا النوع من النساء، نعم، سوف أكرّس نفسي قريباً للبحث عن فرائس كهذه!.. فأنا بأمسّ الحاجة إلى ذلك من أجل إنجاز الأعمال التي أنوي كتابتها طيلة السنوات العشر القادمات. أما الزواج فمسألة أخرى... كل ما أستطيع قوله فى هذا المجال هو اتخاذ قرار بالزواج لمدة سنتين فقط... (أي زواج مؤقت، أو محطة استراحة).

لكأن هذه الروسية الحسناء ذات النظرات الغامضة والابتسامة القاتلة، لم تكن تنتظر إلا مجرد صدور قرار عن نيتشه لكي تتزوجه!!

سوف نجد فيما بعد أنه قد عضَّ أصابعه ندماً عليها بعد أن رفضته وكان حبها قد تسرب إلى قلبه كالسم الزعاف دون أن يشعر، أو حتى وهو يشعر... هذا لايعنى بالطبع أنها لم تعجب به ولم تعرف قيمته. فمنذ اللقاء الأول أحسَّت بغرابته وعرفت أنه شخص غير عادى. فهو أولا قد تلبَّك وأخذ يبحث فى جيبه عن شيء ما وراح يقوم بحركات غير طبيعية ولم يعد يعرف ماذا يقول... فصدرت هذه العبارة العبثية والمضحكة فى آن ما: (من أي كوكب سقطنا لكي نلتقي؟) هذه هي طريقة نيتشه فى المغازلة!... بعدئذ راحت تسمعه وتتلمذ على فلسفته وتمشى معه فى الوديان والجبال ـوكان مشاءً كبيراً ـ وعرفت الفرق بينه وبين بول ري. ولكن قلبها مال لهذا الأخير على الرغم من كل شيء فالرجال العاديون أفضل عادة للنساء من العباقرة. ثم كانت القطيعة والنميمة والحسد وتدخل الناس والوشاة وكل ما يتلو الحب الكبير من سقوط كبير.

وتركت نيتشه يبحر فى عباب الفكر والظلام وحيدا.

ومما يروى أن نيتشة كان قد كتب لسالومي، التي ملكت عليه نفسه ورآها في وحيه وشعره وفلسفته وكانت موزعة الفكر والقلب بين فلسفة نيتشه وبين فن "فاجنر" فلامها نيتشه على تصرفاتها وشك في حبها له فهجرته وأعرضت عنه فبعث اليها بهذه الرسالة : "ليس من حقي أن أعترض مشيئتك ان إرادتك مقدسة عندي بل أنا أحب أن تكون لك إرادة لكي تكوني على الدوام قوية فيزداد إعجابي بك وعلى أن أسألك لماذا رفضتني زوجا لك؟ وكان يخيل لي أن فكرك قد استجاب إلى فكري وأن قلبك قد خفق لقلبي ولهذا أحببتك فهل كنت واهما هل كنت مغرورا أن أحبك فصارحيني بدخيلة نفسك ومهما كان ردك قاسيا وفظيعا فسأعرف كيف أحتمله... ومن العجب أن الفتاة رفضت الزواج من هذا الفيلسوف العظيم والشاعر الكبير وفضلت عليه الفنان «فاجنر» الموسيقار الألماني ولما بلغه نبأ الزواج قال نيتشه كلمته المشهورة «لقد اجتاز طائر السماء غرامي واختطف المخلوق الذي أحببته ولكن هذا الطائر المدعو «فاجنر» لم يكن نسراً وهذا عزائي».

والحقيقة أن بعض من أُطلق عليهم العباقرة، الحكماء، الفلاسفة، المبدعون من الرجال، عبروا في أعمالهم عن شعور عدائي تجاه المرأة، ضغينة ربما، حسدا أو كراهية خفية، إذ لم تكن المرأة موضوعا مباشرا تتوجه إليه الضغينة بشكلها السافر، ولم تكن تقدم كمنافس لا في الحكمة أو الإبداع الشعري أو الفلسفة، فبقدر أنها لم تعط هذا الدور ـ قبل القرن العشرين ـ فإنها لم تأخذه بإرادتها، بفعل موروث ذكوري رأى فيها ـ ويرى دوماً ـ أنها قاصر، وتابع وموضوع متعة أو خادمة!

هذا الانعكاس للمفهوم الذكوري والقيم الأبوية ـ البطرياركية ـ لم يسلم منه شاعر ألمانيا وفيلسوفها الأكثر شهرة، مؤلف: هكذا تكلم زرادشت. أبعد من الخير والشر. العلم المرح. جنيالوجيا الأخلاق. هو ذا الإنسان ومجموعته الشعرية: ديونيزوس/الأناشيد.

وصاحب النبوءة التي تبشر بقدوم الإنسان «السوبر مان».

في كتابه الأشهر: هكذا تكلم زرادشت، يكتب على لسان زارادشت حواراً بين امرأة وزرادشت يعنونه بـ «الشيخة والفتاة»: يبدأ بسؤال يتوجه به نيتشه إلى زرادشت، الذي اتخذه نيتشه قناعا لكل فلسفته:

لماذا تدلج مختفيا في الغسق يازارادشت؟ وما هو الذي تخفيه بكل احتراس تحت ردائك؟ أكنز وهبته أم طفل رزقته؟

أجاب زارادشت: الحق إنه كنز رزقته، فهو حقيقة طائشة كالطفل، ولولا أنني كممت فمها لصاحت بملء شدقيها (وسنعرف أن هذا الكنز هو النصيحة التي ستهمس بها المرأة لزارادشت).

قال: بينما كنت أسير منفردا التقيت بشيخة ناجتني قائلة: لقد كلمنا زارادشت مرارا نحن النساء، لكنه لم يتكلم عنا مرة واحدة.

قلت لها: يجب أن لا يتكلم الرجال عن النساء إلا للرجال.

قالت: لك أن تتكلم أمامي عن النساء لأنني بلغت من العمر أرذله فلن تستقر أقوالك في ذهني.

وقبلت رجاء المرأة العجوز فقلت لها: "كل ما في المرأة لغز، وليس لهذا اللغز إلا مفتاح واحد وهو كلمة (الحَبَل). ليس الرجل للمرأة إلا وسيلة، أما غايتها فهي الولد، أما المرأة بالنسبة للرجل الحقيقي فإنه لا يطلب منها سوى أمرين: المخاطرة واللعب.. خلق الرجل للحرب، وخلقت المرأة ليسكن إليها وما عدا ذلك فجنون.. تفهم المرأة الطفل بأكثر مما يفهمه الرجل، والرجل أقرب إلى خلق الطفل، ففي كل رجل طفل يتوق إلى اللعب، فلتعمل النساء على اكتشاف الطفل في الرجل. أليس هذا القول موروث تقليدي لم يبتكره نيتشه ولم يأت بجديد فيه؟

ثم يستطرد: «لتكن المرأة لعبة صغيرة طاهرة كالماس المشع.. ولتهتف: لأضع للعالم الإنسان المتفوق (السوبر مان!) ضعي شرفك في حبك وما تعرف المرأة من الشرف إلا يسيرا ليحذر الرجل المرأة عندما يستولي عليها الحب، فهي تضحي بكل شيء في سبيل حبها». ثم ينقض هذا الاعتراف بقوله: إذا كان قلب الرجل مكمناً للقسوة، فقلب المرأة مكمن الشر.. إن سعادة الرجل تابعة لإرادته، أما سعادة المرأة فمتوقفة على إرادة الرجل.

ولابد لها أن تخضع، وأن ترى أعماقاً على سطحها لأن روح المرأة سطحية، في حين أن روح الرجل أعماق تزمجر.. وقد تشعر المرأة بقوة الرجل لكنها لن تفهمها.

عندئذ قالت المرأة العجوز: «من الغريب أن ينطق زارادشت بالحق عن النساء وهو لا يعرفهن إلا قليلا». ثمة إشارة هنا إلى شخصية نيتشه نفسه واضطراب علاقته الحميمية بالمرأة، كما سنعرف من سيرته الشخصية.

والآن أصغ إليّ يا زارادشت، تقول العجوز، فإنني سأعلن لك حقيقة صغيرة

مكافأة على ما قلت، فاسترعها وأطبق شفتيك عليها لئلا يتعالى صراخها من فمك.. قال زارادشت هاتي هذه الحقيقة الصغيره أيتها المرأة.

قالت: إذا ما ذهبت إلى النساء فلا تنس السوط!

هذا هو رأي نيتشه (فيلسوف القوة السوبرمانية) على لسان زرادشت الحكيم. لكن المتتبع لمؤلفات نيتشه وقصائده سيجد أكثر من مثال يجسد رأيه في انحطاط المرأة وقصور عقلها وذلها ودونيتها أمام تفوق الرجل.

في نصوص قصائده النثرية نقرأ هذا الحقد والعدائية تجاه المرأة:

«إن نحن قارنا بين الرجل والمرأة أمكننا القول إن ما كان للمرأة أن تبدع الزينة لو لم تكن لها غريزة الدور الثاني».

«من قصص فلورنسا القديمة، ومن الحياة أيضا :المرأة جيدة كانت أم رديئة تحب الهراوة، ستؤكد هذه المرجعية قبول نيتشه بالقيم البالية حول المرأة، بل إنه كرس هذه القيم في مسار فلسفته ومؤلفاته: فهو يعيد ما كان شائعا: «عندما يكون للمرأة ميل إلى العلوم، فغالبا ما يكون ذلك علامة على أن جنسيتها قد اختلت...» وفي قصيدته «سبعة أمثال عن النساء» نقرأ: «الشيخوخة والعلم القاتم، يهبان الفضيلة حتى لأكثر النساء طيشاً».

«بالجوخ مزينة في صمت وفي لباسها الأسود.. المرأة ممزقة..». «شابة، هي كهف مزهر، عجوز، تنين من داخله يطلع» وفي هذا المقطع يتبدى الحرمان من المرأة في هذه الشهقة: اسم كريم، ساق جميلة.. آه كم رغبت حيازتها»!

وحتى في قصائد المرحلة الأخيرة من حياته «خريف» ١٨٨٨ نراه ثابتا على مفاهيمه العدائية تجاه النساء.ففي قصيدة " الساحرة" نقرأ هذا المقطع: "الحقيقة أنها أمرأة، ولا شيء أفضل.في حياتها ماكرة، ما تحبه أفضل-لا تريد معرفته-بأصابعها تخفيه . إلى ماذا تخضع؟ فقط للقوة . اعتمدوا القوة، كونوا أشداء، أنتم يا أكثر الناس حكمة، وجب عليكم إرغامها . الحقيقة المحتشمة . لسعادتها لا بد من إرغامها . إنها امرأة . لا شيء أفضل».

ومن نصوصه القصيرة «أمثال ولذعات» نقرأ:

«خلق الرجل المرأة ـ وبماذا فعل ذلك؟ بضلع من إله ـ من مثاله».

هنا يبدو التناقض في هذا الاستطراد، فإذا خلق الرجل المرأة بضلع إله ومن مثاله، أفليست تشبه الرجل في قدراته؟ فلماذا تصبح طائشة وحمقاء ولا عمق لها، بل إنها حتى ليست منبسطة:

«نقول إن المرأة عميقة ـ لماذا؟ لأننا لا ندرك عمقها ـ المرأة ليست حتى منبسطة» هكذا ففي فلسفة نيتشه وفي موقفه من المرأة بل وفي ما يعتقد أنه يعرفها، المرأة مجرد كائن خاوٍ لا عمق له ولا سطح، لأنها كائن ملتو، مخادعة ولا ترى سعادتها إلا في خضوعها للرجل، بل من أجل سعادتها علًى الرجل أن يخضعها بالقوة، بالسوط والهراوة. وحين تكون للمرأة فضائل ذكورية فلا بد للرجل أن يهرب منها، أما إذا لم تكن لها تلك الفضائل فإنها هي التي تهرب من الرجل خوفا وإحساسا بالدونية: «عندما يكون للمرأة فضائل ذكورية، فلا بد عندها من الهروب، وعندما لا يكون لها شيء من ذلك فهي التي تهرب». يبلغ نيتشه أقصى تحقيره للمرأة في نص «الصديق» من كتابه « هكذا تكلم زرادشت»: «لقد مرت أحقاب طويلة على المرأة كانت فيها مستبدة أو مستعبدة فهي لم تزل غير أهل للصداقة..» إن حب المرأة ينطوي على تعسف وعماية تجاه من لاتحب «لم تبلغ المرأة بعد ما يؤهلها للوفاء كصديقة، فما هي إلا هرة، وقد تكون عصفورا، وإذا هي ما ارتقت أصبحت بقرة».

في مؤلفه «العلم المرح» الذي يعرفه نيتشه بأنه فن وضع قبعة البهلوان أو رقصة العارف الخاصة، والفن الذي يمنح الإنسان أعينا وآذانا للنظر والسماع بشيء من الحبور إلى ما يكونه هو في حد ذاته.. يعيد نيتشه صياغة رأيه في المرأة فنقرأ في الفقرة المعنونة بـ «إخلاص»: «هناك نساء نبيلات ذوات هزالة فكرية معينة، اللواتي لا يعرفن كيف يعبرن عن إخلاصهن الأكثر عمقا إلا بعرض عفتهن وحشمتهن: أسمى ما يملكن. وغالبا ما يكون مقبولا مثل ما تفترضه

المانحات - أمر محزن جدا» وفي «أن يتظاهر المرء بطبيعته الخاصة» يقول: إنها تحبه من الآن فصاعدا، ومنذ ذلك الحين وهي تنظر أمامها بثقة بقرة غبية: واحسرتاه».. وفي «قوة الضعفاء» يرى أن كل النساء يظهرن أنفسهن في غاية الرقة في تعظيم نقائصهن، ويتفنن في اختراعها ليظهرن هشات مثل التزيينات التي مجرد ذرة عفر تفسدها، فوجودهن يقتضي أن يشعر الرجل بثقله الخاص، وإرهاق إحساسه بذلك.هكذا يدافعن ضد حق القوي «الرجل» على الضعيف «المرأة».

ودون استطراد مطول وقطف متوغل في أعماله التي تعددت وتشابهت، علينا أن نتساءل: ما الأسباب التي دعت هذا المفكر الجبار - كما يصفه دارسوه - إلى اتخاذ هذا الموقف العدائي تجاه المرأة؟

إن نيتشه المفكر الجبار الذي يفتح أمام الفرد آفاقا وسيعة في مجال القوة والثقة بالنفس وتحرير الحياة من المسكنة والذل تائقا إلى إيجاد إنسان يتفوق على إنسانيته بالمجاهدة والتغلب على العناصر والعادات والتقاليد وما توارثته الأجيال من العقائد الموهنة للعزم... كما يصفه «فيلكس فارس «في ترجمته لـ «هكذا تكلم زرادشت» يقع فريسة التقاليد وما توارثته الأجيال من مفاهيم جائرة، وما حبكته من شبكة محطة ومذلة ومتدنية سيجت المرأة عبر العصور وما زالت، حائلة بينها وبين اكتشافها لذاتها الخالصة وقدراتها التي ومنذ فجر التاريخ أبدعت الحياة بتجلياتها المتعددة.

كما أنه لم يستطع بتأملاته الفلسفية ونصوصه الفكرية البالغة الأبهة لم ينتبه أو يقر بأن الصفة «إنسان» لا تنطبق على الرجل وحده.. وإلا فإن الانسان السوبرمان هو نصف إنسان وإن دعوته لإقامة مجتمع لأفراده المتفوقين، ليس سوى مجتمع أعرج!!

يرى الدارسون لحياة نيتشه ومؤلفاته أن ثمة تقاطعاً واضحاً لديه بين المرأة والحياة والحقيقة، حيث أراد هو أن يماهي منظوره للحياة والحقيقة بمنظوره

للمرأة، لكن ـ دون أن ينتبه ـ الصفات التي أطلقها على الحياة مستعارة من الصفات التي سادت غالبية المجتمعات في العصور الوسطى والتي جعلت من المرأة تجسيداً للشر والخطيئة والشياطين. وأن فلسفته في هذا المجال كما في مجالات أخرى لم تكن سوى صدى لفلسفات وعقائد أسسها رجال واحتكروها على مدى التاريخ دون اجتراء نقضها أو نقدها حيث الموت دوما بالمرصاد لمن يتجرأ!

اجتزأ جاك دريدا في دراسته حول نيتشه ما قالت العجوز لزارادشت في حوارية «العجوز والفتاة» (إذا ما ذهبت إلى النساء فلا تنس السوط..) فهل قصد نيتشه الحياة أم المرأة؟ كما أن ما قاله زارادشت للعجوز من أن المرأة لغز ليس له إلا مفتاح واحد هو الحبَل، لا يمكن أن يكون قناعا للحياة، رغم براعة نيتشه في استخدام الأقنعة.

وفي نص آخر يقتبس دريدا هذا القول: (لقد تعبت من رغباتك والسير وراءك أيتها الساحرة، لقد أسمعتك أغاني حتى الآن فلسوف تسمعينني صراخك، هيا ارقصي على نقرات سوطي ألهبك به...) وفي نص آخر يصف نيتشه الحياة بأنها امرأة متقلبة نفور، لا فضيلة لها. وحين سألته الحياة عن الحكمة أجابها بأن الحكمة يشتهيها الإنسان بكل قوته رغم أنه في نص آخر سيقول إن (الحكمة ملجأ الفيلسوف من العقل) ولا يشبع منها، فهو يحدق فيها متسائلا عن جمالها.. ولكم رأيتها تعض على شفتيها وتسرح شعرها، ولعلها شريرة مخادعة بل لعل لها صفات المرأة بأجمعها).

يتساءل دريدا: إذا افترض ـ مع نيتشه ـ أن الحقيقة امرأة، ألم نكن لنشك في أن كل الفلاسفة في نطاق كونهم دوغمائيين، قد أساءوا فهم النساء؟ وإن الجدية المرعبة، والفضول الأخرق الذي تابعوا به الحقيقة حتى الآن لم يكونا سوى وسائل غير موفقة وغير لائقة ليتزوجوا بنتا.. سهلة؟ لكن هذا التساؤل لا يطرحه دريدا ليشك في استنتاجه بل ليؤكده. فيقول: لهذا توضع في كتابة نيتشه كلمة

«الحقيقة» بين مزدوجين (   ) فالمرأة تعني الشكوكية والمواربة المحجبة... يكفي أن نقرأ «عن العفة النسائية» اين ترسخ قصارى فلسفة وشكوكية المرأة لدى نيتشه.

ثمة مفتاح لمعرفة علاقة نيتشه بالمرأة التي بلغت هذا الحد من العدائية والتي في حقيقتها ليست سوى أقصى درجات العشق العصي على التحقق حين يستحيل إلى كراهية وانتقام. وهذا المفتاح هو ما يشير إليه نيتشه في أن (صورة الأم تحدد سمات المرأة.. كل رجل يحمل صورة عن المرأة تعود إلى أمه: إنها هي التي تحثه على احترام النساء بصفة عامة أو على احتقارهن، أو على ألا يحس إزاءهن إلا بعدم الاكتراث).

هل يمكن لهذا النص أن يفسر الكراهية المستشرية في مؤلفاته تجاه المرأة؟

إذا كان السؤال مفتاح المعرفة، علينا أن نطرح هذا السؤال لمعرفة أسباب الموقف العدائي للمرأة من قبل فيلسوف القوة فريدريك نيتشه: هل يمكن لقراءة في النزر اليسير لحياة نيتشه أن تضيئنا حول هذا الموقف؟ وهل للتجربة الذاتية الخاصة، بل شديدة الخصوصية أن تتوغل في اللاوعي لتنسج الموقف الفكري للأديب والفيلسوف تجاه الإنسان والحياة والحوادث؟ ألا يمكن لقوة الفكر والثقافة التي نكتنزها أن تخلخل لا وعينا وتبني وعيا جديداً وإدراكا مغايراً لما عشناه عبر تجربتنا الشخصية؟

يمكننا أن نتساءل كثيراً، لكن قبل ذلك علينا أن نتوقف أمام بعض الحقائق في سيرة نيتشه:

في منظور نيتشه ما له الأولوية هو الجسد «كل شيء يمر عبر الجسد، كل فكرة منه تنبثق، كل وعي يصبح بواسطته ممكناً، وما الروح إلا إفراز بسيط للجسد، ولعلها مجرد تضخم وهمي للذات على الإنسان المتيقظ أن يعرف كيف يفضحه».

هذا التمجيد للجسد سيبدو غريبا لمن عذبه جسده طوال حياته، فقد ورث نيتشه عن والده قصر النظر. كانت عيناه - على حد تعبيره - تغوص حتى ثلاثة أرباعهما في ليل معتم، حتى إنه لجأ إلى من يقرأ ويكتب له.

في عامه الثالث والعشرين يقع أثناء خدمته العسكرية من فوق فرسه ويصاب في صدره.

يتطوع في حرب السبعين ضد فرنسا ممرضاً، فيصاب بالدوسنتاريا ويلازمه المرض طوال حياته.

في عامه الثاني والثلاثين تظهر عليه أعراض الزهري الوراثي فيحكمه صداع شديد فيقول «لا أستطيع القراءة، لا أستطيع الكتابة، لا أعاشر أحدا، لا أستطيع سماع الموسيقى، ألم الرأس المبرح، ألم العينين، شلل نصفي يجعل النطق صعبا». لكن نيتشه سيفلسف المرض ويجعله شرطا للإبداع، وسيقول إن المرض هو أول شيء وفر له ما به تميزت رؤياه، وإنه عرف الحياة معرفة جيدة لأنه أوشك على فقدها.

يصاب نيتشه بحالة من الابتهاج والإحساس بالفرح الطاغي على رغم آلامه فيبدع أغزر إنتاج وهي حالة يسميها علماء النفس «اليوفوريا» تعقبها حالة من الاكتئاب الشديد، يصاب على إثرها بالجنون.

لكن، هل ضعف الجسد وهزاله نتيجة المرض المتلازم هو ما أنتج موقفه العدائي تجاه المرأة؟ ربما نعم وربما أن هناك أسباباً أخرى كامنة في اللاوعي الطفولي، فنيتشه ابن القس «لودفيج كارل نيتشه» وأمه ابنة قس. ولم تكن الأديان في كل مسار تاريخها وتنوعها قد أعلت من شأن المرأة بل إن صفات الشر والسحر والشيطان كانت تلصق بالمرأة وتُحرق بسببها، وليس بمستبعد أن يكون الفيلسوف نيتشه قد تشرب وعيا كهنوتياً سلبياً تجاه المرأة من نشأته بين قس وابنة قس. كما أننا لا نعرف شيئاً عن نمط علاقته بأمه، ولا يذكر الدارسون

منها سوى أن أباه توفي وهو في الخامسة من عمره فكفلته أمه. كما أن الذين درسوا أعماله (وكلهم رجال) ومجدوها، لم يدونوا سوى مقتطفات موجزة من سيرته تركز على ما أنتجه من نصوص وشعر.

يلتقي نيتشه بالموسيقار الفذ فاغنر وتنشأ بينهما صداقة متينة فيعلي نيتشه من فاغنر ويكتب عنه أجمل آرائه في الموسيقى، لكنه يرتد عليه بعد سنوات، ويشن عليه حملة من العداء. يشير بعض الباحثين إلى أن من أسبابها إحساس نيتشه بالغيرة من شهرة فاغنر، قياسا إلى ما يشعر به من تجاهل. لكن للغيرة أسباباً أعمق، فقد عشق نيتشه «كوزيما» زوجة فاغنر، ولم يظهر هذا العشق الذي كان "يحرقه" كما عبر في أكثر من نص وقصيدة عن مفهوم الحب، من دون أن يشير إليها صراحة. بل إنه لم يصرح بذلك العشق إلا على فراش الموت.

أثناء إقامته في روما للاستشفاء، يلتقي نيتشه بـ «سالومي» التي كان يحلم بأن يجعل منها مريدة له والتي سيطلبها للزواج فترفض طلبه.

إن الدراسة المتعمقة لسيرة ونتاج نيتشه . وليس هنا مجالها . ستكشف عن عجز جسدي تام في إقامة علاقة صحية وحميمة من أي نوع كانت بينه وبين أية امرأة. بل إن طاقته الغريزية كانت ترتد إليه، حسب ما أشار فاغنر في رسالته إلى طبيب نيتشه التي عزا فيها حالة التوتر العقلي الزائد عنده إلى (إفراطه) .

ولأن نيتشه لم يكن وحده من عبر في نتاجه الفكري عن موقف عدائي تجاه المرأة، هل يمكننا أن نبحث في الأسباب الخفية لهذه العدوانية لدى كثير من المفكرين ورجال الكهنوت والأوصياء والأدباء في كل مكان وزمان؟

ربما يتوجب على الباحثات من النساء النهوض بهذه الرسالة بالغة الأهمية في زمن يسوقنا فيه المرضى والأغبياء الى الدمار.

إن خطاب نيتشه يكرس إقصاء المرأة عبر العصور من مجال الفلسفة فنيتشه يجعل المرأة مجرد موضوع لعملياته الفلسفية، إما بالتقليل من شأنها صراحة أو باستعمال لفظ «المرأة» استعمالا مجازيا إن مثل هذه الإزاحات الفلسفية والأدبية

للمرأة قد تضافرت تاريخيا مع ضوابط اجتماعية واقتصادية وجنسية وذلك أثناء السعي نحـو وضع النسـاء رهن إشـارة الرجـال على مسـتوى الخطـاب والممارسـة، على أن هدفي من العودة إلى خطاب نيتشه عن المرأة ليس بالضبط هو تكريس تلك الموضـعـة بل إيجاد وسـائل تمكن من هدم الخطاب الذكوري وإعداد المجـال لتجديد خطاب لن تظل فيه المرأة موضوعا للأحكام الفلسفية.

إن تحليل خطاب نيتشه حول المرأة يساهم في تحقيق هذا الهدف، لأن نيتشه ـ رغم عدائه للمرأة ـ يعرض طرقاً لمقاربة مسألة تجديد الخطاب. وعلى سبيل المثال، فإن الحاجة إلى التحرر من قيود النحو تمثل موضوعا نيتشيا دائم التوتر (راجع أفول الأصنام) «العقل في الفلسفة». كما أن شدة هذه الحاجة يمكن أن تنقل بسهولة من الميتافيزيقا ـ حيث استشعرها نيتشه ـ إلى النظام الأبوي. وبالمثل فإن المنهج الجنيالوجي يمكن أن يستعمل بسهولة قصد تعرية الموضوعية المزعومة في الأحكام والادعاءات التي يتبناها الذكور.

وعلى الرغم من مثل هذه التشابهات الضمنية بين الأفكار والمناهج النيتشية من جهة وبعض اهتمامات الفكر النسوي المعاصر. من جهة أخرى، فإن اهتمام نيتشه الخاص بتجديد للخطاب يدع النماذج الأبوية في فلسفته هو سليمة غير ممسوسة. إن توترات مشابهة بين المعاني الضمنية والتعابير الصريحة في فكر نيتشه تتردد باستمرار، فسيرته الفلسفية تظهره دائما في الطريق نحو مواقف تظهر أصولها أولا في استبصارات مباغتة أو تجارب جسورة. ثم تصاغ بعدئذ تدريجيا بدقة متزايدة إذ يستقر على الأشكال الاصطلاحية والمفهومية الملائمة لإدراكها والتعبير عنها.

إنه طبعا يختار أحيانا أشكالا ومصطلحات غير ملائمة. ونتيجة لذلك، فإنه يبدو قاصرا عن إدراك المعاني الضمنية للأفكار المركزية في فلسفته، ذلك أن الصيغ التحيزية المتوافرة له عاجزة عن التعبير عن فكره، كما أن شخصيته ـ نظرا لتجذرها في لحظة ذاتية وحضارية معينة ـ تحول أحيانا بينه وبين إدراك

مسار فكره، أما أسلوبه السجالي، المكيف دائما لملاءمة لحظات غير متميزة فإنه بالطبع يحجب أحيانا نتائج تترتب بداهة عن أفكاره المركزية.

إن أحد الادعاءات «النسوية» في فلسفة نيتشه يتوافق مع نقده للتدين المتكلف الذي يفترض وجود عالم روحي من القيم المضادة وذلك حتى ينهال بالقذف على الجسد المادي وعلى عالم المظاهر. وليس صدفة أن يكون التدين ذكوريا أيضا بشكل ساحق : فالرجال يخترعون فكرة عالم قبلي وعلوي من الماهيات ويقيمون علاقة بينهم وبين ذلك العالم، ثم يجعلون المرأة مرتبطة بعالم الطبيعة الذي هو عالم مشتق من العالم الأول، كما أنه أقل قيمة منه ولتدعيم العلاقات التي أقيمت على هذا النحو، فإن الرجال يعتنقون العقيدة التي تؤمن بأن "الكلمة" لها معنى صحيح واحد (عقيدة تذود عنها سلطة الكهنوت الذكورية)، ثم ينكرون القراءات المختلفة، بل ينكرون حتى فكرة اختلاف القراءة، وهكذا فإن النقد الجنيالوجي الذي يوجهه نيتشه إلى «القيم المضادة» نقد ضمني للميتافيزيقا والدين الأبويين، كما أن إضفاءه للطابع البلاغي على اللغة نقد للسلطة الكهنوتية على الكلمة باعتبارها حاملة لمعنى حقيقي وأحادي الوجود، وهو أيضا نقد للسيطرة الذكورية على المعنى نفسه. إنَّ نقد نيتشه، بتسفيهه لادعاء «فرضية الروح»، يفسح مجالا لخطابات نسوية بديلة، ولكن عداءه للمرأة يحول بينه وبين دخول هذا المجال. ولا ر في أن أشد الأمثلة دراسية على قصور نيتشه عن إدراك مساره الفكري، هو عجزه عن إزاحة الرجل من مكانته المتميزة بعد نجاحه في إزاحة أغلب الدعامات الفلسـ ـية واللاهوتية واللغوية التي ظلَّ الرجل محافظاً بواسطتها على ذلك الامت .

في كل أعماله المنشور منها وغير المنشور، يرد نيتشه ويضخم ميثولوجيا مألو ة عن «طبيعة المرأة» وقد حدد عدد من الكتَّاب الملامح العامة لتلك الميثولوجيا كالآتي : المرأة بطبيعتها خنوع ومستاءة وخداعة وعاجزة عن السعي الذي لا يكل نحو الحقيقة، ذلك السعي الذي ينسبه نيتشه إلى الرجال «النبلاء» بل في الواقع معادية للحقيقة.

وازدواجية نيتشه شهيرة بالطبع إزاء كل هذه القضايا والعلاقات. غير أن الوظيفة البلاغية لمجاز المرأة تسلط الضوء على تلك الازدواجية، كما أن بعض حلول تلك الازدواجية توضح مواقف نيتشه من النساء. وعلى الرغم من أن هناك استعمالات عديدة للمرأة وعلى الرغم من اختلاف تلك الاستعمالات بشكل دقيق، فإن أغلبها يمكن أن يندرج ضمن الأقسام العامة الثلاثة. فالمرأة تستعمل بشكل متباين مجازاً للحياة ومجازاً للحقيقة ومجازاً للفن.

وعن الرجل والمرأة.. والعلاقة بينهما.. من منظور نيتشه سنتوقف عند كتاب «هكذا تكلم زرادشت» للفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه لنرى ماذا يقول:

١. يجب ألا يتكلم الرجل عن النساء إلا للرجال..

٢. ليس الرجل للمرأة إلا وسيلة أما غايتها فهي الولد..

٣. إن الرجل الحقيقي يطلب أمرين: المخاطرة واللعب و ذلك ما يدعوه إلى طلب المرأة.. فهي أخطر الألعاب..

٤. خلق الرجل للحرب وخلقت المرأة ليسكن الرجل إليها..

٥. تفهم المرأة الطفل بأكثر مما يفهمه الرجل غير أن الرجل أقرب إلى خلق الطفل من المرأة ففي كل رجل حقيقي يحتجب طفل يتوق إلى اللعب.. فلتعمل النساء على اكتشاف الطفل في الرجل..

٦. ليحذر الرجل المرأة عندما يستولي الحب عليها فهي تضحي بكل شيء في سبيل حبها و ليحذرها عندما تساورها البغضاء لأنه إذا كان قلب الرجل مكمناً للقسوة فقلب المرأة مكمن للشر..

٧. إن سعادة الرجل تابعة لإرادته أما سعادة المرأة فمتوقفة على إرادة الرجل..

٨. قد تشعر المرأة بقوة الرجل و لكنها لا تفهمها..

واخيراً:

٩. إذا ما ذهب الرجل إلى المرأة.. عليه ألا ينسى السوط...

5

الفصل الخامس

نيتشه

شـــاعـــر من نوع خـــاص!!


Tell ME, My Brothers

كتب نيتشه بأسلوب شاعري قلَّ نظيره، فلم يكن فيلسوفاً فحسب، بل شاعراً وكاتباً نثريّاً لا يُضاهَى. يعتقد المؤرخ الفرنسي اليكسيس فيلونينكو أن نيتشه يقدم جمال العبارة على دقة المعنى، لأنه شاعر بالدرجة الأولى، قبل أن يكون فيلسوفاً. ثم إنه كان يشطح أحياناً شطحات سوريالية بعيدة، خصوصاً في كتابه «هكذا تكلم زرادشت»، والذي يوغل بعيداً إلى درجة أن فهمه يستحيل، وفيه مقاطع لا يستطيع أحد شرحها.

كان نيتشه شاعراً من الطراز الأول بقدر ما كان فيلسوفاً عميقاً لا يزال يشغل الكتاب والباحثين إلى الآن. إنه أكبر كاتب في اللغة الألمانية شعراً ونثراً، وقيل إنه من خلال نثره أصبح أكبر شاعر عرفته ألمانيا في تاريخها كله. كان نيتشه فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة. وأحياناً عندما تقرأه لا تعرف هل يكتب شعراً أم فكراً أم الاثنين معاً.

يبرر نيتشه كذب الشعراء: «ما دام ما نجده من العلم قليلاً، فالشعراء جميعهم يعتقدون أن الجالس على منحدر جبل مقفر يتنصت إلى السكون، قادر على أن يتوصل إلى معرفة ما يحدث بين الأرض والسماء». وقد أتعبه الشعراء لأن: «خير ما تجده في تأملاتهم قليل من الشهوة وقليل من الضجر»! فهم «يعكرون جداولهم ليخدعوا الناس ويوهموهم بأنها بعيدة الغور»! وبماذا يعكرون المياه برأيه: «بأقذارهم».

يصرخ نيتشه الشاعر: «أنا لا أكتب باليد وحدها، الرِّجْل أيضا تريد على الدوام أن تكتب. صلبة، حرة وشجاعة، تريد أن تكون، مرّة على الحقول ومرّة، على الورقة». وأول ما كتب نيتشه، قصيدة تركها من دون عنوان (١٨٥٨) وجعل مطلعها: مرآة هي الحياة/ ذواتها فيها نرى/ لذلك ندعوها بالرغبة الأولى/ عن التطلع إليها لا ننقطع». وآخر ما كتب، قصيدة عن الماء (١٨٨٨) وجاء في نهايتها:

«يركض... كـالمجنون لا يعلم الى أين». وليس من باب المجاز في شيء قول بعضهم: «إن الشاعر في حياته كلها لا يكتب غير قصيدة واحدة، وما تبقى ما هو إلا تنويعات على النغم نفسه. ونيتشه الشاعر والفيلسوف: «عاشق للحقيقة؟ كذا تحسّرتُ/ لا! مجرد شاعر/ ظامئ للأقنعة، عن ذاته يتخفى/ قناع ذاته الممزق! حامل الأقنعة الإلهية».

يرى نيتشه عاشقاً للحقيقة بين النثر والشعر، في حديثه عن النثر أننا لا نكتب نثراً جيداً إلا بالقياس إلى الشعر، لأن النثر ليس سوى حرب مستمرة على الشكل الشعري، ولكل مفاتنه التي ترتكز على تجنّب الشعر ومناقضته باستمرار.

يتضمن ديوان نيتشه جملة نصوص تنتمي إلى النثر الفني أو إلى قصيدة النثر، من بينها: الصياد المتوحش، الساخر، العشاء السري، لأجل أشد الناس قبحاً، المتسول الطوعي، العزلة في سبعة، أغنية للشرب، الخطيئة الأخيرة، الغداء الجيد. وتنتمي كلها الى ما اتفق الشاعر على تسميته حلقة زرادشت، ووجب التمييز بين مجموعتين: نصوص أقرب إلى الرسوم الأولية لعمل يراد له أن يكون مواصلة لكتاب «هكذا تكلم زرادشت»، وأخرى أقرب ما تكون إلى إعادة كتابة لبعض المقاطع كما تضمنتها المطولة الشعرية المذكورة. الشذرات التي تحمل عنوان «أمثال وفواصل للتسلية»، تبدأ بالرقم ٦٣ وذلك لأنها جاءت بعد ٦٢ مقطعاً نثريّاً (من كتاب «العلم والمرح»)، وتلك طريقة نيتشه في كتابة بعض القصائد: تراه يشرع في الكتابة «التفسيرية» أو «الوصفية» ثم يتوقف فجأة ليقول شعراً، كأنه المختنق بالنثر يطلب من الشعر نجدة.

يعاين مترجم الديوان ثلاث مراحل واضحة الاختلاف: الأولى، مرحلة الشباب (١٨٥٨ ـ ١٨٧١)، فيها تقترب القصائد من الرومانسية، وتقليدية في شكلها، بعضها على شيء من المغالاة البلاغية والعاطفية، ومجملها يرزح تحت وقع كآبة مثقلة حتى اللجاجة.



الثانية، من «ولادة المأساة» إلى «هكذا تكلم زرادشت»، وقد طغى عليها النثر المزخرف، من دون أن يمس بإيقاعها المسهب والدرامي، بما يشكل قطيعة مع القصيدة التقليدية.

الثالثة، مرحلة الأناشيد، غالبيتها في غاية الإيجاز، وتبرز كأفكار سريعة مكثفة، أو كصور جزئية أو كونية وضاءة ببساطتها، كأنها اللمع، ضمن توسيمات متعجلة، أحيانا لاهثة، على نقيض الغزارة والتنامي البطيء إلى حد الإثقال على السامع والقارئ. فهي تحليقات واستعدادات، لكنها أيضاً ابتداعات ساطعة تعلن عن أسلوب غير محدد، لأنها تتعين ما بين القصيدة والقول المأثور أو الحكمة.

كتب نيتشه القصيدة، والنثر الشعري، ومقطوعات أو شذرات عدة لا يمكن تصنيفها، وتشهد لانشغاله العميق بإنجاز كتابة متميزة كلياً عن النثر الفلسفي الاستدلالي. هذه الكتابة الجديدة لا تتوافق مع جفاف الأمثال والحكم. ومن الشعر التقليدي، احتفظ نيتشه بالكثافة والإيجاز، ومن النثر الفلسفي احتفظ بضرورة الابتعاد عن الغنائية وحتى عن بسيط الانسجام.

كتب نيتشه الشذرة الشعرية، والشذرة بحسب سيوران هي الشكل الوحيد الملائم لمزاج الشاعر، وتمثل لحظة محمومة مع التناقضات كلها التي تحتويها. ويعتبر سيوران أن عملا ذا نفس طويل يخضع لمتطلبات البناء وهاجس التتابع، هو عمل من الإفراط في التماسك لا يمكن أن يكون حقيقياً.

اللافت أن سيوران كان نيتشوياً، ويعتبر نفسه من الفلاسفة بالصدفة، معلناً «أن الكتب الوحيدة التي تستحق أن تُكتب هي تلك التي يؤلفها أصحابها من دون أن يفكروا في القراءة ومن دون أن يفكروا في أي جدوى أو مردود»، مضيفاً: «مأساة الكتّاب عموماً تتمثل في كونهم يملكون جمهوراً ويكتبون لهذا الجمهور، وهذا لا يمكن إلا أن يؤدي إلى عواقب وخيمة».

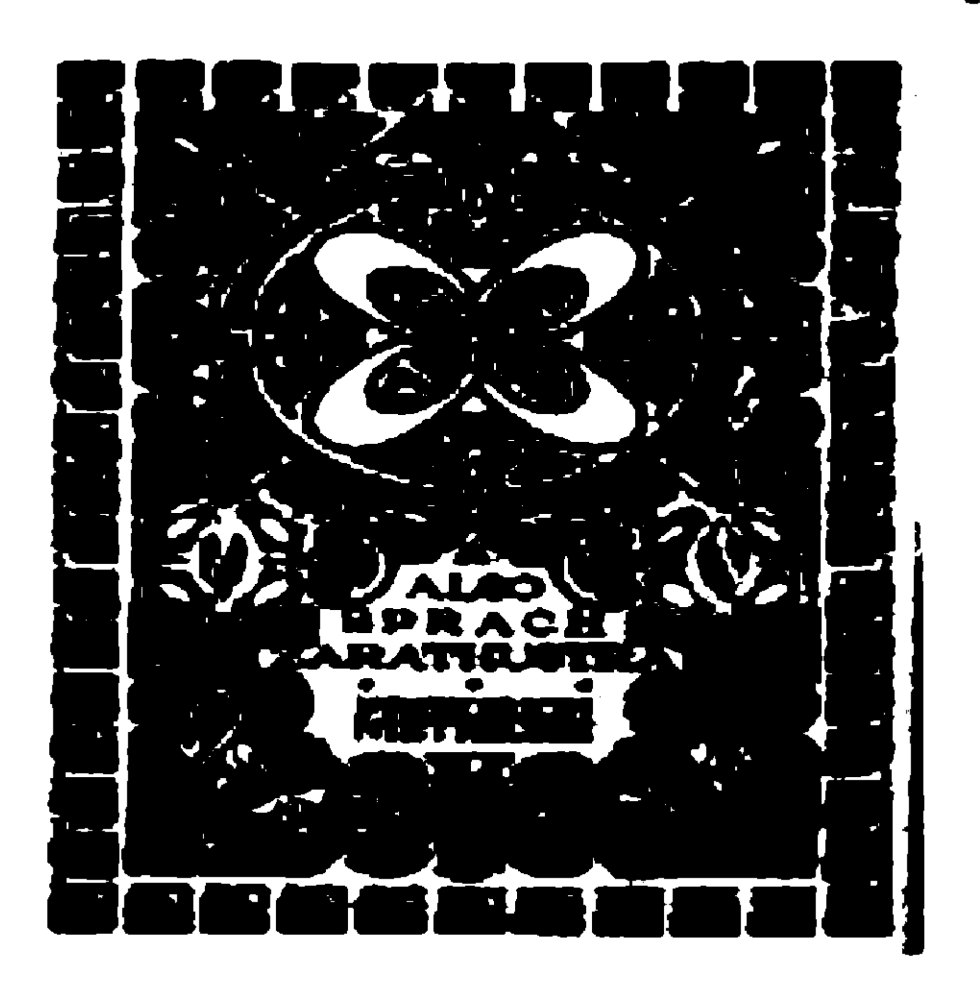
عاش نيتشه حياته يردد دائماً: «لا يزال عليّ أن أحيا لأنه لا يزال عليّ أن أفكر». ويتحدث بإسهاب عن ذروة الحياة، وفكرة الموت، وصداقات النجوم، والثقة بالنفس.

ويلتقي أفلاطون ونيتشه في أن إنتاج الشعر لا يرقى إلى المستوى الذي نطلق عليه الخلق. والسبب راجع بالنسبة إلى الفيلسوفين إلى أن الشعراء يظلون يرتبطون بالمعرفة السائدة لدى العوام، إذ يقيمون معرفتهم على المعرفة العامية، ويسخّرونها في إرضاء العام. يقول نيتشه: «لقد تعبت من الشعراء، القدماء والجدد على حد سواء. إنهم سطحيون كلهم وبحار من دون عمق بالنسبة إليَّ.. إلى الأعماق الحقة لم تصل أفكارهم، إلى الأعماق لم تنفذ مشاعرهم. شيء من اللذة وشيء من الضجر، هذا كل ما اهتمت به أفضل تأملاتهم وينطلق انتقاد نيتشه للشعر من اعتقاد مفاده أن الشعراء لا يتمكنون من تشكيل الإنسان المتفوق نظراً الى فقر معرفته، أي لعدم ارتقائها إلى مستوى دحض القيم السائدة وتحطيم طابعها الخالد. كان يعتقد بخلود الروح وبفناء الجسد: «منذ بدأت أعرف الجسد على نحو أفضل لم تعد الروح بالنسبة إلى روحاً على مستوى

الكلام. وكل ما هو خالد ما هو إلا صورة». وصنّف القول الشعري في آخر أنماط الأقوال كما أرسطو.

ديونيزوس، الإله الطريد، ساح في البلدان حاملاً جنونه، ليعلّم الناس كيفية الحفاظ على نسق الحياة. منذ تشرده صغيراً، دخلت آلهة اليونان في حياة مظلمة أو ما يسمّيه هولدرلن «ليل الآلهة». وهو هجر بلاده كرهاً وطوعاً فيما بعد ليحارب أنظمة العقل، لأنه رمز الجنون والتهور. نيتشه هو الذي انتبه إلى هذا الوضع الذي كان يشغله ديونيزوس عند الإغريق، في اعتباره ملهماً للعبقرية اليونانية في مجال الفن. ومناداة نيتشه بالعودة إلى الرمز ديونيزوس، تدعو إلى خرق القاعدة والمؤسسة والنظام والتماثل، والعودة إلى لغة الشعر والفن، وهذا ينطوي على نقد مباشر لمفهوم العقل وقيمه ونظامه في الخطاب.

الشعر الذي تركه نيتشه قليل، يصفه دارسوه بأنه ممتاز. لكن الكتاب الذي نحن بصدده الآن، وهو «ديوان نيتشه» مؤلف من: ديوان نيتشه الذي صدر بعد وفاته بسبب موت الناشر، ويتضمن: قصائد الشباب ١٨٥٨ ـ ١٨٧١، ومقاطع شعرية ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥ والمقاطع الأخيرة خريف ١٨٨٨، والنص الطويل: ديونيزوس.. الأناشيد.



ديوان نيتشه

وهذا هو الديوان الذي تركه نيتشه كديوان شعري. إضافة إلى نصوص مأخوذة من مجمل أعماله: العلم المرح، ما وراء الخير والشر، غروب الآلهة، إنساني - إنساني بإفراط، هو ذا الإنسان، ومن «كتابات أوتوبيوغرافية». وهذه النصوص عبارة عن مقاطع وشذرات ونبذات محدودة الحجم. كذلك فإن هذا الكتاب مؤلَّف من مقاطع مطولة من «هكذا تكلم زرادشت»، الأمر الذي ضاعف، أكثر من مرة، حجمَ الديوان عمّا تركه صاحبه.

نيتشه في شعره لا يختلف عنه في كتاباته النثرية الأخرى. ولا يمكن الحديث عن شعره بشكل منفصل عن نثره. إذ إن تعدده شبيه بتعدد العروق في اليد، فكل عرق لا يشكل يداً، ولا يد دون عروق... كذا نيتشه. فهو الشاعر والعالِم والفيلسوف والفيلولوجي. «دون أن يكون أيَّ واحد من كل هؤلاء»، كما يوضح دريدا. لكن الشكل الذي يوحد بين هؤلاء جميعاً هو «النبذة».

إن «النبذة»، وهي الشكل الذي ابتكره، أساساً، للقول النثري، يشمل كتاباته الشعرية أيضاً. يقول:«إن أسلوبي عبارة عن رقصة، إذ إنه يلعب بكل أنواع التماثلات. غير أنه بقفزة واحدة يتجاوزها، ويسخر منها. إن هذا يحدث حتى بالنسبة لحروف العلة».

إن هذه النبذة، والتي تُسمى: «التعريف» أو «التفسير» أيضاً، أتاحت لنيتشه أن يكون حرّاً في تنقلاته العديدة على مستوى المعرفة، وحرّاً في أن يكون متعدداً لدرجة متعبة، ومتناقضاً إلى الحد المحير. أتاحت له، كذلك، أن يقول ما عجز عنه التفكير الفلسفي النسقي.

هذه الحال الفلسفية منحته وضعية متميزة داخل الفلسفة المعاصرة، لكنها هامشية بالنسبة للفلسفات الأخرى. وهذه الحال انطبقت، أيضاً، على وضعيته الشعرية، إذ اصطبغ الشعر لديه بالبعد الفلسفي المضاد، فاتخذ وضعية شعرية هامشية بالنسبة إلى الشعراء الذين يولون بنية القصيدة شأنًا كبيرًا. هذه الهامشية في الشعر والفلسفة، ولشدة تأثيرها، تحولت إلى طموح الشعراء، والفلاسفة خلال وقت قصير من ظهورها.

بالإضافة إلى ذلك، فإن النبذة أتاحت له، إضافة إلى حرية القول الشعري، حرية أخرى تتمثل في جعل اللغة هي الفكر ذاته، وليست أداة له. فاتخذت النبذة شكل الجسد الذي يتكلم بالاستعارات والمجازات. فالنص النيتشوي يحفر في طبقات اللغة الكثيفة، فيكشف عن غابة من الاستعارات التي بدت، لكثرة استخدامها، أنها حقائق، وتم التعامل معها على أنها حقائق ثابتة.

فقام نيتشه بفضحها، ليكشف، عبر ذلك، أمرين: البؤس الفلسفي الذي كان سائداً في عصره والعصور السابقة، والذي تميز بالزيف. من حيث إن الحقائق المزعومة ليست إلا استعارات جافة، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإن الشعر والمعرفة والفلسفة والفكر... ليست إلا لغة بكل ما تحمله من استعارات، لذلك فإن معرفتها تتطلب معرفة اللغة ذاتها..

كما أتاحت له النبذة، أيضاً، أن يمارس الدور المعرفي والشعري الأثير لديه، وهو التخفي. يقول: «إني أكثر تخفياً من جميع المتخفّين» فـ «كل ما هو عميق يحب القناع». لقد كان شاعراً متخفياً في الفلسفة، وفيلسوفاً متخفياً في الشعر، وفيلولوجياً متخفياً في العالِم، وعالِماً متخفياً في الفيلولوجيا، وهكذا..

لقد أتاحت له النبذة أن يكون إذن «الفيلسوف المقَنَّع». إذ إن «النبذة» صاحبة الفضل في ابتكار جسد الكتابة النيتشوي الذي قصده عبر دعوته للكتابة بالدم. فالشاعر والفيلسوف والعالم والفيلولوجي، هي أعضاء في ذات الجسد. (أذكر هنا أن أصل الجسد في اللغة الفرنسية Corps" هو المتن "Corpus". فالمتن والجسد، كما يقول الخطيبي، كل منهما يسكن الآخر ويؤسسه. ومن هنا مصدر الحديث عن الجسد المكتوب).

من هنا تبدو الصعوبة في فهم النص الشعري النيتشوي: فهو نبذة من جهة، وهو استعارات من جهة أخرى. وهو مشحون ببعد فلسفي مضاد من جهة ثالثة. فهو كان صعباً عند ظهوره، ولم يزل، بعد أكثر من ألف سنة، يحتفظ بقدر كبير من تلك الصعوبة. لقد كان نيتشه يعي ذلك، وقد قدر أنه لن يُفهَم إلا مع الألف الثالثة.

يقول عن صعوبته: «إن شكل النبذة التي صيغت به كتاباتي، يشكو من بعض الصعوبة، لكن ذلك يأتي من أن الناس لا يأخذون هذه الصيغة اليوم على محمل الجد. فالنبذة (...) لا تتحل رموزها بمحض قراءتها. فالأمر يحتاج إلى أكثر من ذلك بكثير. إذ إن التأويل يكون عندئذ قد بدأ، وهناك فن في التأويل».

وفي المقطع المعنون: «إلى قارئي» يتضح من هو القارئ الذي يمكنه فهم نيتشه، ومن هو القارئ الجيد، يقول فيه: «فكٌ جيد ومَعِدةٌ جيدة/ هذا ما أرجوه لك!/ وحين تكون هضمت كتابي، حينها/ تكون على اتفاق معي!». إنه أمر غريب أن يطلب من القارئ فكاً ومعِدة وعملية هضم. لكن الغرابة تزول حين نربط بين هذا وبين الشرط الذي يضعه لرفع القراءة إلى مستوى يجعلها فناً من الفنون.

وهذا الشرط هو: «أن يملك المرء قبل كل شيء تلك الملكة التي طمسها النسيان (...) والتي تقتضي أن يكون للمرء طبيعة كطبيعة البقرة، ولا تكون له طبيعة "الإنسان الحديث"، وأعني بها ملكة الاجترار».

على القارئ - البقرة إذن، أن يكون فخوراً بكونه بقرةً (كذا؟) وأن يجتر الكتابة اجتراراً لا يتوقف؛ حتى تتحل رموزها كافة. إذاك، يستطيع فهم الكتابة عامة وكتابة نيتشه خاصة. وإذ ذاك، ترتقي القراءة إلى المستوى الذي يجعلها فناً.

ولا يمكن العثور في ديوان نيتشه على أي مقطع أو جملة يشتمّ منها رائحة، ولو بعيدة، للانحياز إلى الضعف والضعفاء من أي نوع. ثمة تمجيد لا ينفك يتقدم للقوة، لإرادة القوة، للإنسان - السوبر.

إن موقفه من اللغة والكتابة والقراءة وغيرها الكثير...، جعل كُتّاب ما بعد الحداثة يعتبرونه الجذر العميق لفلسفتهم.

«الشيء الذي يقال بإيجاز قد يكون ثمرة فكر طويل غير أن القارئ المبتدئ في هذا المجال.. يرى في كل ما يقال بإيجاز شيئاً جنينياً ويلوم المؤلف لما قدمه له من ثمار فجة غير ناضجة».

هذه العبارة قالها الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) رداً على

الكتّاب الذين قد لايتجاوز حجمهم الفكري حجم النملة ويدّعون بأن عمق الشيء في طوله وعظمة اتساعه، وتأكيداً منه على أن الموجز اللغوي قد يفوق في قيمته كتاب كامل.

فهذا المكافح ضد عصره كما سماه «رودولف شتاينر» اختار في كثير من كتاباته الشعرية شكل «الأفوريسم» ـ Aphorism أو ما نسميه الحكمة الموجزة وهو مقطع صغير مؤلف من جمل قصيرة تقع بين القصيدة والحكمة يسخر فيها نيتشه من العالم التقليدي والإنسان المهرج.

وهذه المرحلة ألا وهي مرحلة الأفوريسم هي المرحلة الثالثة من حياته الشعرية من عام ١٨٨٥ ـ ١٨٨٧، وبإمكاني تسميتها مرحلة الأفكار السريعة، فنيتشه الشاعر انقسمت حياته الشعرية كما قرأت في مقدمة ديوانه إلى ثلاث مراحل:

١ـ المرحلة الأولى هي مرحلة الشباب (١٨٥٨ ـ ١٨٧١) وفي هذه المرحلة تقترب قصائد نيتشه من الرومانسية والتقليدية.

٢ـ المرحلة الثانية (١٨٧١ ـ ١٨٨٤) وتسمى هذه المرحلة بمرحلة النضج وهي ما بين «ولادة المأساة» إلى «هكذا تكلم زرادشت» والتجأ نيتشه في هذه المرحلة إلى النثر الساخر.

٣ـ المرحلة الثالثة وهي الأخيرة والتي ذكرناها سابقاً هي مرحلة الأفوريسم.

وأكثر القصائد التي سنضعها تنتمي للمرحلة الثالثة، فهذه المرحلة تجاوزت الإطالة في الكلام مع الاحتفاظ بعمق الفكرة وتجاوزت أيضاً الشعر التقليدي لأسلوب آخر أبدعه نيتشه ـ «اكتب بدمك والقارئ الحاذق وحده هو الذي سيدرك المعنى».

وللمجانين وحدهم حيث يمتلكون العقل...لهم هذه القصائد:

حكمة العالم:

لاتقف على أرض وطيئة

ولاتصعد عاليا جدا!

العالم هو الأجمل

امض إلى منتصف المرتفع

قول مأثور يقول

صارم وطيع، غليظ ولطيف

مألوف و غريب، قذر وصاف

موعد المجانين والعقلاء

أكون، أريد أن أكون هذا كله

في الآن ذاته ثعبانا وخنزيرا ويمامة!

حكمة الرجل العنيف

لاتطلب شيئا أبدا ! ما جدوى التأوه؟!

بل خذ أرجوك وعلى الدوام.

الآخر

لا أحب أن يكون الآخر بالقرب مني

ليمض إلى الأقاصي والمرتفعات !

بغير ذلك، أنّى له أن يصبح نجمي؟!

في العمق

باحث أنا! احذر هذه الكلمة

أنا ثقيل فقط. وزني يجاوز المعدل

ولا شيء أفعله عدا أني على الدوام أقع

لكي أسقط أخيرا حتى الأعماق.

هيراقليطية

كل سعادة على الأرض

أيها الأصحاب في الصراع تكمن !

نعم فلكي نصبح أصدقاء

لابد من دخان البارود!

لثلاثة قد التقى الأصحاب:

إخوة أمام الفاقة

سواسية أمام العدو

أحرار أمام الموت

مبدأ المفرطين في الحذق

المشي على رؤوس الأصابع أولى

من السير على أربعة قوائم

والمرور عبر ثقب القفل أولى من المرور عبر الأبواب المشرعة!

الناس الراقون

ذاك ينهض . وجب امتداحه!

لكنه يقبل من أعلى

حتى إنه يعيش فوق المديح

إنه من الأعلى!

على باب بيتي

أقيم في بيتي

أبدًا بأحد ما اقتديت

ولقد سخرت فوق ذلك من كل معلم

ما سخر من ذاته أولا!

قرار

سأكون حكيما فهذا يروقني

مستجيبا لوصيتي

أحمد الله على خلقه العالم

وإن أنا أخذت الطريق

بما أمكن من جنون

فلأن أكبر الحكماء من هنا بدأ

ولأن المجنون هنا توقف

كل العيون الأبدية

إلى الأبد تلتجئ

آرثر شوبنهاور

ما علمه تهدم

ما عاشه لايمكن إلغاؤه .

خذوا عنه المثال!

لمعلم أبداً ما خضع

إنه الحب الذي يأمرني بصحبته

الحب المشتهَى بحرارة

بلا موطن

حملتني الخيول السريعة

بلا ارتباك بلا وجل

نحو أبعاد فسيحة

ومن رآني عرفني

ومن عرفني سماني

السيد بلا موطن!

فكن جريئا وكن قدامي

ولا تخذلني

أيها النجم البراق، يا حظي!

فلا يتجرأن عليَّ أحد

بعد هذا فيسألني

أين يوجد موطني؟

أبداً ما كنت مرتبطاً

بالأمكنة أو الساعات الهاربة

مثلما النسر حُرٌّ أنا

فكن جريئا، وكن قدامي

ولاتخذلني يا شهر آيار الأنيق، يا حظي!

أيكون الفناء عليَّ حقّاً؟

أعليَّ أن أقبل الموت العنيف؟

ذاك ما بالكاد أقبله.

أعليَّ أن أدخل اللحد

والكف عن الشرب إطلاقا؟

فكن جريئا وكن قدامي

ولا تخذلني

ياحلماً تعددت ألوانه، يا حظي!

نحوالأعلى

ـ كيف بإمكاني صعود هذا الجبل بأفضل طريقة؟

ـ لا تتساءل واستمر بالصعود!

المزدري

إني أترك بالفعل أشياءً كثيرة تسقط وتفلت مني

ولهذا فإنكم تصفونني بالمزدري

ولكن من يشرب من كؤوسٍ

مليئة جدّاً، فإنه سيترك الكثير يسقط ويفلت

لكن ليس لهذا يمكن أن نقول عنه بأنه يزدري النبيذ

الساحررغماًعنه

ألقى، هكذا لتمضية الوقت، عبارةً

في الهواء ـ كانت كافيةً لإيقاع امرأة

النفوس البليدة

لكم أكره النفوس البلٰيدة

حيث لا طيبة ولا خبث أيضا.

سعادتي

مُذ أن تعبت من البحث

تعلمت أن أجد

ومنذ أن غلبتني ريحٌ

أصبحت شراعاً مع كل الرياح.

إلى صديق الضياء

إذا أردت أن لا تكل عيونك وحواسك

ابقَ في الظل لتلاحق الشمس

- صديقي الملازم، صديقك الملازم

تسحرك طريقتي ولغتي

أتتبعني، أتمشي مع خطواتي؟

لا تتبع بإخلاصٍ إلا ذاتك أنت

وعندها ستتبعني - رويدا رويدا!

الريشة تخريش

الريشة تخريش: أمر لايطاق

أمحكوم عليَّ إذن بالخربشة؟

لذلك كلما استولت علي بجرأة دواتي

أكتب بأمواج من المداد

كيف ينساب ذلك مترعا سخيا!؟

كم أفلح في كل شيء، مهما كتبت

دون شك، تشكو الكتابة من عدم الوضوح

ما همني؟ ثم من يفكر في قراءة ما أكتب؟!

زهو شاعر

أعطوني صمغًا فقط

سأجد خشباً بنفسي!

فإعطاء معنى لأربع قوافٍ لا معقولة

ليس موضوعاً قليل العجب!

الذوق الذي يختار

إن تركت وشأني لأختار

بسرور مكانا صغيرا

سأختار وسط الفردوس

أو ربما ببابه أحسن!

●● الأغنية الثملة

آه يا هذا! انتبِه!

ما الذي يقول مُنتصَفُ الليل العميق؟

«أنا نِمْتُ، أنا نِمْتُ..

من حُلم عميق أفقتُ، .

الدُّنيا عميقة،

وأعمقُ من النّهار الذي تخيّلتُ.

عميقةٌ هي آلامُه . ،

المرح . أعمقُ من معاناة القلب:

يقول الألم: تلاشَ!

ولكنَّ كلَّ مرح يُريد خلوداً .،

عميقاً، خلوداً عميقاً!»

••مُعتزل

تَنعِق الغِربانُ

وتَعطِفُ بدوران سريع صَوبَ المدينة:

سيتساقط الثَّلجُ حالاً . .

سعيدٌ ذلك الذي لا يزال . له وطن!

الآنَ تقفُ أنتَ مُتَصَلِّباً،

تنظرُ إلى الوراء، آه! كم من الوقت مضى عليك!

ماذا هل أنتَ أحمقُ

هربتَ من الشّتاء إلى الدنيا؟

الدنيا . مَنفذٌ

إلى ألفِ صحراءَ خرساءَ وباردةٍ!

الذي خسَرَ،

ماذا خَسَرتَ، لايَحُطُّ الرِّحالَ

في أيِّ مكانٍ قَطْ.

الآنَ تَقِفُ شاحباً،

تطاردك لعنةُ رِحْلةِ الشِّتاء،

مثلَ الدُّخانِ،

الذي يبحث دوماً عن سماواتٍ أكثرَ بُرُودَةً.

حَلِّقْ، يا طيرُ، مقَعقِعاً

إنَّ أُغنيتَكَ في نَغماتِ طَيْرِ الصَّحارى! .

أخْفِ، يا مجنونُ،

قلبَكَ الدّاميَ في ثلجٍ وسُخرية!

الغِربانُ تَنعِقُ

وتَعطِفُ بدوران سريعٍ صَوْبَ المدينة:

وسيتَساقط الثَّلجُ حالاً، .

الويلُ لمن لا وطنَ له

●● هنا يتدحرج الذهب...

هنا يتدحرج الذهب، هنا ألعب بالذهب.

في الحقيقة الذهب يلعب بي . أنا الذي أتدحرج!

•• سعادتي

منذ أن تعبت من البحث،

تعلمت أن أجد.

منذ أن جعلتني الريح ندّاً

جعلت شراعي مع كل الرياح.

•• جسُور

أينما كنتَ،أُحفرْ عميقاً

الينبوع في الأسفل

دع الرجال المتشائمين يصرخون:

«في الأسفل يكون الجحيم دوماً

•• إلى الفاضلين

فضائلنا أيضاً ينبغي

أن ترفع أرجلها خفيفة

تماماً كأبيات هوميروس

يجب أن تأتي

وتذهب.

الحكمة تتحدث

قاسٍ ولطيف، خشنٌ وشفاف،

واثق وغريب، قذر ونقي،

مجنون وحكيم:

كل هذه الأشياء أنا،

وأود أن أكون،

حمامة، أفعى وخنزير

في نفس الوقت

الكتابة بالقدم

أنا لا أكتب باليد فقط:

القدم تود أن تكتب معها دائماً.

راسخة، حرة، شجاعة تسير بي

تارة عبر الحقول،

و تارة عبر الورق.

ورودي

أجل سعادتي ـ تودين أن تبهجي،

أجل كل سعادة تود أن تبهج!

أَتودونَ أن تقطفوا ورودي؟

يجب أن تتحنين وتختبئين

بين الصخور وأشواك السياج،

كثيراً ما ستمتد الأصابع إليكن!

سعادتي تحب الممازحة

سعادتي تحب الدهاء!

أَتودونَ أن تقطفوا ورودي؟

●● هذا هو الإنسان

نعم! أعرفُ، مِنْ أيِّ أصل أنا

ظامئاً مثل الشعلة

أتوهج وأخبو.

كل ما ألمسه يصبح نوراً،

كل ما أخلفه جمر:

بلا شك أنني شعلة.

ومن قصائد نيتشه:

●● نشيد الثمالة

آه أيها الإنسان، انتبه!

ماذا يقول منتصف الليل العميق؟ أنا نمت، لقد نمت

ومن حلم عميق استيقظت

العالم عميق

أعمق مما يظن النهار.

عميق ألمكم. غبطة لكن أعمق من معاناة القلب

يقول الألم امض

كل غبطة تود الخلود تود عميقا الخلود العميق.

ذكاء العالم

لا تبق في حقل منبسط

لا تصعد عاليا كذلك

أجمل رؤية للعالم

تكون من علو متوسط.

صنوبر وبرق

عاليا كبرت أعلي من الإنسان والحيوان

أتكلم لا أحد يكلمني

في العزلة أكبر وأترعرع

أنتظر ولكن ماذا أنتظر؟

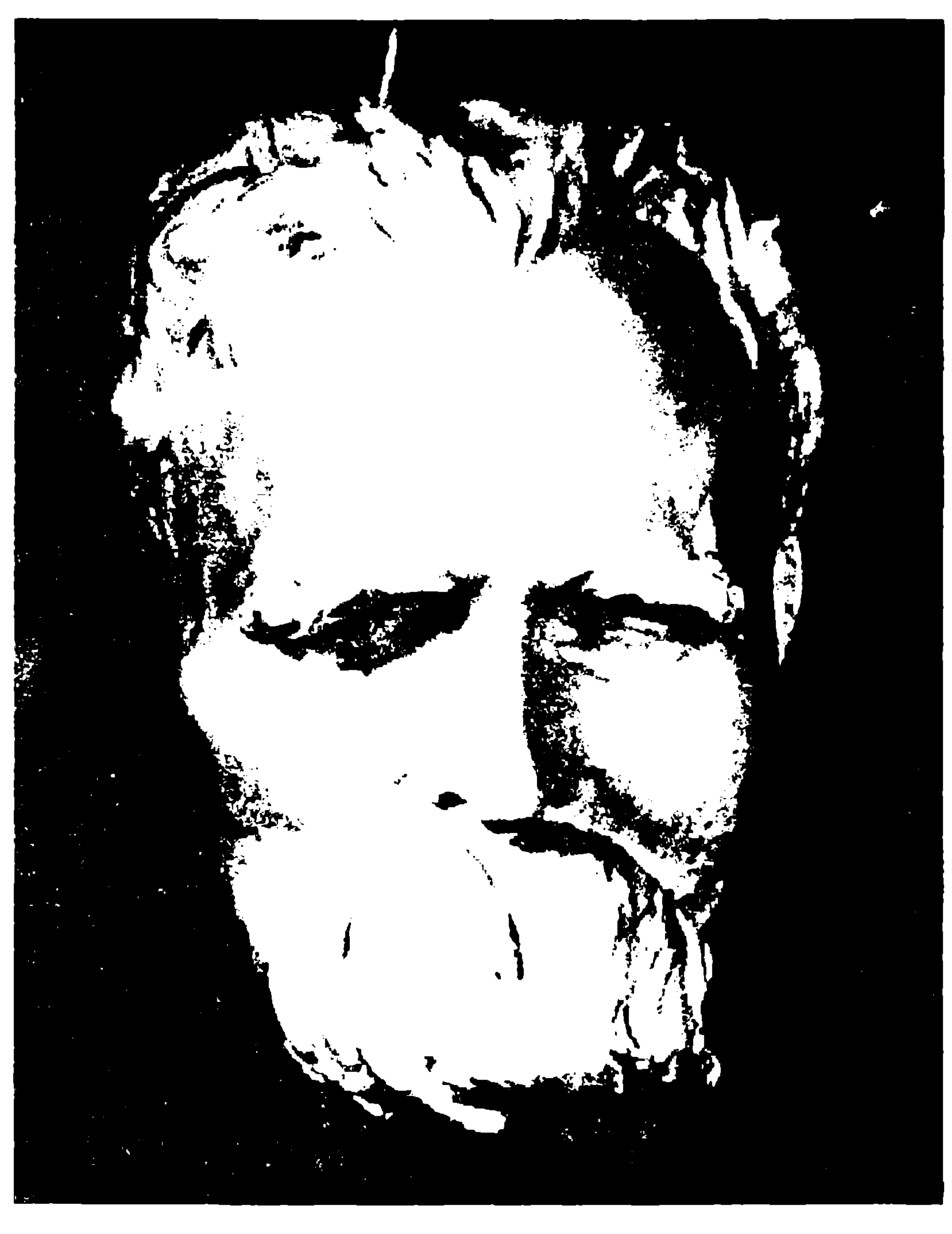
قريبة مني مجالس الغيوم أنتظر أول برق

6

الفصل السادس

نيتشه وحكاية..

أخلاق للسادة وأخلاق للعبيد!!



أخلاق نيتشه، المعبَّر عنها بأخلاق السادة وأخلاق العبيد، فإنها تُجَزِّيء العالم إلى قسمين: العبيد والسادة. السادة يمثلون الأقلية، بينما يمثل العبيد الأكثرية.

واعتراض نيتشه التاريخي على المسيحية كامن في أنها السبب الرئيس في قبول ما أسماه «أخلاق العبيد» وقيمها وفي الترويج لها، أخلاق هذه الطبقة التي تشكل جزءًا أساسيًا من نظريته المشهورة في التفرقة بين نوعين من الأخلاق: نوع مصدره الممتازون في الإنسانية، وهو أخلاق السادة، وآخر مصدره رعاع الإنسانية وطبقاتها المنحطة، وهو أخلاق العبيد. وقد جاءت فكرتُه هذه بعد دراسته للنظم الأخلاقية. تفيض أخلاق السادة بالقوة والثراء والعطاء، في حين تتبع أخلاق العبيد من الحقد والكراهية وحب الانتقام. وتاريخ الأخلاق، كما وجده نيتشه، هو تاريخ الصراع بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد ومحاولة الواحدة منهما السيطرة على الأخرى. ورمز هذا النضال مكتوب بحروف بارزة باقية فوق تاريخ الإنسانية كلّه.

ولأن المسيحية حملت لواء النضال ضد أخلاق السادة وكرَّست أخلاق العبيد، بما فيها من ضعف وعجز، وقف نيتشه موقفه الرافض لها ولما تكرِّسه من أفكار، فدعا إلى تجاوُزها وبناء أخلاق جديدة تقوم على إرادة القوة. ويمكن أن نستمد دلالات هذه الإرادة من ذلك التفسير الذي قدَّمه نيتشه للوجود عندما عدَّها مبدأه الأساسي وجوهره الأعمق، مؤكِّدًا أنها تحيط بكلِّ شيء. وأكبر عدوين لها هما: الماضي، بتراثه الذي يجبرنا على تكراره، والواقع الذي يفرض علينا سلوكًا قهريًا. فإذا كانت القوة صفة تميِّز الحقبة الجديدة، فإن إرادة القوة تمثل معيار التقييم الجديد. وحينما يحدث ذلك يصبح من الطبيعي ملاحظة ذلك التغيير الجذري والضروري الذي يلحق بنظام القيم ويحوِّل مسارها ويحرِّرها من العدمية

لتستمد مكانتها من مدى استعدادها لأن تعبِّر عن القوة وكميتها ونوعيتها. يقول نيتشه مؤكدًا هذه الفكرة:

أنتم، أيها الواضعون للقيم أقدارها بمقاييسكم وموازينكم، وبما تقولونه عن الخير والشر، هل كان لكم أن تفعلوا هذا لو لم تكن لكم إرادةُ القوة؟

ويقدم نيتشه نفسه كأحد المغامرين في العالم الباطني الذي يسمَّى الإنسان. وتُعد مشكلة الإنسان من المشكلات الكبرى في فلسفته لأنه يسعى إلى نقد جميع المعتقدات الدينية والفلسفية والأخلاقية التي تطبع عصره انطلاقًا من وعيه أنه لا يمكن فهم الإنسان الحديث إلا من خلال معتقداته. لقد حاول معرفة الأنماط المحددة التي تتكشف عنها الإنسانيةُ الحديثة، إذ كشف عن صورة مزدوجة لإنسان الحداثة: الوجه الأول لهذه الصورة هو الإنسان الأخير، وهو تجلٍّ لوهن الإرادة وضعفها؛ إذ يعترف بمقتل الإله !! ويدركه دون شك، لكنه لا يحاول أن يفعل شيئًا نتيجة القوى الارتكاسية التي تسيطر عليه. يقول نيتشه فيه:

ويل لنا، لقد اقتربت الأزمنة التي لن يدفع الإنسان فيها بالكواكب إلى العالم، ويل لنا، لقد اقترب زمان الإنسان الحقير الذي يمتنع عليه أن يحتقر نفسه. اسمعوا: ها أنذا منبئكم عن الرجل الأخير.

والوجه الآخر هو الإنسان المتفوق الذي يدرك ضرورة هدم القيم التقليدية السائدة، لكنه يهدم دون أن يخلق القيم الجديدة. صحيح أنه يحاول خلقها (وهذا ما يميِّزه عن الوجه الأول)، لكنه، وإن استطاع أن يوجدها، فإنها ستبقى قيمًا عدمية. ولعلَّ ما يجمع بين الأخير والمتفوق هو الإرادة النافية والقوى الارتكاسية. وتأخذ فكرة الإنسان المتفوق مكانها في القسم الرابع من كتابه هكذا تكلم زرادشت: إذ يتجلَّى في شخصيات مختلفة يتكون منها هذا القسم أو حتى الكتاب بشكل عام، كالبهلوان، والملكين، والساحر، وآخر الباباوات، وأقبح العالمين، والمتسول يقول:

لقد أصبح كل شيء صغيرًا. فإنَّني حيثما أوجِّه أنظاري لا أرى غير أبواب

خُفِضَت أرتاجها. فإذا شاء أمثالي أن يجتازوها عليهم أن ينحنوا. (...) لقد تعلَّمت بين هؤلاء الناس حقيقةً أخرى، وهي أنَّ مَن يسدي الثناء يتظاهر بإعادة ما بُذِلَ له، وهو لا يرمي في الواقع إلا إلى الاستزادة لنفسه من المديح والإطراء. (...) إنَّ من هؤلاء مَن يتجه إلى الأمام، لكنَّه لا يفتأ يتطلع إلى الوراء مُتلعًا عنقه، معرقلاً سير التابعين.

أما الإنسان الأرقى (الأعلى) فهو الهدف الذي يسعى إليه. إنه الإنسان المتمرد على ما هو سائد، الذي يمتلك إرادة القوة الفاعلة. وقد لا تشير فكرة الإنسان الأرقى إلى شخصية اجتماعية، بل إلى الشخصية الداخلية للإنسان، لأنه ماثل فينا على شكل استعداد لا يتحقق إلا بالتسامي والانتصار على الذات. ولعل أهم سمات هذا الإنسان إرادته المثبتة وقواه الفاعلة. يقول نيتشه:

لقد أتيتكم بنبأ الإنسان الأعلى: إنَّه من الأرض كالمعنى من المبنى. فلتتَّجه إرادتكم إلى جعل الإنسان المتفوق معنًى لهذه الأرض وروحًا لها. أتوسل إليكم، أيها الإخوة، أن تحتفظوا للأرض بإخلاصكم، فلا تصدِّقوا مَن يمنونكم بآمال تتعالى فوقها.

العود الأبدي عند نيتشه أعمق فكرة في فلسفته: إذ تشبه نبوءة غامضة وكشفًا عن سرٍّ ما أكثر من كونها برهانًا فلسفيًا مُحكَمًا. فالوجود تغير وصيرورة، لكنه ليس صيرورة مستمرة لانهائية؛ إنما تأتي فترة يسميها نيتشه "السنة الكبرى للصيرورة" تنتهي عندها دورة لتبدأ دورة جديدة. ولا اختلاف بين دورة وأخرى: فإن الوجود كلَّه صورة واحدة تتكرر بلا انقطاع في الزمان اللانهائي. إن فكرة العود الأبدي لا تقضي على الحرية، بل هي تخلِّصها من الحاجز الذي كان يحدُّ منها حتى الآن، حاجز ثبات الماضي. فلما كان الماضي هو المستقبل ـ بحسب العود الأبدي ـ فإن النفس حرة فيما خُلِقَ وفيما لم يُخلَق. ومَن يعرف العود الأبدي يشعر بأنه فوق كلِّ استعباد للزمان. إن "الآن" ليس هو اللحظة الهارية، بل هو التصادم بين المستقبل والماضي. وفي هذا التصادم يستيقظ الآن على نفسه ويعي ذاته.

ويرى كثيرون أن هذه النظرية إلى خلق فئة قليلة قائدة وفئة عديدة تابعة، كما تؤدي إلى الديكتاتورية وإلى المساوئ الناجمة عنها، ناهيك عن فوضى تقويم أخلاق السادة والعبيد. لذا لا يقر كثيرون بأخلاقية إنسان نيتشه لأنه الأعلى - كما يقولون - إنسان تفوَّق على أقرانه بإرادة وهمية استخلصها من عظمة وهمية!

أكبر أثر كان لنيتشه هو في ميدان فلسفة الأخلاق حيث ميدان شهرته الحقيقي ويكفي أن تذكر كلمة أخلاق السادة والعبيد حتى يقفز إلى الذهن نيتشه وثورته الأخلاقية مباشرة.. لم يتجرأ أحد على نقد الأخلاق مثل ما انتقدها نيتشه..كثيرون نقدوا الأديان والكتب المقدسه ولكن لم يجرؤ أحد على نقد الأخلاق المعروفة والسائدة أو ما يسميه نيتشه أخلاق العبيد التي تمثلها العادات والقوانين والأعراف الشائعة عندما تحالفت كل القوى الفاعلة من دين وقانون على تكريس أخلاق العبيد التي نراها في المجتمع التي تغذي إرادة الموت وتحارب إرادة الحياة..

ومصدر هذه الأخلاق هو..آسيا! وبالذات اليهود أثناء خضوعهم الطويل الذي جعلهم ضعفاء خانعين لطلب المعونة من الآخرين.. ومن اليهود/ وهذا ما جعل النازيين يجلون نيتشه/ انتشرت أخلاق السوقة وصارت أوروبا تبحث عن الأمن والسلام وظهرت منها الأخلاق المسيحية التي تتطلب وتبحث عن الخنوع والغلبة والهاوية فدعت المسيحية إلى الرحمة والتضحية والعطف على الضعفاء وصارت أخلاق العبيد هي أخلاق الرعاع والغالبية العاجزة التي لاتتميز فيها الروح الفردية.. حتى صارت الرحمة عبودية وفقداناً للقوة.

يقول نيتشه: إن الأخلاق المسيحية مليئة بخداع النفس فالزهد والتقشف والرحمة والشفقه مثلاً هي أنانية مستترة فنحن نشفق على الغير لخوفنا من أن يصيبنا ما أصابهم.ونزور المريض لنراه في ضعفه ونتشفى منه.. حتى عطف وإيثار الأم لأبنائها يراه نيتشه أنانية وأنه يعود في النهاية إلى حب الأم لنفسها..

نيتشه يقدس القوة.. (قوة العقل ومبادئ العقل) وسمي عند البعض فيلسوف

القوة.. وهو قد تأثر كثيراً بحركة الكشوف البيولوجية التي قادها داروين وأدت إلى مبدأ البقاء للأقوى.. حيث رأى بعد تأمل أن الخير أقوى من الشر وأن أخلاق المسيحية ليست خيّرة.

يرى نيتشه أن أخلاق السادة هي أخلاق الأقوياء.. وأن التاريخ هو تعاقب بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد.وكلما سيطرت وسادت أخلاق السادة وشريعتهم تكتلت الأكثرية من أصحاب أخلاق العبيد وانتصرت عليهم بسبب كثرتها العددية بحجة محاربة الشر.فكل ما يصدر عن أخلاق السادة يسميه العبيد شرا.

وهكذا التاريخ ودوراته في تعاقب بينهما.. وتتم الانقلابات ليس بشكل مادي ولكن بالانحلال.

وأخيرا الخير هو الحياة بِهَدْيٍ من قوة العقل..لا العدالة.

لذا كان نيتشه ـ في رأي كثيرين ـ عدوّاً للديمقراطية والمساواة.رغم فضحه للأخلاق السائدة أو أخلاق العبيد.. المتجذرة في نفوسنا والمدعومة مع الأسف بآلاف السنين من التمجد.. ويظهر مدى النفاق خلال الأزمات كالحروب عندما نمجد (الشهداء) ونتحسر عليهم..لأنهم أداة طيعة غبية! بينما (نكرم) أنفسنا أن تصير إلى ذاك الدرك من الغباء والموت في سبيل (الوطن).

وهكذا قسم نيتشه الأخلاق إلى قسمين: أخلاق العبيد وأخلاق السادة. وقد أدت هذه النظرة إلى خلق سوبرمان نيتشه، أي «الإنسان الأعلى» الذي يتخذ من «إرادة القوة» قاعدةً لفعله ومن تقويض القيم وإعادة تقويمها مثالاً.

7

الفصل السابع
نيتشه وفلسفته في الفن



يحتل الفن في فلسفة نيتشه مكانة الصدارة، ففلسفته تستدعي الفن بشكل قوي إلى الحد الذي يجعله يقول «وفي هذا الكتاب ذاته تتردد عبارة صعبة بمقتضاها لا يجد العالم تبريره سوى ظاهرة فنية أو جمالية». كما يضيف قائلا في مكان آخر «لأن كل حياة تقوم على المظهر والفن والوهم وزاوية النظر والمنظارية والخطأ» فالفن عنده هو النشاط الميتافيزيقي بامتياز.

فما هو الحد الذي يعطيه للفن؟ إن الفن صنع للمظاهر. والمظهر عند نيتشه ليس تمثيلا للحياة، بل هو الحياة. المظهر هو الحقيقة لأنها لا يمكن أن تقوم سوى كمظهر. ليس المظهر زيفا أو وهما أو ظلا للحقيقة كما يزعم أفلاطون الذي أقصى الشعراء من جمهوريته. من هذا المنظور قام نيتشه بقلب الأفلاطونية، معيداً الاعتبار للحسي والشهوي (بعدما تم ابتلاعه من طرف المافوق حسي).

فهو لا ينفك يتحدث عن الفيلسوف-الفنان في مقابل الفيلسوف النظري.

إن الفن يتعدى كونه مجرد نشاط خاص بالفنان، ليتحول على يديه إلى منظار للحياة.

يتبنى نيتشه مفهوما للفن يخرج من حدود الدائرة الجمالية، ويتحول إلى نشاط ميتافيزيقي أكثر منه نشاطاً خاصاً بالفنان وحده، فإذا أمكن تجاوز الميتافيزيقا فلا يكون ذلك سوى بواسطة الفن الذي يصوغ ميتافيزيقا جديدة هي إثبات للحياة، وتبجيل لها، واحتفال بها عوض الميتافيزيقا القديمة التي قامت على نفيها لصالح ما يتجاوزها أي لصالح العدم وإرادة العدم أي إرادة إنكار ونفي الحياة.

ها نحن نرى أن الفن مشروع لمجاوزة الميتافيزيقا لأنه هو نفسه يحل محلها

كنشاط ميتافيزيقي يقوم بالقضاء على النزعة العدمية التي طالما شكلت خلفية للميتافيزيقا، وبذلك يعتبر الفن مفتاحا لإستراتيجية نيتشه الفلسفية الرامية للقضاء على العدمية. في المصطلح النيتشوي توجد عدة أسماء لمسمى واحد، وعدة محمولات لنفس الموضوع: سقراطية أفلاطونية، مسيحية، ميتافيزيقا، حداثة، فكلها تشير إلى النزعة العدمية وإلى إرادة نفي الحياة.

تقوم إستراتيجية نيتشه على آلية القلب التي تعيد الاعتبار إلى ما تم نفيه: الحياة. فالغاية من قلب الأفلاطونية هي العودة إلى «المنسي»: إلى الحسي والشهوي، إنه تبجيل لإرادة النفي، في المصطلح النيتشوي، لا تحيل الأفلاطونية والسقراطية والمسيحية إلى اتجاهات فلسفية أو إلى مشارب عقائدية، إنها كلها تشكلات لإرادة النفي.

قلنا سابقا إن الفن مفتاح لإستراتيجية نيتشه الرامية إلى قلب العدمية، والانتقال من إرادة النفي إلى إرادة الإثبات إثبات مفارقات الحياة وتناقضاتها، وتحويلها إلى ظاهرة فنية وجمالية خلقية بأن تعاش ويعمل في إطار هذه الإستراتيجية على ابتداع ونحت كوكبة من المصطلحات موجهة للقضاء على إرادة النفي: النشوة، المرح، الرقص، الضحك. «أيها الناس الممتازون تعلموا إذن الضحك». الفن يجعل الحياة ممكنة بل وجديرة بأن تعاش، إنه خلاص ولكن ليس بالمعنى المسيحي طالما أنه ليس هروباً من رعب الوجود وعبثه: خلاص ليس بمعنى التعلق بحقيقة ما فوق الوجود الحسي وإنما بمعنى تحويل رعب الوجود وعبثه إلى مظاهر فنية يكون بموجبها هذا الرعب جميلا، وهذا العبث سخرية وضحكاً، وهذا الألم انتشاء.

إن نظرية نيتشه في الفن تتعارض مطلقاً مع وجهة النظر الرومانسية فهو لا يجد أساسا للفن في ذاتة الفنان وهو ما درجنا على تسميته بالإبداع والخلق. إن استبعاد الذاتية ضرورة تفترضها مجاوزة الميتافيزيقا، لأن الميتافيزيقا، قائمة على مبدأ الذاتية. من يبدع في الفن ليس الفنان، بل هو الحياة نفسها، ولكن ليس الحياة المنحطة المتقهقرة، بل الحياة القوية وجوهرها إرادة القوة التي تخترق

الفنان، فيتلبس بلبوسها، وينطق بلسانها. كلما نأى الفنان عن ذاتيته، وذاب في فوران الحياة واندفاع إرادة القوة صار أقرب إلى المفهوم الحقيقي للفن، فالرومانسية قد تتطلب من الفنان تقمص الطبيعة، والتغني بها، ولكنه في هذا التقمص وهذا التغني لا يفارق ذاتيته. فالفن الذي تحركه إرادة القوة هو الأقرب إلى روح المأساة.

وهنا يعود نيتشه إلى المأساة الإغريقية من حيث إنها التمثيل الأسمى للفن، وكان ازدهار روح المأساة عند الإغريق قبل مجيء السقراطية التي وأدت المأساة لصالح الجدل. فالجدل هو أول أعراض المرض الذي بدأ ينخر عظام الثقافة اليونانية. ومثل طبيب يقوم بتشخيص الأعراض يقابل نيتشه بين الصحة والمرض، بين القوة والانحطاط. إن الجدل في السقراطية عرض وإرهاص للأمراض التي بدأت تدب في جسد الثقافة اليونانية، وتراجع لمظاهر الصحة والعافية المتجسدة في المأساة. الجدل تعالٍ على الحياة، وتوحيد لأضدادها، وحل لتناقضاتها، أما المأساة فإثبات لرعب الوجود، وتعميق لتناقضات الحياة، وإذكاء لمفارقاتها، الجدل نفي للحياة، ووهن لقوتها، أما المأساة فإثبات للحياة وشهويتها.

الروح المأساوية هي ملهمة كل فن عظيم، لأنها علامة على صحة الفن دون انحطاطه إلى الدرامية والرومانسية، الروح المأساوية هي المحررة لقوى الطبيعة والمطلقة لها من عقالها. يوظف نيتشه تأويلا رمزيا للأساطير اليونانية لتقريب مفهوم الفن من القارئ بل إن هذه الرمزية تخترق فلسفة نيتشه من أقصاها إلى أقصاها. وها هو يمثل لروح المأساة بالإله ديونيزوس رمز النشوة والإسراف رمز تدفق قوى الطبيعة وانفلاتها من عقالها وهو ما يغني ويغذي نبع الفن، فديونيزوس رمز لعودة الإنسان إلى أصله الطبيعي - الحيواني الذي طالما افتقده للعيش في تناغم كوني. وما مسخ الإنسان في الأسطورة اليونانية إلى كائن نصفه آدمي ونصفه حيواني سوى عودة لهذا التناغم الكوني المفقود، وتحرير للإنسان من ذاتيته. والفن المأساوي هو مشاركة للقوى الديونيزوسية في انطلاقها،

واندماج في ركاب قوى الطبيعة المنفلتة من عقالها، إن الفن إسراف وانتشاء لا محدود.

غير أن الديونيزوسي بما هو زخم ودفق للقوى اللاعقلانية ليس سوى وجه لعملة الفن، والأبولوني بما هو تنظيم لهذه القوى المندفعة في المظهر الجميل وجهها الآخر. فالفن يتغذى من الديونيزيسي زخماً وانطلاقاً وإسرافاً، ومن الأبولوني يتغذى اعتدالاً وانسجاماً ومقداراً. إن الإله أبولون صانع المظاهر الجميلة، وبعبارة أخرى، إن الفن كما يحدده نيتشه اندماج لقوة ديونيزوس، وجمال أبولون. ولكن هذا الاندماج أبعد ما يكون عن المصالحة أو التصالح والمهادنة، إنه صراع حتى الموت. فالقوى الديونيزيسية المنفلتة من عقالها، تشكل تهديداً مستمراً لاعتدال المظهر الأبولوني، إنها الفوضى التي تهدد النظام. وما جمال واعتدال المظهر الأبولوني سوى تأجيل لتهديد ونفي القوة الديونيزيسية.

هذا التقابل بين ديونيزوس وأبولون، بين الإسراف والاعتدال، بين القوة والمظهر، بين الفوضى والنظام، هو ما يجعل ديونيزوس موسيقيا، وأبولون مصورا. فالموسيقى تناسب اندفاع ديونيزوس وانتشاءه، والتصوير يناسب اعتدال أبولون وجماله، لأن الموسيقى اندفاع، والصورة انسجام واعتدال.

إن الموسيقى في نظر نيتشه هي الشكل التعبيري الأسمى عن روح المأساة، وبفضل ما تحتويه من ترنيم وترتيل وتنغيم هي ترجمة لاندفاعات الشهوي والحسي إنها تترجم ما ليس بعد كلاما وحوارا، وما ليس بعد موضوع تفكير جدلي أو تزهد أخلاقي. ولا يقصد نيتشه الموسيقى المترجمة للأفكار، فهذه لا تتعدى كونها مجرد وجه آخر للكلام والحوار وهو ما يتمثل في الغناء الأوبرالي، إن الموسيقى التي يقصدها نيتشه هنا، هي تلك التي تضعنا وجهاً لوجه أمام المرعب والهلامي.

ومن نافل القول التأكيد على الاهتمام الذي كان يوليه نيتشه للموسيقى

ودورها إما في إبراز روح المأساة لدى الإغريق، أو في إبعاد بعثها من جديد بفضل الموسيقى الألمانية الحديثة على يد بيتهوفن وفاغنز.

إن التنغيم هو أصل ومنبع الشعر ذاته، وما الشكل المقطعي في الشعر سوى تنغيم، وبالتالي فإن أصل الشعر موسيقى، وأول شكل شعري عرفته الإنسانية وخاصة الإغريق هو الشعر الغنائي وهو في مجمله ترانيم وتراتيل وإنشاد، بمعنى آخر هو موسيقى. لماذا تحتل الموسيقى أهمية كبرى في فلسفة نيتشه؟ لأن الموسيقى أقدر شكل تعبيري على الجمع بين الحسي والمجرد، أما الجدل أو بالأحرى الميتافيزيقا فقد باعدت بينهما، وأقامت وجعلت بينهما هوة سحيقة. إن الموسيقى بما هي الشكل التعبيري الأكثر بدائية، جديرة بأن تعيدنا إلى «المنسي»، إلى الطبيعة، إلى الرعب، إلى ما ليس بعد موضوع تفكير.

هكذا جعلت إستراتيجية نيتشه الفلسفية من الفن قطب الرحى لأي فلسفة ممكنة حتى يتبدى لنا بأن الفلسفة مطالبة بأن تصير فناً. الفن يعيد للإرادة قوتها، ويجعلها قادرة على الإثبات وعلى الخروج من النفي، نفي ذاتها، ونفي العالم في آن واحد. الفن هو فائض الإرادة. إرادة القوة هي إرادة القوة الديونيسية وتوقها للانطلاق والرقص والانتشاء. إنها إرادة الخلق. إرادة القوة تمثل الحياة في اندفاعاتها الحيوية، ولا تملك لنفسها خلاصاً سوى الخلق. في الحياة تناقضات لا حل لها، لا في خلاص مسيحي، ولا في تجاوز جدلي هيغلي، إنها تعيش وتتغذى من تناقضاتها، والفن حافز لها على تعميق تناقضاتها. وهو خلق للمظاهر التي يجعلها ممكنة أن تعاش. فلا مكان للخلاص المسيحي ولا للوعي الشقي.

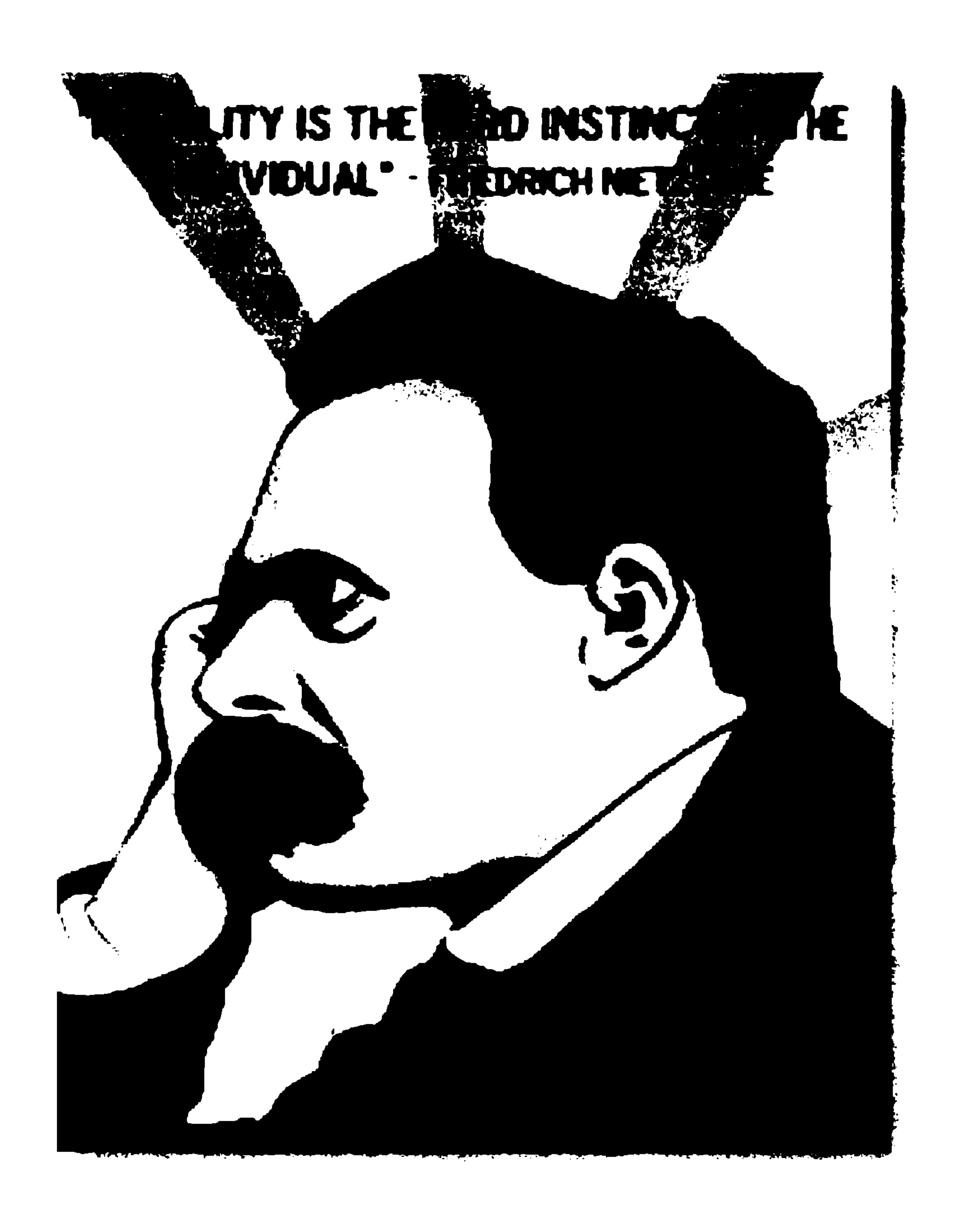
إن مفهوم الألم عند نيتشه هو مستلهم من روح المأساة ولا علاقة له بالألم المسيحي. فالألم المسيحي عذاب بينما الألم المأساوي انتشاء. وحسب تأويل دولوز في كتابه (نيتشه والفلسفة)، إن الحياة لا تحل مشكلة الألم بواسطة استبطانه وبحسب دولوز هناك نوعان من الألم: الألم من فرط الحياة، والألم المدين للحياة. الألم الديونيزيسي باعث على النشوة، والألم المسيحي باعث على الفتور.

وحده الفن خلاص، لكنه خلاص أرضي بإثباته لقوة الحياة، ولتعدد مظاهرها وتلونها، ولقدرتها على تجاوز الوهن والفتور وهو وهن وفتور الإرادة. ولكن الملاحظ أن الفن تعرض للانحطاط بسبب قضاء الجدل السقراطي قضاء مبرماً على روح المأساة وإعلائه لغريزة المعرفة على إرادة القوة. ومن مظاهر تردي الفن في المرحلة السقراطية، صعود الدراما التي لا تعتبر سوى وجهه الآخر للكلام والحوار، فتوارى الترنيم والإنشاد المميز لروح المأساة. هيأ الدراما للدخول إلى مرحلة «العقلاني» الذي يعتبر الخصم اللدود «المرعب» السائد في الحياة. ودخل الفن في مرحلة انحطاط يتعين على الفن الحديث الخروج منها وبعث روح المأساة من جديد للارتقاء بالفن إلى أن يكون النشاط الميتافيزيقي بامتياز.

8

الفصل الثامن

نيتشه ومفهومه للجسد


LITY IS THE D INSTINC HE
VIDUAL" - EDRICH NIET

تعتبر فلسفة نيتشه بوابة أتاحت للتفكير الفلسفي انطلاقة محفزة للتطلع إلى أفق جديد، يسمح بمعالجة الإشكالات الفلسفية بطرق مختلفة ووسائل عديدة، ولذلك كان قوام مهمة فيلسوفنا هو القضاء بصورة فعالة و هو يهوي بمطرقته على جميع الحقائق المصطنعة والمزيفة التي تنطق باسم مصدر متعالٍ لم يزد الإنسانية إلا انحطاطاً تلو انحطاط، حيث غرس في الإنسان شوكة الإيمان بعالم مفارق للعالم الأرضي، عالم متعال جعله يحتقر جسده المفكر ويكبح غرائزه المشروعة تحت اسم الفضيلة.

هذا ما رفضه نيتشه، فانتفض وكله عزم على إعادة الاعتبار للحياة على الأرض، وللجسد لكونه عنوان انخراطنا في هذه الحياة.

فإذا كانت الفلسفات السابقة تنظر إلى الروح نظرة احتقار واستهزاء بالجسد، وهي تتوهم أنها ذات يوم ستتمكن من الانعتاق منه ومن الأرض التي يدب عليها، فقد اعتبرته ذلك السجن العميق الذي يكبل حرياتها ويسحق أحقيتها في الفعل، وما كانت المسيحية إلا ذلك المجرم الملثم والعون الذي عمل على تكريس تصورات بعض الفلسفات الكلاسيكية (فلسفة سقراط مثلا)، والتي ارتكبت أبشع الجرائم في حق الجسد، حيث اعتبرته سجناً للروح ومرتعاً للرغبات والنزوات، بل والشهوات التي تنزل بالإنسان إلى مستوى الحيوانية وتفقده قيمته السامية، أعلنت ضده الحرب بغية كبح كل براكينه الداخلية، وما خجلت قط من اعتبار الفكر المحدد الوحيد للوجود الإنساني.

كان ذلك هو التصور السلبي للجسد، إنه تصور يفقد الإنسان إنسانيته، ويبعده عن معنى الأرض، أي عن معنى الحياة الحقيقية التي لا حياة غيرها. لذلك سيعلن نيتشه أنه قد آن الوقت الذي يجب أن نعيد فيه الاعتبار لهذا المُدَان دون جريمة ارتكبها، ليصبح الجسد «الذهن الأكبر» بينما الروح «ذهناً صغيراً»

تكمن وظيفته في كونه أداة طائعة في يد الجسد، إنه مجرد لعبة يتحكم فيها كيف ما يشاء.

إن الجسد النيتشي هو الحياة نفسها، بكل تجلياتها ومظاهرها القوية، به - كما عبر عن ذلك زرادشت - نحيا وسيحيى كل الماضي القريب، والذي يجري فيه سيل هائل يتخلله ويعلو عليه وينفذ في جميع نواحيه، هذا الجسد فكرة أروع من فكرة الروح والنفس القديمة، فهو بشتى أبعاده عنوان انخراطنا في الحياة الأرضية، هو أرضنا الأولى، وعليه يجب استقباله وفق استقبالنا وتعاملنا مع الحياة بمنطقها العميق، إنه أول من يعلن انتماءنا للحياة، إذ يمثل جسر التواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، أي الممكن اللامتناهي، لذلك نجده في حركة دائمة دون توقف، في سعي دؤوب نحو استكشاف أفق المجهول.

إن نيتشه يرى في الجسد تلك الأداة العظمى للتفكير، فلا يمكن البتة الحديث عن الفكر خارج الجسد، وإذا ما أمعنا النظر نجد أن نيتشه يقدح في التصور السقراطي - الأفلاطوني - المسيحي للجسد، باعتباره الإنسان "كائنا مقدسا بالروح والفكر، وحزينا ومثقلا الكاهل بالجسد" ليعتبره فيلسوفنا تلك الأنا التي لا تتبجح بتلفظ كلمة «أنا»، إذ إن فيه من العقل ما يفوق خير حكمة في الإنسان ما هو إلا مجموعة آلات مؤتلفة للعقل، ومظاهر متعددة لمعنى واحد، إنه ساحة حرب وميدان سلام إذ هو القطيع وهو الراعي في آن واحد.

لطالما كانت الفضيلة في شوق إلى أن تتحرر من حقائق الأرض بأجنحتها مخترقة أسوار الأبدية، لكن لن يكون مآلها سوى الضلال والضياع، لذلك كان من الضروري أن ترجع هذه الفضيلة الضالة إلى مرتعها في الأرض، إلى مملكة الجسد حيث الحياة، لتنفخ في الأرض روحها روحا بشرية، حيث المكان الذي يجمع كل شتات الكون. لقد سمع الجسد صوتاً يناديه من قلب الوجود، فأراد أن يخترق برأسه أطراف الحواجز، بل حاول العبور منها إلى العالم الآخر، عالم الممكن الخفي عن السواد الأعظم من الناس، كانت الذات هي محفزه ومشجعه لدخول هذا الغمار، غمار الطيران والتحليق فوق الأراضي المجهولة لاستكشاف

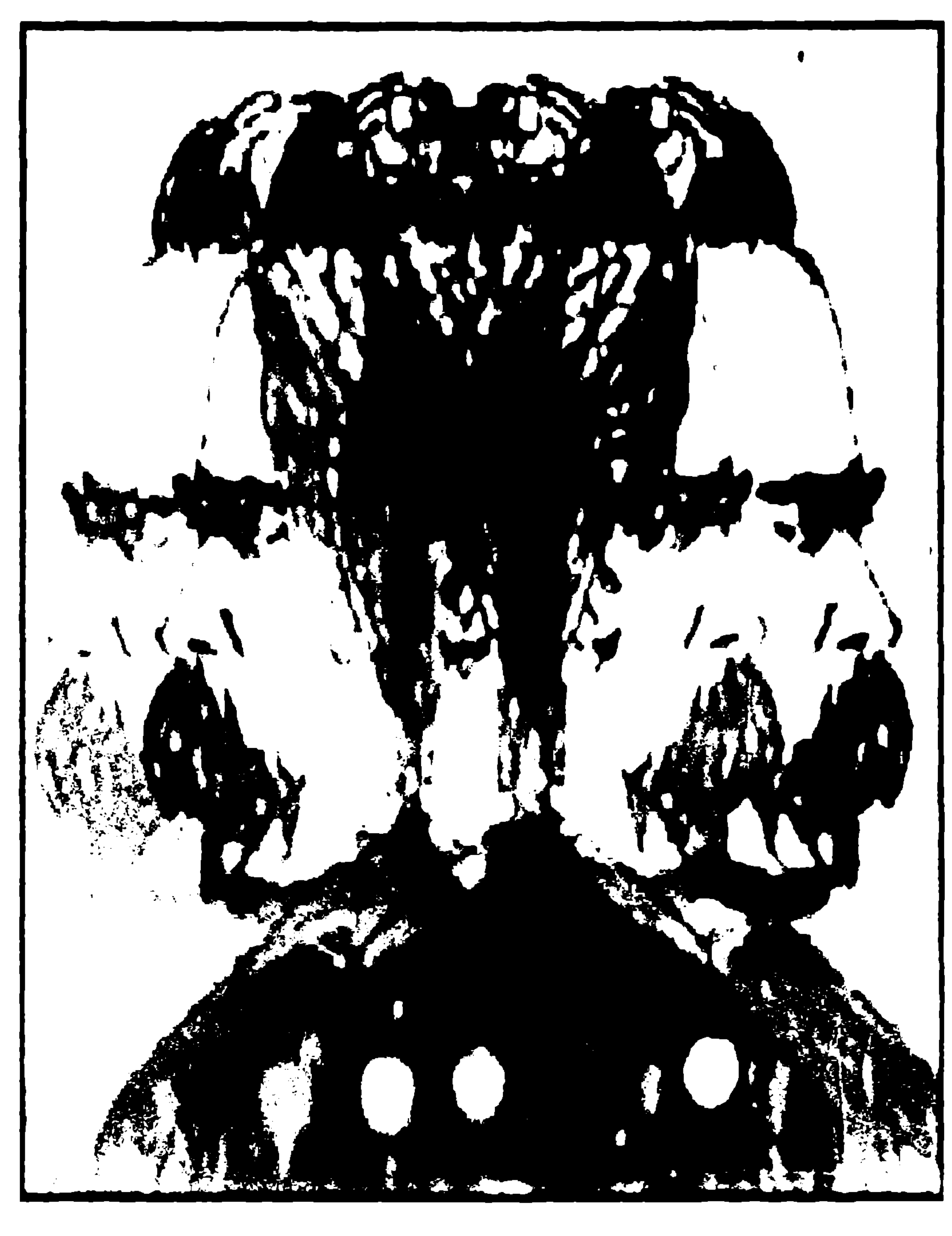
عوالمها الخفية، فهو يقطع مسافات التاريخ بكفاحه،لتصبح الروح عندئذ ذلك المعلن عن الكفاح وانتصاراته، إذ الجسد هو الصوت وما الروح سوى ذلك الصدى الناجم عنه والتابع له.

لكن عندما تتطلع الذات إلى الزوال والتواري، تدفع الإنسان إلى الاستهزاء بجسده، حينئذ تكشف عن عجزها في خلق الأفضل، وهذا العجز هو الذي يولد في الإنسان النقمة على الحياة والأرض. بالضبط هذا ما يكرهه نيتشه ويكن له البغض، لأن «المستهزئ بالجسد» يكون حجر عثرة في وجه تقدم الإنسان نحو الأفضل، نحو المستقبل حيث يوجد «الإنسان الراقي»، فما الإنسان إلا جسر ومعبر وجب تجاوزه. وما دام الجسد عند نيتشه هو مجموع قوى تتألف مع بعضها لتشكل إرادة قوة، نجده يبشر بالإنسان الأعلى الذي يملك جسد إرادة القوة. لأنه هو ما يمنحه إمكانية الدخول في حلقات الزمن المسترسلة وولوج العود الأبدي من بابه الواسع في حركة وصيرورة دائمتين.

9

الفصل التاسع

نيتشه ومفهوم التراجيديا



عندما كان نيتشه يتحدث عن التراجيديا اليونانية، فإنه كان يتحدث عنها، بلغة فنان عاشق حتى الموت.

لقد كان نيتشه يداعب التراجيديا اليونانية، كما يداعب امرأة حسناء وبدلال طفولي. كان يغازل ماهيتها بعشق وشغف، ويلامس «جسدها» في انتشاء صوفي... لكن، فجأة ما يكشر نيتشه كنسر جارح فيهاجم «طريدته» /الروح العلمية ويحاصرها من كل الجوانب فيهوي بمطرقته على العقل والحكمة ويعبث بالتفاؤل ويحاصره، فيتعالى على المألوف والاستكانة.

إن التراجيديا عند نيتشه، بؤرة الحياة الأبدية وانفتاح لا نهائي نحو الآفاق المجهولة. إن التراجيديا مقاومة للموت، وممارسة للذة في الألم. التراجيديا معانقة للمتعالي.

فعندما نقرأ نيتشه في كتابه «ميلاد التراجيديا» نكون أمام ازدواجية في اللغة مقرونة بازدواجية في الرؤية نفسها. بمعنى أن نيتشه عندما يتحدث عن التراجيديا اليونانية وعن العصر الهيليني، نلمس في لغته همسا شاعريا ونبرة شفافة، فتسري رعشات الانتعاش واللذة في جسد اللغة، ولكن مقابل ذلك حينما ينبري نحو سقراط وأفلاطون أو أوريبيد... نحس بالكلمة تتجهم، وبالعبارة تقسو.

والحق أننا لا نريد الخوض في هذا المجال - أي مجال لغة نيتشه - لأننا لسنا مؤهلين لذلك البتة، بالرغم من أننا سجلنا هذا الانطباع. فكل ما نهدف إليه - واستلهاماً لهذا الانطباع - هو محاولة لجمع أشلاء ومكونات التراجيديا عند نيتشه، من خلال كتابه «ميلاد التراجيديا». وهذه الغاية لن تتأتى لنا إلا بهدي من ازدواجية رؤية نيتشه نفسه للتراجيديا عبر ما أسماه: الروح العلمية والروح الديونيزوسية.

وفي إطار هذه الثنائية الكبرى وما تتضمنه من ثنائيات فرعية سنعمل على تشييد وتكوين «مفهوم التراجيديا عند نيتشه».

١ - التراجيديا والروح العلمية:

أ. التراجيديا بين الاحتضار والموت:

يقول نيتشه معرفاً الروح العلمية بما يلي: «أفهم أن الروح العلمية اعتقاد ظهر أيام سقراط، وأنه معرفة الطبيعة وحقائقها. كما أن المعرفة تملك في ذاتها فضيلة الخلاص الكوني».

من خلال هذا الكلام يمكن أن نستخلص بعض مقومات الروح العلمية، والمتمثلة في: المعرفة، الحقيقة، الفضيلة، ثم سقراط ذاته. ويعتبر هذا الأخير في نظر نيتشه الممثل الفعلي لهذه الروح العلمية وذلك نظراً لمطابقتها لمبادئ سقراط الثلاثة التالية:

«الفضيلة معرفة، لا نذنب إلا عن جهل، الإنسان الفاضل سعيد».

والمعروف في تاريخ الفلسفة أن سقراط كرَّس حياته من أجل المعرفة والحقيقة بغض النظر عن التقاليد، والأعراف والدين ... فكان همه، وقضيته الأولى، هو البحث عن الحقيقة. ولتحقيق هذا الفرض/ الحقيقة، راهن سقراط على العقل، والجدل، وعلة الوعي والمنطق.. ليصبح أكبر عدو للإنسان هو ما يجهله. وعليه، فالمعرفة عند سقراط فضيلة، إذا تجنب الإنسان الوقوع في الخطأ/ الذنب/ الخطيئة، فإنه يضمن السعادة.

معنى هذا أن الأطروحة السقراطية، تؤمن بأن جميع أسرار الكون يمكن معرفتها والتأكد من صحتها على أساس، أن كل شيء فيه قائم على مبدأ السببية، «والحقائق الأبدية».

ويمكن إرجاع الأطروحة السقراطية إلى الحكيم أنكساكوراس في قولته الشهيرة «في البداية كل شيء كان فوضوياً، إلى أن جاء العقل، وخلق النظام»

وعلى غرار هذه القولة يصرح سقراط قائلا: «أي عمل ليس جميلا، إلا إذا خضع للعقل».

وهكذا فالنظرة الجمالية عند سقراط تقوم بدورها على العقل/ النظام، وهنا يلتقي سقراط بأبولون إله العقل والنظام.

إن سقراط يشبه إلى حد كبير «فاوست»، في مسرحية غوته الذي كان همه الوحيد، هو أن يعرف/ المعرفة، حتى بواسطة السحر، وعبر الشيطان مفستوفيليس نفسه. وبطبيعة الحال، فعلى قدر المعرفة، يأتي التفاؤل وتتحقق الفضيلة والسعادة.

من هذا المنطلق يعتبر نيتشه (سقراط) الزعيم والمؤسس الفعلي للروح العلمية، وبالتالي فلا غرابة أن يتشكك سقراط في قيمة الفن والتراجيديا بالدرجة الأولى، لأنها لا تقوم على مقياس العقل والمنطق والجدل والشروط السببية...

وقد تسربت هذه الرؤية إلى تلميذه أفلاطون خصوصا في كتابه «الجمهورية»، إذ كان ينظر إلى الفن والشعر خصوصا نظرة ساخرة لا لشيء إلا لكونه «غير نافع ويتوقف عند محاكاة الصورة الظاهرة». بهذا طرد الشعراء من جمهوريته بل والأكثر دلالة من ذلك، هو أنه أحرق كل ما أنتجه من الشعر الدرامي، إرضاء لأستاذه سقراط.

والحق أن التأثير السقراطي لم يقف عند حد أفلاطون بل تعداه إلى أحد شعراء التراجيديا الكبار ونعني به الشاعر أوريبيد. هذا الأخير الذي تبنى طروحات سقراط وتشبع بها، فكل شيء عند أوريبيد «ينبغي أن يكون واعياً ليكون جميلا». وهذا دليل قاطع على أن أوريبيد يتبنى الجمالية السقراطية ويتبع في هذا «آثار الشيطان السقراطي». على حد تعبير نيتشه لأن الجمالية عنده تقوم على الوعي، والعقل، والنظام... وعلى الواقع اليومي أيضا الذي أصبح ظاهرا في الكتابة التراجيدية عند أوريبيد. بذلك يكون هذا الأخير، وفي شعره التراجيدي. قد «أصعد المتفرج إلى الخشبة، ليجعله قاضيا على الدراما»، فأصبح المتفرج

بذلك، يغادر مدرجاته نحو الخشبة. ومن ثم فإذا كان سقراط قد أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، فإن أوريبيد أنزل التراجيديا من السماء إلى الأرض، وغدت التراجيديا تهتم بالإنسان العادي عند أوريبيد يكتب عن همومه اليومية، ومشاكله الاجتماعية والسياسية...

ولا غرو، والحال هذه، إذا علمنا أن سقراط يعبر ويكتب بواسطة أوريبيد، خاصة وقد بات معروفا في أثينا أن سقراط بالفعل كان يساعد أوريبيد على الكتابة بل لقد عُرفا هما الاثنان «بمرتشي الجمهور»، خصوصا أوريبيد الذي نزل بمسرحياته إلى الجمهور وخلصها من تلك المهابة والجلال الذي كانت تتمتع بهما مع أسخيلوس وسوفوكليس وغيرهما.

وفي هذا الصدد يقول ينتشه: «في الحقيقة ليس هناك أي فنان يوناني يتعامل مع جمهوره لمدة، بوقاحة كبيرة وادعاء إلا أوريبيد».

فإذا تم الطلاق بين العمل المسرحي ونزوله إلى الجمهور عند كل من أسخيلوس وسوفوكليس فإن أوريبيد قد جعل من متفرجيه حكاما وأساتذة يصدرون أحكاما على أعمالهم الفنية. لهذا السبب لم يجد بداً من البحث عما يرضيهم ويحقق رغباتهم على الخشبة. فمع أوريبيد، يقول نيتشه قد أصبح «المتفرج: الإنسان في واقع حياته اليومية متطفلا على الخشبة».

هذه هي الروح العلمية، وتلك تجلياتها مع أهم أعلامها كما تناولهم نيتشه. لكن نود أن نتساءل في الصفحات التالية، حول موقف نيتشه من هذه الروح العلمية؟ وكيف تشكل - أي الروح العلمية سهما قاتلا في جسد التراجيديا كما يراها نيتشه نفسه؟ تلك هي الأسئلة التي سوف تكون موضوع الخطوات الموالية.

ب - الروح العلمية بين المطرقة والسندان:

إذا كانت الروح العلمية تقوم على تمجيد العقل، والجدل، والمنطق... وعلى التفاؤل بنتائج العلم والوصول إلى الحقيقة وبالتالي بلوغ الفضيلة والسعادة، فإنها قد حكمت بالإعدام التام على التراجيديا اليونانية خاصة والحياة عموما.

إن الإنسان السقراطي/ الروح العلمية، متفائل بالعلم والعقل والجدل والوعي... لأنه مقتنع تماما بإمكانية "النفوذ إلى أصل الكائن ليس فقط لمعرفته، ولكن لتصحيحه أيضا.

وفي هذا الكلام ازدراء للفن والشعر، بل ونفي للغريزة المرتبطة بالجسد عند نيتشه. والغريزة/ الجسد قوة فاعلة متعالية عن العقل والحكمة وعن الجدل والمنطق... إنها مصدر النشوة والفرح واللذة، إنها القوة الجارفة نحو المستقبل المجهول. وبعبارة أوجز، إنها الحياة في نظر نيتشه. إلا أن نظرة سقراط لها نظرة مقلوبة على اعتبار أنه «يقابل الفكرة بالحياة ويحاكم الحياة بالفكرة» أو كما يقول نيتشه نفسه «إن سقراط ينتسب حقاً إلى عالم خاطئ مقلوب في الطبائع الإنتاجية، إنه اللاوعي الذي يتصرف بشكل إبداعي وتقديري في حين أن الوعي نقدي وردعي عنده. أي سقراط فتصبح الغريزة نقداً والوعي إبداعاً».

من هذا المنظور، يكون سقراط والروح العلمية ككل نفيا للحياة لأنها - في نظر نيتشه خدعة ونذالة، لأنها تحجب فعل الغريزة، ورحابة الحياة. وهذه الأخيرة أكبر من العلم ومن المنطق، ومن الجدل ومن الكلام النظري وأكبر أيضا من الوعي والعقل... وما الروح العلمية عامة «إلا تخوف من التشاؤم وطريقة للهروب»، لأن العلم مهما وصل والمعرفة مهما بلغت إلا ولها حدود. من هنا، يفسح نيتشه المجال للغريزة والفن وللمسرح والموسيقى وللحياة عموما. وليس غريبا، والأمر هذا ب[illegible]مت نيتشه، الحكيم سقراط «بالشيطان الجديد» «لأنه لا يفهم التراجيديا ويحتقرها، ولا يحتفل بالموسيقى ويتهرب من ديونيزوس وهذيانه. إن الفكرة التي يؤسسها ضد التراجيديا تقع في نقيض ديونيزس».

تلك هي الأطروحة السقراطية، ومظاهر الروح العلمية، كما أبرزها نيتشه في كتابه «ميلاد التراجيديا».

لكن ما هي العلاقة بين الروح العلمية والتراجيديا وبين الروح العلمية والروح الديونيزوسية ثم أساساً بين الروح الديونيزوسية والتراجيديا؟

ذلك ما سنراه في الفقرات الموالية:

٢ - التراجيديا، والروح الديونيزوسية:

أ - التراجيديا النشأة والاحتفال:

إن الحديث عن الروح الديونيزوسية، هو حديث عن ديونيزوس نفسه. وديونيزوس هذا - كما جاء في الأساطير اليونانية شخصية أسطورية، ولد من رماد أمه سيميلي وبعدما طلبت من زوجها زوس، إله الآلهة أن يظهر لها في كمال مجده، وهو طلب مفخوخ دبرته الإلهة هيرا. ولما حاول زوس ذلك، تحول إلى صاعقة، أحرقت سيميلى، ومن رمادها ولد ديونيزوس. بهذه الطريقة المأساوية ولد ديونيزوس، وتكفلت أرواح الغابات وربات الفنون بتربيته وتنشئته. إلى جانب كائن اسمه سيلين.

وترعرع ديونيزوس، وراح هو وسيلين يعلمان الناس زراعة الكروم، وصناعة الخمور وممارسة النشوة، وتصيد اللذة، بل ويفرضان في كل مكان مرا به أن يحتفل بديونيزوس اعترافا بجميله، وقد كان هذا الاحتفال - فى بداية الأمر - خليطا من الرقص، والغناء/ الديثرامبوس، كان يؤديه كورس على شكل دائري في الوقت الذي يربط فيه حيوان «ثور أو تيس» يرمز لديونيزوس، ويكون ذلك في مكان مقدس يسمى تيميلي وهي «حفرة مخصصة لجمع دم الضحايا، على كل حال، مكان مقدس» وبإشارة من رئيس الكورس يبدأ الاحتفال فيبدأ الغناء والرقص ثم النواح والعويل... حتى يبلغ المحتفلون إلى حالة تسمى «ألمانيا»، أي جنون يقذفه الإله في صدر الإنسان وآنذاك ينقضون على الحيوان، فيمزقونه إلى أن يصلوا إلى مرحلة الكشف والتنبؤ. إلا أن هذا الشكل الاحتفالي قد عرف تطوراً كبيراً خاصة على مستوى الشكل الفني.

ونستخلص من هذا الجرد المركز أن ديونيزوس هو «أصل التراجيديا والنقطة المحورية للفن اليوناني. قصة إبداع الحضارة الهيلينية». فديونيزوس هو محور الاحتفال، وبطله. وكل طقوس الاحتفال تتمحور حوله.

لقد عرف الإنسان اليوناني بجديته وبنشاطه في عمله اليومي فكان «لا يعرف الراحة الأسبوعية - وهي مفهوم يهودي ولا يرتاح إلا بمناسبة الأعياد الدينية». وبالضبط في أشهر سبتمبر ويناير ومارس. وفي هذه المناسبات يستعد الإنسان اليوناني للاحتفال فيقوم رئيس الكورس بتحضير جميع لوازم هذا الاحتفال: القاعة المشروبات.. والغرض الرئيسي من هذا الاحتفال هو انتشال «الإنسان اليوناني من الحياة اليومية الأكثر ألفة والأكثر تسلية ومن حياة السوق والشارع، والمحكمة، للدخول في احتفال الفعل المسرحي، كل شيء فيه يستعد للراحة، ويستدعي التأمل».

لكن ما هي العناصر المحققة لهذا الغرض؟ وكيف تتكامل هذه العناصر وتتفاعل في تحقيق وبلوغ تلك الحياة المعنوية التي ينشدها نيتشه؟

ب- التراجيديا: الكورس والبطل التراجيدي:

يعتبر الكورس الوسيط بين الخشبة والجمهور، لكن دون أن تكون له - أي الكورس - علاقة عضوية بالخشبة. فالكورس هو الذي يتكلم بلسان الآلهة عبر تشكيل دائرة حول المكان المقدس ومع تطور التراجيديا أصبح الكورس، لازمة موحدة ويردد النصف الآخر لازمة أخرى لتشكل حلقة خروج الكورس. بهذا تتضح أهمية الكورس والدور الرئيس الذي يؤديه داخل التراجيديا، وعلى هذا الأساس: فإنه - أي الكورس - بمثابة «الممثل الرئيس» في نظر بارط، على اعتبار أنه «جدار عريض مروض ضد هجومات الواقع». بمعنى أنه جدار قائم على إبعاد وإقصاء معطيات العالم الخارجي الواقعي وما تحتويه من هموم، ومشاكل اجتماعية، وذلك بقصد ولوج آفاق السماء الرحبة، ومعانقة المجهول، والتعالي على كل ما هو يومي مبتذل.

من هنا تأتي أهمية الكورس في التراجيديا اليونانية علما بأنها خرجت - أي التراجيديا من صلب الكورس «ولا شيء سوى الكورس».

وإذا كان سوفوكليس أول من قلص من دور الكورس وبطولته في التراجيديا

اليونانية واقتصر على البطل التراجيدي فإن أوريبيد. بالدرجة الأولى قد قتل الكورس وأعدم وظيفته الاحتفالية واقتصر فقط على البطل مقياسا لكل شيء: البطل الإنسان الذي انتقاه من الجمهور وأنطقه بما يريد ويرغب. بهذا «غاب طابع الاحتفال ولم يعد للكورس من وظيفته إلا تأمل الحدث الدرامي، وعلى هامشه». ولم يعد البطل التراجيدي ذلك البطل الأسطوري الذي يصارع ويقاوم ويتعذب ويتحدى، بل والذي يذهب نحو حتفه/ الموت بطواعية، ورضا. وعليه فقد كان البطل التراجيدي الحقيقي بطلاً لا يساوم ولا يقبل الحلول الوسطى فهو يصارع في كبرياء ونخوة.

والملاحظ أن صيغة هذا الصراع صيغة عمودية وليست أفقية، كما عند أوريبيد، صراع مع الآلهة والقدر. صراع من أجل مقاومة القدر والموت نفسه، صراع من أجل تحقيق ما يسميه مارسيا إلياد «ما فوق الإنسان» أو ما يعبر عنه نيتشه بالإنسان المتفوق «الإنسان الذي لا يعوقه عائق ولا يحد إرادته حد. إنسان القمم الشامخة والمرتفعات العالية». وقصد تحقيق هذا التعالي والتفوق... لا بد من عنصرين حاسمين داخل التراجيديا وهما الموسيقى والأسطورة.

ج. التراجيديا: الموسيقى والأسطورة:

تعتبر الموسيقى في نظر نيتشه عاملا حاسما في الاحتفال التراجيدي. وليس غريبا أن يهدي كتابه «ميلاد التراجيديا» إلى الموسيقار العالمي الكبير فاغنر. والسبب في ذلك هو أن الموسيقى في نظر نيتشه «تعبر عن روح الأشياء ولبها الخاص» وذلك هو رأي شوبنهاور أيضا. ويميز نيتشه بين نوعين من الموسيقى: موسيقى مقلدة وموسيقى حقيقية. فالأولى تفقر الظاهرة لأنها تعتمد على التذكر فقط. أما الثانية فتغني الظاهرة، وتتحول إلى رمز كوني على اعتبار أنها موسيقى مبتكرة «توخز كالإبرة في أعصاب متعبة». وذلك لأنها تنفذ إلى الماهيات والأشياء في ذاتها. فبالموسيقى، وفي الموسيقى يعود ديونيزوس، بعد اختفاء طويل، ليعبر عن الإرادة الكونية. وذلك أمر لا يتأتى إلا بالموسيقى لكونها «تعطي

للأسطورة معنى ميتافيزيقا أكثر نفاذا، وأكثر إقناعا. إذ لا يمكن للكلمة ولا للمشهد أن يحققا هدفها إلا بمساعدتها».

فبفضل الموسيقى والأسطورة أيضا تتخلص التراجيديا من الواقع والعالم الخارجي ككل. بالموسيقى يتحرر الجسد، وبالأسطورة نعانق الزمن الأول، علما بأن الأسطورة عادة تحكي كما يقول إلياد قصة مقدسة أي حدثا أصليا، يبدأ مع الزمن. فالشخصيات الأسطورية ليست أناسا بل آلهة أو أبطالا متحضرين فالأسطورة إذن هي قصة فعل الآلهة والكائنات الإلهية في بداية الزمن. ويتابع مارسيل إلياد في تحديد مفهوم الأسطورة ووظيفتها الوجودية قائلا: «إن تقول أسطورة معناه إعلان عما كان يحدث في الزمن الأصلي». وبهذا المفهوم تكون الأسطورة بمثابة حفر في جيانولوجيا تاريخ الإنسان وعمق ماضيه السحيق. فعبر الأسطورة نعانق هذا التاريخ الأصلي، ونحتضن الزمن الأول، الزمن المقدس، أو الزمن الأبدي وباستعادتنا له «ننسى كل شيء، ننسى أقسى الألم». وأكبر الألم عند الإنسان وأقساه هو الموت، والتراجيديا في عمقها وجوهرها مقاومة للموت نفسه، والحلول في الزمن الأبدي: مع ذلك، يظل الموت حاضرا أو قائما وإذا كان لا بد منه، فعلى الأقل لنختر كيف نموت... أي أن نموت بكرامة وشرف. وطبعا هذا لا يتأتى في نظر نيتشه إلا بالمواجهة البطولية. بعبارة أدق، إذا كان لا بد أن نموت فيجب أن نموت أحراراً منتصرين، أي أن نختار موتنا ونتوجه إليه بعزم وإصرار بتحد وبطولة. فالموت البطولي، أجمل من الموت جبنا. على هذا الأساس تقوم التراجيديا عند نيتشه. فالأبطال التراجيديون يختارون موتهم ببطولة وشجاعة وإقدام. فهم يعرفون أنهم سيموتون إلا أنهم يختارون موتهم، ويذهبون إليه. فهذا بروميتوس يختار موته ويتوجه إليه عند أسخيلوس. وذلك أوديب، عند سوفوكليس، يختار مواجهة موته ببطولة وإقدام... فهم يعلمون أنهم سيندحرون في مواجهة الآلهة إلا أنهم مصرون على التحدي والمواجهة. بهذا إذن تتجسد الأسطورة «في البطل التراجيدي الذي يرتمي كالأعمى. ورأسه مقنع في تعاسته والفعل ميؤوس منه، ولكنه سام».

لقد كان الإنسان اليوناني يحس بالضجر والرعب، وبالخوف في هذا الوجود، إلا أنه كان يرفض أن يتعامل معه - أي الوجود - كخطيئة أو ذنب، كما الحال مع المسيحية، ومع الروح العلمية اللتين عملا على احتضار التراجيديا وموتها. وبالنسبة للروح العلمية فقد سبق أن تحدثنا عنها، وبيناً علاقتها بالتراجيديا، أما ما يتعلق بالمسيحية، فقد اتخذت موقفا سلبيا بدورها من التراجيديا، بل ومن الوجود عموما. فالمسيحية تنظر إلى الوجود/ الحياة كخطيئة وذنب. ولهذا السبب، وجد الألم، ولزم التكفير والقربان - في نظر المسيحية .. فإذا كان ديونيزوس يشترك مع المسيحية في الألم، والاستشهاد والمعاناة، فإنهما يتعارضان تماما من حيث نظرتهما إلى الحياة والوجود، والنشوة والفرح... فالمسيحية، تضع الحياة في قفص الاتهام لأنها «غير عادلة، بل وظالمة في الأساس»، من هنا يأتي التعارض التام بين ديونيزوس والمسيح وبالتالي بين العمل التراجيدي والمسيحية خاصة. والتراجيدي هو الفرح المضاعف، الفرح المتعدد. هذا الفرح ليس نتيجة تصعيد أو تعويض، أو خضوع أو تبريك. كما هو الأمر في المسيحية. «التراجيدي يدل على الشكل الجمالي للفرح، وليس وصفة طبية، ولا حلا أخلاقيا للألم والخوف والشفقة»، بتعبير دولوز.

هكذا يتضح لنا أن أعداء التراجيديا، وقاتليها متعددون ومختلفون، والحق أن التناقض ليس عميقاً بين أبولون وديونيزوس، ولكنه جذري وعميق بين سقراط وديونيزوس وبين المسيح وديونيزوس.

وخلاصة القول فالروح العلمية بتجلياتها المتعددة (العقل والوعي والمنطق...) والمسيحية بمواقفها من الوجود والحياة كلها في نظر نيتشه علامات أساسية على موت التراجيديا، والفعل التراجيدي بل وعلامات على (الانحطاط والتعب والمرض... الذي أصاب الحضارة اليونانية والحضارة الحديثة بعصورها المختلفة: النهضة، والأنوار، والوضعية في القرن ١٩).

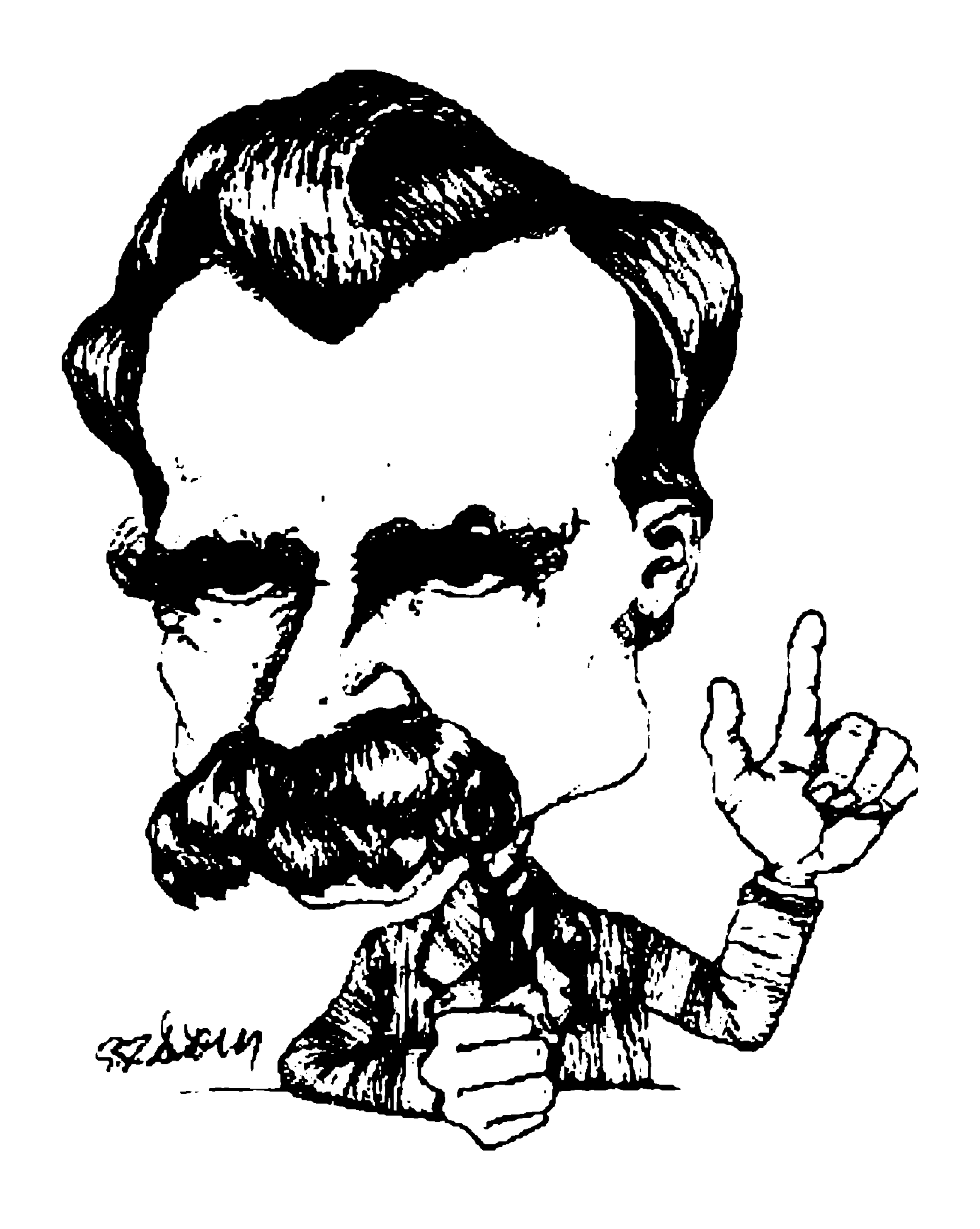
ولبعث الحياة والتراجيديا من رماد العصر، فلا بد من تقويض أسباب موتها - كما حددناها سابقاً - والإيمان مع نيتشه، «بالحياة الديونيزوسية لأن زمن الإنسان

السقراطي قد ولى، وحل زمن الإنسان التراجيدي، زمن الإنسان المتفوق، الإنسان الذي نجد مواصفته ظاهرة عند زرادشت فمن يكون زرادشت؟ وما هي مواصفاته وعلاقاتها بديونيزوس والتراجيديا كما يتصورها نيتشه؟

10

الفصل العاشر

هتلر ونيتشه وفرويد



كان هتلر معروفاً بحرقه الكتب أكثر من اعتزازه بها. فهو لم يكن فحسب ذلك الرجل الذي أشعل حرباً كونيّة انطلقت شرارتها الأولى من أوروبا التي عرفت الدمار والقتل، بل كان أيضاً رجلاً يهتم بالكتب، وهذا ما تدلّ عليه مكتبته الخاصة التي اشتملت على نحو ١٦ ألف كتاب. يتعقبها تيموثي رايباك، الذي عثر على أول كتاب اشتراه هتلر في عام ١٩١٥ عندما كان مجرّد عريف في الجيش الألماني(غزا شمال فرنسا آنذاك). صفحات الكتاب ملطخة قليلاً بالوحل، لأن هتلر كان يقرأه داخل الخندق.

عند سقوط برلين في عام ١٩٤٥ اكتشف الحلفاء أن مكتبة الفوهرر تحتوي على أكثر من ١٦٠٠٠ كتاب، من بينها مؤلفات شكسبير («هاملت» وغيرها) و«دون كيشوت» لسرفانتس و١٢ سيرة تؤرّخ حياة فريدريك الأعظم وكتاب لسيرة نابليون، ومئات الكتب التي تتناول نظريّة تفوّق الآريين.

اكتسبت المكتبة أهمية واسعة الى درجة أن «النيويوركر» قدمت عنها ريبورتاجاً مصوراً عام ١٩٣٥.

يؤكد رايباك أن هتلر كان مفتوناً برواية كارل ماي «مغامرات الهندي الماكر وِنُوتُو» التي فتنت تلامذة ألمانيا كلهم. وقد نصح جنرالاته جميعهم في الجيش الألماني بقراءتها لأنه كان يعتبر البطل الصغير وِنُوتُو خبيراً في الخطط التكتيكية.

في المكتبة جزء خاص بمؤلفات موقّعة من مؤلفيها، كانت تُرسل إلى هتلر بمجرد طباعتها ونشرها، ومن ضمنها توقيعات لها قيمتها الفعلية لكتّاب ومفكرين وفلاسفة كبار. وبحسب بعض المؤرخين، تفرقت الكتب التي جمعها هتلر عقب الهزيمة التي مُني بها في الحرب العالمية الثانية على يد الحلفاء، فقد حمل الجنود الأميركيون الذين تواجدوا في بافاريا بعضاً منها كغنائم حرب. وفي برلين

فعل الجنود السوفييت الأمر نفسه، إذ استخدموا الكتب كهدايا. لم يبقَ من مكتبة هتلر سوى ٣٠٠٠ كتاب، ١٢٠٠ منها محفوظة في مكتبة الكونغرس الأميركية.

بالنسبة إلى هتلر الذي كان يعدّ نفسه مفكراً، وفيلسوفا أحياناً، ورساماً لا تزال لوحاته تُباع في المزادات العالمية، فقد أعطى للكتب ومؤلفيها أهمية بالغة سواء في خطبه أو حتى في مذكّراته التي خرجت في جزءين بعنوان «كفاحي». وفي سيرته أفرد مساحات لا بأس بها للحديث عن الكتب، لكن هذه المساحة لم تكن إلا دليلاً على ضحالته الشديدة، خصوصاً أن الوثائق التي تركها بخط يده كشفت عن أخطاء إملائية غير محدودة في لغة الشعب الذي يمجّده.

رصد رايباك مؤلفات كانت تحتوي على مضامين فكرية أو انفعالية بَنَت أو ساهمت في بناء شخصية هتلر، وبالتالي أثّرت في خطاباته وأعماله العلنية. فتبين له أن الزعيم النازي اقتنى مؤلّفات معادية للسّاميّة، وتتّسم بالعنصريّة، وأبرزها كتابان أميركيّان، الأوّل للمحاميّ ماديسون غراند وعنوانه «انحدار العرق النّبيل» (١٩١٦)، ودعا فيه مؤلفه الى طرد المهاجرين الجدد وعدم قبولهم، أمّا الكتاب الثّاني فلهنري فورد الصناعي الأميركي وصاحب طراز السيّارات الشّهيرة وعنوانه «اليهودي الدولي: أكبر مشكلة في العالم». وأكّد هتلر ذات مرّة أنّه يعتبر فورد أحد أبرز ملهميه، أضف إلى ذلك أن فورد طالما صرّح عن إعجابه الشديد بالزعيم النازي.

وبين تلك الكتب أيضاً مؤلفات لمؤلفين كتبوا عن التمييز العنصري ومعاداة السامية: هانس غانتر، بول لاغارد، أنطون دركسلر، هنريتش كلاس، أوتو دييكل، ودتريش إيكارت. واشتهر الأخير بأنه كان يخلط بين الأسطورة الألمانية وإيمانه بالسحر والتنجيم. هؤلاء كلهم اعتبرهم نقّاد العالم في خانة المتعصّبين والمرفوضين فكرياً، لكنهم كانوا يتربعون بفخر في مكتبة الفوهرر.

كان هتلر يقرأ مؤلفات مكيافيللي والفيلسوف فيخته، الذي كان الأكثر قرباً من الفوهرر، وبحسب ريباك «كان فيخته الأكثر قرباً من هتلر ومن حركته السياسية

القومية الاشتراكية، وذلك في صياغة تفكيره كما في دينامية حياته». والمعروف عن الفيلسوف أنه صاحب آراء كثيرة ذات نزعة فاشية. كذلك كان هتلر حريصاً على قراءة، وإعادة قراءة، كلاوزفتس، منظّر الحرب الكبير، ومكيافيللي، صاحب نظرية «الغاية تبرر الوسيلة».

أنفق هتلر كثيراً من الوقت لمطالعة كتب تحوي مساجلات العداء للسامية، فضلاً عن تبسيط المعرفة العلمية الخاصة بتفوّق الجنس الآري. وأسرف في قراءة مؤلفات أسهبت في شرح دور اليهود المدمّر في الاقتصاد الألماني، وفي إلحاق الهزيمة بألمانيا في الحرب العالمية الأولى. والمعروف أن هتلر كان يكره المثقفين وينعتهم بـ «هؤلاء المتطاولين على الثقافة»، خصوصاً إذا كانوا يهوداً. وعلى رغم ذلك كان يملك بعضاً من كتبهم، والأرجح أنه قرأها كي يعرف كيف يواجه أولئك المثقفين. وبرر الزعيم كراهيته للكتب التي كانت تحتل مكانة راقية في الحياة الثقافية الألمانية بأن «تسعة أعشار القذارات في ميداني الأدب والمسرح أنتجها شعب الله المختار (اليهود)، وهم لا يزيدون على ١٪ من السكان».

يقول رايباك: «إذا كان الناظر إلى مكتبة هتلر ومحتوياتها لا يعرف هوية مالكها، يستنتج التالي:«صاحب المكتبة عرف كيف يختار كتبه الكلاسيكية العظيمة، وهو إنسان يحب الحرب، وبالتأكيد من الفئة المعادية للسامية، ويؤمن بالتنجيم وبعلم الغيب واستكشاف الطالع، ويتمتع بفضولية كافية لتجعله يشتري كتباً متنوعة، بالإضافة إلى أنه غريب بعض الشيء... على رغم ذلك كله، ما من شيء في المكتبة ومحتوياتها يشير الى أن صاحبها أشعل النار في أوروبا وجعل الدم يسيل في حرب شملت العالم وأنه السبب في مقتل الملايين من البشر».

وكُتب عن هتلر: «الرجل الذي كان يحرق الكتب بالملايين كان يهوى جمعها بالآلاف»، وهنا تكمن النقطة الأساسية التي جعلت الأميركي رايباك يتحمس لتفنيد المكتبة.

وجد الكاتب بعض مؤلفات علمية كان هتلر يراجعها «عله يحصل منها على

معلومات قتالية مفيدة أو معلومات علمية تساعده على الفتك بالبشرية»... من بينها مثلاً كتاب علمي تقني يعود إلى العام ١٩٢١ ويشرح كيفية استخدام الغاز القاتل الذي يسمى «زيكلون ب»، إلى ما هنالك من تفاصيل مثيرة يكتشفها القارئ بين الصفحات. من بين المؤلفات أيضاً كتاب «ألكسندر الكبير»، الذي ربما قرأه هتلر قبيل انتحاره في ٣٠ أبريل عام ١٩٤٥.

كان هتلر يعاني عقدة نقص كبيرة حيال مستواه العلمي المتدني، فهو ترك المدرسة ولّما يبلغ ١٥ عاماً، وكانت ثقافته ضعيفة، لكنه توهّم فيما بعد أنه «قد يصبح شاعراً أو كاتباً أو فناناً تشكيليّاً أو فيلسوفاً». هتلر الرسام، طالما كره الفن التشكيلي واعتبره مؤامرة يهودية على الثقافة الآرية. وأراد أن يرى الألمان في الرسم ما رآه هو في هذا الفن وأن يتميزوا مثله بأنه سلبي وانهزامي «متخلف ومنحط».

من سوء حظ هذا العالم أن هتلر ترك الرسم واتجه إلى العمل السياسي، يقال إنه رُفض في المعهد فانتقل إلى السياسة، لأنه كان رساماً فاشلاً، وحين وصل الى السلطة صبّ جام غضبه على معظم الرسامين المجددين، فأحرق لوحاتهم وقتل بعضهم.

قال البعض لو أن المعهد قبِل هتلر في امتحانات الرسم لكان أنقذ العالم من الهلاك، ربما، من يعرف كيف كانت الأمور ستجري؟

غابت أعمال أشهر الفلاسفة الألمان من «مكتبة هتلر»، ما يشير إلى أنه لم يكن عاشقاً لإنفاق الوقت في حل طلاسم الأفكار الفلسفية، مستعيضاً عنها بمجموعة أفكار جاهزة حفلت بها الكتب اليمينية حول أطروحات تفوّق الألمان الآريين على غيرهم من الأجناس. وكان الزعيم يصيغ نظريات سطحيّة مأخوذة من كتب الجيب وكتب التنجيم. والغريب أن ملفات سريّة أصدرتها دائرة المحفوظات الوطنية في لندن، أشارت إلى أن الاستخبارات البريطانية دبّرت مكيدة تنجيم ضد هتلر، لاعتقادها أن هذا العلم قد يساهم في إلحاق الهزيمة

بالزعيم النازي في الحرب العالمية الثانية. وأظهرت الملفات السريّة أن رؤساء أجهزة الاستخبارات البريطانية جنّدوا هنغارياً لدراسة طالع هتلر، على أمل أن يتمكن من اختراق خططه العسكرية، مشيرة الى أن لويس دي فوهل أقنع كبار المسؤولين الأمنيين البريطانيين بأنه قادر على محاكاة تنبؤات منجّم هتلر الشخصي، على رغم تحذير جهاز الأمن الداخلي البريطاني الـ «أم إي ٥» بأنه كان مشعوذاً.

وبحسب الملفات، زعم دي فوهل أن هتلر كان يعتمد بشكل كبير على توقعات الفلكي السويسري إرنست كرافت، وأن الاستخبارات البريطانية ستحصل على نظرة داخلية لطريقة تفكير زعيم النازية، إذا عرفت بأمر النصائح الفلكية التي كان يقدمها كرافت له.

أما النوع الثاني من الكتب التي غابت عن مكتبة هتلر فكان الأدب، سواء الشعر أو الرواية أو المسرحية، وفقاً للعالم الواقعي الذي كان هتلر يحياه، والذي لم تتوافر فيه مساحة للخيال الذي يغذيه الأدب.

هتلر الذي أحرق الكتب قيل إنه تأثر بنيتشه، ففي العام ١٩٣٤ زار الزعيم النازي مركز الأرشيف الخاص بفكر هذا الفيلسوف في فايمار، حيث التقى إليزابيث نيتشه شقيقة الفيلسوف، وخلّدت الزيارة بصورة شهيرة يظهر فيها هتلر مصافحاً إليزابيث ومنحنياً أمامها إكراماً لذكرى أخيها، الذي رحل في العام ١٩٠٠، وفي عام ١٩٤٤ احتفل النازيون بمرور مائة عام على ولادة نيتشه، وألقى منظّر الحزب ألفريد روزنبرغ خطاباً قال فيه: بالمعنى التاريخي الحقيقي للكلمة فإن الحركة القومية الاشتراكية تكسف بقيّة العالم، مثلما أن نيتشه كسف سلطات زمانه». لكن ما الذي كان يعجب النازيين في نيتشه، ولماذا كانوا يحبونه؟ إنه السؤال الأكثر جوهرية؟ في الواقع، اللاعقلانية الجامحة لفلسفة نيتشه وأسلوبه البرلماني المتفجر وغضبه، جميعها أمور تذكّر بشخصية هتلر عندما كان يصعد على المنصة ويلقي خطاباً حماسياً نارياً يلهب المشاعر. ومن الأمور المشتركة بين الزعيم والفيلسوف النزعة النخبوية وتركيزهما على الأقوياء

والأصحاء وكرههما للضعفاء والمرضى. إذ لم يكن نيتشه يتردد عن التضحية بملايين البشر إذا لم يكونوا أصحاء وأقوياء. وهذا ما فعله هتلر تماماً.

حين كتب نورمان مايلر رواية عن هتلر، غاص في عالم مظلم يحبّه بحثاً عن السرّ. استعان بفرويد ونيتشه وتولستوي، ليكتشف أن حبّ الـ «فوهرر» لأمه وكرهه لأبيه، جعلاه صديق الشيطان.

ويحاول المفكر الألماني بيتر سلوتردايك،أستاذ علم الجمال في جامعة كارلسروهه، في كتابه «الإنجيل الخامس لنيتشه» معرفة موقعه بالنسبة إلى الضمير الألماني منذ نهاية الحرب العالمية الثانية؟ وما يمثله نيتشه اليوم، وهي تجاريه في حكمه القائل إنه لم يكن إنساناً بل عبوة ديناميت؟

يضع بيتر سلوتردايك بعض جوانب عمل نيتشه وشخصه تحت أضواء جديدة ويسأل: هل يتناوله باعتباره معلماً او مؤسساً، هو الذي كان عدو كل أصنام الحقيقة ويكره المعلمين والمدارس وينبذ التلامذة والمريدين ويطردهم من حوله ويدعوهم الى التمرد عليه والتنكر له، بحسب كلمات نيتشه: «إنها لطريقة بائسة في مكافأة أن يظل الواحد مجرد تلميذ. احذروا ان يقتلكم صنم ما». أم ينظر إليه باعتباره سلطة وقد أدار ظهره للحكام: «عندما رأيت الذي يسمونه حكماً: السمسرة والمساومة على السلطة، مع الغوغاء». أم في تحويل أفكاره إلى مؤسسات ومنظومات، وذاك ما كان يمقته نيتشه ويشهّر بالذين يعتقدون دوماً في إمكان تطابق الفكر مع الواقع أو إمكان تطبيقه عنوة وتعسفاً على الواقع فاذا بهم يجرون الواقع والفكر معاً إلى الهلاك.

يمضي بيتر سلوتردايك في نصه إلى تعرية الحيل التي تحول الفكر من طاقات ملتهبة إلى منظومة متأسسة. ولعله يعيد الاعتبار إلى نيتشه من زاوية الفيلسوف المحب للحكمة والمستقل والحر والمتوالد بالأسئلة المتصلة بالينابيع الأولى للحياة، والعيش في التساؤل الدائم حول العالم والمجتمع والعلاقات، وحول الفكر والمفكر والحرية. يستفزنا سلوتردايك لإعادة قراءة نيتشه كمبذر طوعي،

ويطرح موضوع اللغة لدى نيتشه، بوصفه المنظّر اللغوي الحداثي الوحيد، مستشهداً بكلامه: «إنها لحماقة جميلة لعبة الكلام هذه، بواسطتها يمكن الإنسان أن يرقص فوق الأشياء».

ولكن سلوتردايك لا يتوقف هنا بل يصعّد موضوع اللغة في أبعاد الحدث النيتشوي ككارثة في تاريخ اللغة، وما تحمله هذه اللغة من تواصل وتعبير عن التفوق وما أسماه سلوتردايك كذلك التخلص من ربقة الخطيئة. ويصنّف بروز اللغة في الإطار التاريخي كهيئة في القرن الثامن عشر، وكوَلَهٍ ذاتي مقدس في القرن التاسع عشر وكافتتان نرسيسي في القرن العشرين، ثم كتصميم ذاتي في القرن الحادي والعشرين. ويصل سلوتردايك في طرحه إلى تبني مقولة نيتشه: «إن مجمل فلسفتنا هي تعديل لاستعمالنا اللغة».

يشير سلوتردايك إلى ذلك على نحو مختلف في الفصل الخامس مستنداً إلى رسالة نيتشه نفسه إلى ناشره في ٢٠ نيسان ١٨٨٣ حول كتابه «هكذا تكلم زرادشت»: «إنها قصة رائعة. تحديت كل الأديان ووضعت كتاباً مقدساً جديداً». وثمة في المعنى تحدٍّ للغة وآخر للألوهة والمقدس. ويسأل سلوتردايك: هل يحاول نيتشه تعويض ألواح موسى بأخرى زرادشتية؟ إلا أنه يستدرك مؤكداً أن هم نيتشه فعلاً هو مراجعة التفريق بين الشهادة (إعلان الإيمان) والشواهد. ولكن عن أي إنسان يبحث نيتشه؟ إنسان آخر؟ كائن أعلى ملقّح بجنون الحقيقة؟ تجنيد قوى خلق وإبداع تعويضاً عن خسائر؟ هذا المفهوم للإنسان الأعلى هو الرهان على الإمكان البعيد لمثل هذا التعويض. يقول نيتشه: «لدينا الفن. إنه الذي سيجنبنا الوقوع في الهلاك بسبب الحقيقة». وفي معنى آخر، لدينا أفق الإنسان الأعلى لتحمل النظر في عراء الوضع البشري.

يحلل سلوتردايك نيتشه من زاوية جنون العظمة والمبالغة والتبرج الادعائي، مستخدماً عباراته: «إنني حامل بشرى ليس له مثيل من قبل (...) الآن فقط، وبدءاً مني أنا، ستكون هناك سياسة عظيمة فوق الأرض». ويستنتج أن نرسيسية (نرجسية) نيتشه ليست ظاهرة نفسانية فردية بل قطيعة في التاريخ اللغوي

الأوروبي. ويجد مساهمته عبر نجاحه في تحويل المصادفة المسماة فريدريك نيتشه إلى حدث يحمل الاسم نفسه، وإنه شكّل موجة الفردانية التي اقتحمت جسد المجتمع المدني، وفي فهمه كذلك أن الثقافة تتمثل في الحاجة إلى التميّز والاختلاف، وفي التصميم النيتشوي للفردية: «نحن المفكرين الأحرار، نحن الذين نحيا في خطر». وأين يكمن نجاح نيتشه؟ بحسب سلوتردايك وفهمه لقدرة الثقافة العليا على أن تغدو ذات تأثير في الثقافة الجماهيرية. وأين تتركز قوته؟

١. في إطلاقه اللغة من رباطاتها القديمة وإعادة صوغ تركيبتها وجعل المديح مرتبطاً بالإشهار.

٢. في عدم ملاءمة فكر نيتشه لكل السياسات القائمة على اشتراكية أو قومية؟ يصف بيتر سلوتردايك كتابات نيتشه بأنها محاكاة للشمس: إنفاق النفس بلا قيد أو شرط، وغروب بلا ندم، ليؤكد رأيه بأن نيتشه ليس سوى مبذّر طوعي، وبأنه يحتفي بحشد من الغيريات تدعى العالم. ولكن إلى أين يقود كل ذلك؟ هذا المزيج الثنائي من شمس وصدى، من شروق وغروب، من نرسيسيه (نرجسية) وسواها، من وساطة مفرطة وتنازل من أجل الاكتشاف. كل ذلك ينتهي في هدوء وسكينة، خاصة فيما يتعلق بالمستقبل: لا أرغب البتة في أن تكون الأشياء على غير ما هي عليه، كما لا أريد أن أكون غير ما أنا عليه. لكنني هكذا عشت دوماً.

إنه التواري والانسحاب أمام العالم الكامل والإنسان الكامل والحياة التامة. وحيال استمرار العالم في الهدوء والسكينة وخفوت الصراع إلى حد التلاشي، وبلوغ الأشياء حد النضج والاكتمال، لا يبقى مكان لكاتب أو مؤلف لأن يقول أو يضيف.

أما عن نيتشه وفرويد فإن التقارب بين فيلسوف إرادة الاقتدار ومكتشف التحليل النفسي هو موضوع مهم للبحث، فنيتشه هو الفيلسوف الثاني بعد شوبنهاور الذي تأثر به فرويد. والكثيرون من دارسي نيتشه قد أقروا، بشكل أو

بآخر، بنوع من الالتقاء بينهما في أكثر من مجال. كما أن نيتشه يعتبر نفسه أول عالم نفس «هكذا يحدد نفسه في كتابه «أصل الأخلاق وفصلها»، الذي يقول عنه في هو ذا الإنسان».

«لقد فهمت ثلاثة أعمال تحضيرية مهمة لعالم النفس، بهدف قلب لكل القيم، ويحتوي هذا الكتاب على أول نفسانية للنفس». إن طريقة نيتشه في عمله إعادة تقييم القيم رغم إفادتها من الفيلولوجيا والبعد التاريخي تبقي طريقة نفسانية تعتبر السبر النفساني لفهم الظاهرات التي يدرسها. كما أن هيدجر يحدد أنه عندما يتكلم نيتشه عن العلم فإنه يقصد علم النفس، وكذلك غرانييه يرى أن نيتشه يستعمل أدوات علم النفس في مجال البحث الأنطولوجي. وهذا مما يشجع على البحث في العلاقة بين نيتشه وفرويد، وبشكل أكثر منهجية من خلال تخصيص كتاب لهذه المقاربة بين الفيلسوف ومكتشف التحليل النفسي.

تتنوع المقاربة بين نيتشه وفرويد من أقاصيص حول اهتمام فرويد وجمعية التحليل النفسي بنيتشه كفيلسوف وكحالة مرضية عرضت في جمعية التحليل النفسي بمناسبتين، بالإضافة إلي زيارة كل من جونس وساش إلى إليزابيت نيتشه وحديثها معها عن التقارب بين التحليل النفسي وفلسفة نيتشه، إلا أن اللقاء كان بارداً، كون شقيقة نيتشه ضد اليهود بينما التحليل النفسي هو علم يهودي، كما يذكر الكاتب. يبقى أن نيتشه هو الفيلسوف المعاصر الوحيد لحركة التحليل النفسي الذي أظهرت الحركة تعاطفا معه. من هذه النقاط التفصيلية قول فرويد إنه لم يستطع أبدًا أن ينهي من أي كتاب لنيتشه أكثر من نصف صفحة كلما عمد إلى قراءته. وإظهار تأثر بعض المحللين المحيطين بفرويد مثل أدلر ويونغ بنيتشه حيث ظهر قبل الحرب تيار فرويدي - نيتشوي. وذكر (لو أندريا سالومي) على أنها الوسيط الطبيعي بين نيتشه وفرويد، وقد عرفت الاثنين معا. وقبل أن ينطلق المؤلف إلى دراسة سيسامية لنقاط الالتقاء بين فرويد ونيتشه يحدد المواقع التي يظهر فيها نيتشه في مؤلفات فرويد، مقارنا في الفصل العاشر من «النفسية الجماعية وتحليل الأنا» بين الأب الأول في القبيلة البدائية والإنسان الأعلى عند

نيتشه، هذا الإنسان الذي ينتظره نيتشه في المستقبل مبيناً عوامل التشابه بين الاثنين من خلال النمو الواسع للأنا.

في القسم الثاني يعمد المؤلف إلى مواجهة نيتشه بفرويد من خلال المواضيع: المنهج والإشكالات. ولابد من ملاحظة أن المؤلف باتباعه تقسيم مواده وموضوعاته في مقارية متتابعة لكافة النقاط، فإنه يمنع إمكانية تلخيص الإشكالية التي يعرض لها. إذ تتعدد التقسيمات، محدداً طريقته بأنها ذهاب من الواحد إلى الآخر وبالعكس لكي يستحضر مساحة مشتركة بينهما، مساحة لا تشكل معطياً بل نتيجة تأزمية، حيث يعمد إلى خلق حوار بينهما على نفس المساحة التي تتحدد فيها الإشكالات بطريقة متسقة أو متباينة، وغالبا ما يبدو فرويد ونيتشه في وضعية من يقول الشيء عينه، ولكن ليس بالنسبة للشيء عينه. مبينا أن كلا من فلسفة نيتشه والتحليل النفساني لفرويد ترفضان السستمة بشدة. وبهذا الأسلوب يعمد المؤلف إلى دراسة الأسس ثم المواضيع ومن ثم الرهانات.

يعالج في القسم الأول مفهوم الغريزة، التي تشكل دوراً أساسياً ونقطة التقاء بين مشروع نيتشه ومشروع فرويد، مع أن هذه الكلمة لا تحظى بالمعنى عينه في المشروعين. وموضوع الغريزة هو الذي سيسم عمل كل منهما حيث يسمي نيتشه مشروعه وموضوعه بعلم النفس ويسمي نفسه أول عالم نفس ويعتبر فرويد من جهته أن التحليل النفسي هو علم للغرائز يتبعها بوصف نظامها النظري فيما وراء علم النفس ويتم في المشروعين طرح السؤال التالي : كيف يتم تصور العلاقة بين الغريزة والنفس وبينما يعتبر نيتشه أن الغريزة هي الشيء في ذاته يرى فرويد أنها التمثلات النفسانية لإثارات تنطلق من داخل الجسد وتتوصل إلى النفسانية. إنها الواقع النفسى الذى يكون على علاقة مع واقع آخر من طبيعة جسدية. ويعمد المؤلف بعد ذلك إلى مقارنة إرادة الاقتدار والليبيدو.

بعد أن درس مقارنا الأساس فى مشروع كل من فرويد ونيتشه يعمد المؤلف

إلى تحديد المفاهيم الأخرى التى قام عليها التحليل النفسى وهى الجنسانية واللاوعى وتأويل الأحلام وفى هذه المواضيع الثلاثة نجد أن نيتشه كان سبَّاقاً على فرويد.

يتفق كلٌّ من نيتشه وفرويد على عدم جعل الجنسانية محصورة فى الوظيفة الفيسيولوجية، بل يتم تناولها من خلال الأمور الرمزية. وإلى رؤية علاقتها مع غريزة المعرفة التى تبدو عند نيتشه على أنها انقلاب للغريزة ضد منبعها فى الوقت عينه الذى تعبر فيه عن مقدرة هذه الغريزة. أما فى كتاب «العلم الجذل» فتبدو المعرفة على أنها علاقة ما بين الغرائز وبعضها البعض يقول فى حكمة من «إرادة الاقتدار» إن ما يقال له غريزة المعرفة يجب إرجاعه الى غريزة التغلب والسيطرة. أما فرويد فإنه يرى أن غريزة المعرفة لا تخضع فقط للغرائز الجنسية مع أنها مهمة جدا، إذ إن غريزة المعرفة تعمل على لذة الرؤية. وغريزة المعرفة اللا محدودة تتشيد على وظيفة تنوب عن الإشباع الجنسى. ويذهب بذلك التساؤل بين التحليل النتشوى والتحليل الفرويدى انطلاقا من مبدأين مختلفين.

ويتابع المؤلف الحوار بين نيتشه وفرويد من خلال مفهوم اللا وعى والوعى، ونظرية الأحلام. حيث توازي الغريزة، اللاوعي، الموجود في كل مكان عند نيتشه، إذ يترك (الديونيدسي) المجال حراً لكل قوى اللاوعي، بينما يفرض (الأبولوني) الشكل حيث يتمظهر الوعي. وينخرط نيتشه في صراع ضد الوعي الذي يعتبره كتطور متأخر للجهاز النفسي، الوعي تابع للاوعي والتوتر بين الميدانين هو مشكل للمرضى. كما أنه يمكن العيش من دون الوعي، الذي يشكل فقط وسيلة للترقي.. بينما يشكل مضمون اللاوعي عند فرويد تمثلاً للنزوة، والكبت ليس إلا مضمون سستم (نسق) اللاوعي. الذي يظهر عمله في عودة الكبوت. واللاوعي قابل عند فرويد الى الاستقصاء النفسي العيادي. والطريق إليه هو الحلم. وبهذا ينتقل المؤلف إلى دراسة الحلم ودوره وطبيعته عند كل من الفيلسوف والمحلل النفساني. فنقاط الالتقاء بينهما متعددة فيما يخص الحلم، نكوصية الحلم، تحقيقه للرغبة،

انعكاسه للاوعي مع تحديده لدور الحلم كمنبع للميتافيزيقا عند نيتشه حيث إن الميت يبقي حيا كونه يظهر في الحلم.

وبعد أن ينتهي المؤلف من عرض الأسس والمواضيع عند كل من نيتشه وفرويد، وينتقل إلى دراسة الرهانات الأساسية في تشخيص الواقع الانساني الذي يوسعه علم النفس المرضي للاعصبة عند فرويد، ونظيره «المرض الأخلاقي» عند نيتشه، كما نجد تشخيصاً للحضارة عند كل منهما. والمرض الاسمي عند نيتشه للأخلاق كلما زاد التشبيه المرضي، وإعلان زرادشت الحرب علي «المرض» يشكل أقصى مدى لنموه. هذا مع لفت النظر إلى نسبية مفهوم الصحة والمرض عند نيتشه كما عند فرويد ولكن بطريقة مخالفة للأول. وفي كتاب «أصل الأخلاق وفصلها» يعمد نيتشه إلى معالجة المرض الأخلاقي «الحقد، والشعور بالذنب والضمير المتعب ومثال التقشف» أما التشخيص فيتم بناء على مفهوم نفساني أن ردة الفعل الحقيقية أي الفعل لم تتم، وهذا ما يؤدي إلى قلبها إلى «انتقام خيالي» يأخذ شكل الأخلاق. بينما يتم تعريف الصحة عند نيتشه على أنها الثقة الكاملة في وظيفة الغرائز المنظمة اللاوعية. ويجد المؤلف أن ما يقوله نيتشه عن الحقد ليس إلا ما يقول به فرويد حول العصاب. في الدور الذي يعطي لأثر الحادث أو الذكرى على المريض. ويبدو أن ما يحلله فرويد تحت اسم «مصير الغرائز» إلى جانب الكبت والتسامي فإنهما ينخرطان في آلية حميمة للحقد والشعور بالذنب. في تحليل نيتشه نلقى أن الاعصاب كلها تتذكر في حين لا يعترف نيتشه إلا بالذاكرة العاطفية أي النزوية. إلا أنه إذا كان نيتشه يرجع الشعور بالذنب إلى مفهوم الدين الذي يحدد العلاقة بين الأجيال، والذي وفاه الإله المسيحي بنفسه، هذا الذي كان على البشرية أن تفيه، فإن فرويد يرجع الشعور بالذنب إلى الجنسانية، جاعلاً عقدة أوديب واحدة من أهم مشاعرالشعور بالذنب الذي يرجع إلى الصراع بين الأنا الأعلى والأنا بخصوص نزوات اللهو وهذا يعني أن نقطة ارتكاز «العقد الاجتماعي» هو الشعور بالذنب المشتق من العقدة الأبوية (فرويد)

كما يتضح ذلك من كتاب «قلق في الحضارة» فرويد. ويلتقي بالتالي نقد الأخلاق عند نيتشه وتشخيص العصاب عند فرويد حول فئة الدين.

وفي نقطة أخري يتساءل المؤلف إذا لم تكن غريزة التملك عند فرويد مماثلة لإرادة الاقتدار النيتشوية. ويرى في غريزة التملك مصدراً للنشاط. إلا أن فرويد لا يوحد حول هذه الغريزة مجمل النفسية فتبدو هذه الغريزة أقل بكثير من إرادة الاقتدار. وإذا كان نيتشه قد جعل من قيمة الأخلاق مسألة أساسية في فلسفته فإن فرويد يرفض أن يجعل منها إشكالا. فهي أمر بدهي بالنسبة له. وهي تشكل مع الدين المجموعة الدفاعية والمتسامية التي تملكها الإنسانية في مواجهة غرائزها وتفرض العقل عليها. ولكننا نجد في عمل نيتشه حول الأخلاق أوليات مشابهة للأوليات التي يتبعها فرويد في المنطق النزوي الذي يكشفه له العصاب. إذ إن هذا الأخير يترجم الأزمة الأساسية من المحرم. أما أشكال الحضارة فإنه يبدو بالنسبة لفرويد ونيتشه على أنه الإشكال الرئيسي وهو إشكال الغريزة وإشباعها حيث يطرح نيتشه أصالة الحضارة بالنسبة إلى قوة الغريزة التي تعبر عنها بالتناقص مع الانحطاط الحديث الذي يعبر عن انحطاط الغريزة. ويشكل التنازع الثنائي بين الأبولوني والديونيوسي دين الحضارة اليونانية، بينما يمثل سقراط بداية للانحطاط وذلك لسيطرة الحس التاريخي ولضعف الغرائز. أما مراحل الثقافة الكبرى عند نيتشه فهي : الثقافة اليونانية القديمة، وعصر النهضة الإيطالية، أي مرحلة التسامي الفني للغرائز الأشد بأسا.

غير أنه يلاحظ أن فرويد يتصدى لأشكال العلائق بين الغريزة/ الحضارة من خلال وجهة تختلف عن طريقة نيتشه ويؤدي إلى تغيير مصطلحات الاشكال وينطلق فيه من وجهة نظر ما تكلفه الحضارة للفرد. حيث تشيد كل حضارة على الإكراه وعلى التخلي عن الغرائز. إلا أن فرويد يقول في مكان آخر إن طبيعة الجنسانية نفسها أنها لا توصل أبداً إلى الإشباع الكافي بانتظار شيء ما لا يأتي إطلاقا. ويعتمد نجاح الحضارة عند فرويد على فاعلية صيرورة كبرى هي تسامي الغرائز وتحويل هدفها الجنسي الأصلي إلى هدف آخر غير جنسي،

وهذا ما نلقاه عند نيتشه أيضا مع فارق أساسي بين الاثنين، إذ يتغير موضوع الغريزة، عند فرويد، بينما الدافع نفسه معطيا نفسه قناعا غيريًا عند نيتشه. وكذلك يختلف موقفهما من العمل، إذ يرى فيه نيتشه أفضل شرطة تبقي على كل فرد ملجوما، وتمنع نمو العقل والرغبات، ويرى فيه تبخيسا لقيمة الفرد، بينما يطرح فرويد أساس الحضارة من خلال ضرورة العمل ˇ والابتعاد التدريجي عن الغرائز، عند فرويد ونيتشه، إلا أن المحلل النفساني يرى في ذلك إيجابية، بينما هو دليل مرض عند نيتشه.

وانطلاقا من البحث في الحضارة يعمد المؤلف إلى البحث في تمظهراتها الثلاثة المهمة، وهي الدين والفن والعلم، مقارنا بين موقف كل من نيتشه وفرويد في هذه المسائل. وفيما يرى الفيلسوف في الدين وإرادة اقتدار موضوعه في خدمة المرض، يشبه المحلل النفساني الديني بالعصاب الهجاسي، مع فرق أن الغرائز المكبوتة في الوضع الديني هي غرائز الأنانية بينما تكبت في العصاب الغرائز الجنسية.

في الفن يبرز الاختلاف بين نيتشه وفرويد، يبدو عندالأول في قلب الغريزة والحياة، وهو إشارة إلى صحة الحضارة بينما النشاط العقلي المتزايد هو دليل انحطاط. كما أنه مضاد لمرض الأخلاق وبديل عن العلم. أما فرويد فإنه لا يعتبر القابلية على الإبداع مسألة تخص التحليل النفسي، إذ إن مضمون العمل الفني ليس إلا انطباعات طفولية للفنان. يبدو فرويد بالتالي معارضا للخلق الفني، ذلك أن الواجهة الأخرى للنشاط الفني ليس إلا العصاب، واللذة الفنية عند فرويد هي هوام يجعل الدفع المؤقت للكبت ممكناً. إنها لذة مسروقة من الرقابة. إذ يبدو الفن كحل للتعارض بين مبدأ اللذة والواقع.

أما العلم فإن نيتشه يجعل منه بحثاً عن الحقيقة، ويخشى أن يغزو العلم الإنسان. ويكتب في «أصل الأخلاق وفصلها»: إن العلم الحديث هو الشكل الأشد تجديداً لمثال التقشف. بينما يرى فرويد أن العلم هو حل للتناقضات بين الدين والفلسفة وحتى الفن لأنه يتأقلم مع الواقع. أما مستقبل الحضارة فإن

الفيلسوف يضعه في اتباعنا طريق الفن، بينما يراه فرويد يتم بالعودة إلى العلم الذي يشكل الجزء الأقل وهما عند الإنسان.

وبعد أن يعرض المؤلف لأعراض مرض كل من الفرد والحضارة، يطرح السؤال حول العلاج لهذا المرض. كيف يعالج المرض وكيف يصاغ المرض؟ يرى نيتشه العلاج في السيطرة علي الذات بواسطة ست طرق يبدو فيها الفرد عند نيتشه هو الذي يعالج نفسه. أما عند فرويد فإن العصابي لا يستطيع معالجة نفسه ويحتاج إلى طرف ثالث: المحلل، حيث المعالجة عند المحلل النفساني هي في إعادة تعلم السيطرة على المقاومات الداخلية. إذ يبرز تربية تعلم السيطرة على المقاومات الداخلية. إذ يبرز المحلل كوسيط بين الرغبة والثقافة. حيث لا لذة خارج الحضارة، التي لا تعطي إشباعا كاملا للذة. الحل عند نيتشه يكون في الإنسان الأعلى ذي النمط الأمومي (عودة الطفولة) بينما عند فرويد هناك تمثل للقانون، للأب. وبالتالي فإن نظامه أبوي. وإذا كان العلاج عند نيتشه يتم فيه تجاوز الإنسان والقانون فإنه عند فرويد هو في تجاوز الفارق بين رغبة المريض والقانون.

وفي الخلاصة يري المؤلف أن كلا من نيتشه وفرويد قد وجدا نفسيهما في وضع تأكيد فعل لم يكن له مكان، حيث ابتكر كل منهما ميدانه.

ويرى فرويد أن نيتشه قد بقي أخلاقيا ولا يستطيع أن يتحرر من اللاهوتي، ونرى هنا أثر (لو أندريا سالومي)، بينما يؤكد فرويد على العلم. يبقى أن ضياع الأصل هو ما يسميه نيتشه «عدمية» وفرويد «عصاب» ويعرض المؤلف بعد ذلك اثر كل من الفيلسوف والمحلل النفسي على التفكير المادي الذي أظهر ماركس جدليته التاريخية. من خلال هذا الكتاب يبدو لنا أن بعداً من فلسفة نيتشه حاضراً في التحليل النفسي. ويمكن بالتالي القول إن المنهج النفساني ربما كان من أفضل الطرق للدخول إلى فلسفة نيتشه.

والآن سنتطرق للعلاقة بين نيتشه وتشارلز داروين صاحب كتاب«أصل الأنواع»

فقد أغنى القرن التاسع عشر دلالات مصطلح «الأصل»، فقد اكتسب مضمونًا جديدًا في مؤلفات عالم البيولوجيا الإنجليزي «تشارلز داروين» (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) خاصة كتابه «أصل الأنواع» عام ١٨٥٩، الذي أكد فيه: «إننا لو تمكننا من معرفة شجرة أصول الجماعات البشرية، فسيكون في مقدورنا أن نستنبط الشجرة التي تربط اللغات» ولم يحاول أحد كما يقول سفورزا ـ أن يقوم بهذه المهمة حتى عام ١٩٨٨، يقول داروين: "إن النظام الطبيعي (للتقسيم) نسبي في ترتيبه، يشبه شجرة النسب، وقد يكون من المفيد أن نوضح فكرة التقسيم هذه بأن ننظر في قضية اللغات. لو أنا تمكنًا من شجرة نسب مثالية، فإن ترتيب أنساب سلالات الإنسان سيوفر أفضل تقسيم للغات المختلفة التي يتحدث بها البشر اليوم في أنحاء العالم، ولو أننا أدرجنا كل اللغات المنقرضة، وكل اللهجات المحلية والوسيطة التي تتغير ببطء فسيكون مثل هذا الترتيب هو الوحيد الممكن».

وقد أثرت نظرية داروين في أصل الأنواع الحية وتطورها تأثيرًا واضحًا على الفكر الفلسفي الغربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حتى ١٨٨٧.

ومنذ نيتشه أصبح مصطلح «جنيولوجي» يعني في الخطاب الفلسفي عمومًا يتبع أصول موضوع ما أو فكرة، وتقديم عرض تاريخي متسلسل لظهوره ونشأته وتطوره، والغاية من ذلك إنما رغبة في تبريره وإضفاء طابع المعقولية والمشروعية عليه، وهذا هو المنظور الذي أصبح كلاسيكيًا، وأما انتقاده وإبراز طبيعته النسبية لغاية الحط من القيمة المعطاة له، فهذا هو المنظور الجديد. فإذا كان في الاستعمال المألوف لمصطلح «جنيالوجيا» قد تغلبت فكرة التقيب والتقصي التاريخي في حقل الاستنساب عمومًا، من أجل التعرف على أصل ينظر إليه على أنه مصدر للنقاء والشرف وللقوة، فإننا نلاحظ مع داروين في ميدان البيولوجيا، ومع نيتشه في ميدان الأخلاق، أن دلالة المصطلح أصبحت لها وظيفة أميل إلى «النقد» بحيث يبدو وكأنه غاية «الجنيالوجيا» وهي تبحث عن «النشأة» و «الأصول»، باتت بالأحرى، هي تذكير الإنسان بحقيقة كونه كائنًا متناهيًا، وبأن دعائمه الأخلاقية والثقافية لها تاريخ وبالتالي فهي ذات طابع «نسبي».

بيد أن مسألة «الأصل» و «الأساس» كانت نقطة الانطلاق عند نيتشه من أجل تجاوز الميتافيزيقا أساسًا، ذلك أن الميتافيزيقا ذاتها تنظر إلى «الأصل» على أنه موطن الأشياء، فهو النقطة البعيدة التي تسبق كل معرفة إيجابية، والتي تجعل المعارف «ممكنة»، من هنا تبدو ضرورة تجاوز الميتافيزيقا، وصعوبة هذا التجاوز في الوقت نفسه.

يقول نيتشه: «لقد بلغ الإنسان درجة ثقافية بالغة السمو عندما تمكن من نبذ الأفكار الخرافية، فهو لم يعد يؤمن - على سبيل المثال - بالخطيئة الأصلية، بل إنه أصبح يمقت الحديث حتى عن خلود النفس. لكن عليه أيضًا بعد أن بلغ هذه الدرجة من التحرر، أن يقهر الميتافيزيقا حتى لو تطلب ذلك منه أكبر مجهود فكري.

غير أن ذلك يقتضي بالضرورة رجوعًا إلى الوراء. إن عليه أن يدرك التبريرات التاريخية والنفسية للتأملات الميتافيزيقية، وعليه أن يدرك أيضًا أن الإنسانية قد أفادت أكبر إفادة من الميتافيزيقا، وكيف أن هذا الرجوع إلى الوراء هو الكفيل وحده بأن يصون أسمى ما حصلت عليه الإنسانية حتى اليوم.

إنني ألحظ اليوم، فيما يخص الميتافيزيقا، أن عدد الذين يقولون بسلبيتها، ويؤكدون أنها مجرد خطأ في تزايد مستمر. ولكنهم قلة أولئك الذين يصعدون عندما ينزلون خطوات إلى الوراء. ويبدو أن هناك من يقبل أن ينظر إلى الوراء من أعلى، ولكن لا أحد يريد النزول.

إن ألمع المفكرين لا ينزلون إلا بمقدار ما يسمح لهم ذلك بأن يتخلصوا من الميتافيزيقا ويلقوا من ورائهم بنظرة تنم عن نوع من الاستعلاء. إلا أنه من الضروري هنا، مثلما هو الشأن في حلقة السباق، إتمام حلقة الدوران لإنهاء السباق.

هذا الاقتباس، على طوله، يكشف عما يقصده «نيتشه» بـ «الرجوع إلى الوراء»، والعودة إلى الأصول، وهو ما أسماه بـ «الجنيالوجيا»، التي ستتخذ عند أتباعه من

فلاسفة ما بعد الحداثة أسماء مختلفة، بدءًا من الاستذكار أو التذكر عند «هيدجر»، و «التفكيك» عند «دريدا» و «الحفريات» عند «فوكو»، وكلها محاولات لإقامة مجاوزة فعلية للميتافيزيقا لا تقتصر على اتهامها من الخارج وذلك من خلال قراءة معينة لـ «نيتشه».

والمعنى الحرفي لكلمة «جنيالوجيا»، هو دراسة النشأة والتكوين لإثبات النسب، والوقوف عند الأصل، وهذا ما أكده نيتشه في مقدمة كتابه «أصل الأخلاق» حيث يقول: «إن الأمر يتعلق هنا بتأملات حول أصل أحكامنا الأخلاقية المسبقة».

ومن هنا فإن المعنى المباشر لـ «جنيالوجيا» الميتافيزيقا، هو دراسة نشأة الميتافيزيقا، والقيام بعرض تاريخي للوقوف عند الأصل الذي صدرت عنه، ذلك الأصل الذي غذاها منذ البداية فطبعها بطبعه.

إلا أن «نيتشه» حاول أن يتجاوز هذا المعنى بالضبط إلى ما هو أعمق من ذلك، فهو يؤكد على أنها الميتافيزيقا ذاتها، التي تظهر من جديد لتوهمنا بأن أهم ما في الأشياء وأكثرها قيمة يكمن في بداياتها وأصولها.

يقول «هيدجر» في كتابه عن «نيتشه»: «لا يعني الأصل هنا السؤال: من أين صدرت الأشياء؟... بل أيضًا كيف تكونت؟.. إنه يعني الكيفية التي تكون عليها، فلا يدل الأصل أبدًا على النشأة التاريخية التجريبية.

وعلى ذلك فإن المقصود من الجنيالوجيا ليس إثبات الأصل التاريخي، أو الوقوف عند لحظة أولى تحددت فيها خصائص الميتافيزيقا وتعينت ماهيتها، كذلك ليس المقصود تمجيد البدايات أو الأصول، إذ إن ذلك سيغرقنا في دراسة الميتافيزيقا ذاتها التي تزعم بأن الأشياء كانت كاملة في بداياتها، وإنما المقصود شيء آخر يقول «فوكو»: «إذا أولى الجنيالوجي عنايته إلى الإصغاء إلى التاريخ بدلاً من الثقة في الميتافيزيقا سيدرك أن وراء الأشياء هناك شيئًا آخر، لكنه ليس السر الجوهري الخالد للأشياء، بل سر كونها بدون سر جوهري، وكونها بدون ماهية أو كون ماهياتها قد نشأت شيئًا فشيئًا انطلاقًا من أشياء غريبة عنها فما

نجده عند البداية التاريخية للأشياء، ليس هوية أصلها المحفوظ، وإنما تبعثر أشياء أخرى، إننا نجد التعدد والتشتت».

وهذا هو ما عناه «نيتشه» حين قال «بمعرفة الأصل تزداد تفاهة الأصل»، لذا فإن هدف الجنيالوجيا ليس استعادة جذور الهوية، وإنما القضاء عليها، وهو ما يجعلها تقف في مقابل الميتافيزيقا، ليصبح تاريخها هو التاريخ المضاد للتاريخ الميتافيزيقي.

11

الفصل الحادي عشر

نيتشه والعرب واليهود



حين انقسم العالم في القرن العشرين إلى معسكرين شيوعي ورأسمالي، كان أحدهما ينسب إلى كارل ماركس وكان يجب أن ينسب الثاني إلى الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠)، فيلسوف القوة وإرادة الحياة والإنسان المتفوق.

فهناك ما يشبه الإجماع على أَنَّهُ يشكل هو وكارل ماركس وسيجموند فرويد الركائز الثلاث التي قام عليها الغرب في هذا القرن. ويصل الدارس حتما إلى هذه المقولة حين يتبع أصول جميع الحركات الفكرية التي صاغت الغرب الرأسمالي في القرن العشرين من مختلف جوانبه: الاقتصادية والثقافية والسياسية.

فأهم الحركات والتوجهات في هذه المجالات تأسست على فهم معين لفكر هذا الفيلسوف ودعوته، أو ربما على سوء فهم لهذا الفكر في بعض الأحيان كما سيأتي تفصيله فيما بعد.

وحين نستخدم كلمة دعوة هنا فإنما نقصد أن نشير إلى أن نيتشه لم يكن فيلسوفاً عادياً بالمعنى الفكري المجرد للفلسفة؛ بل كان «إصلاحيا» يؤمن ويسعى إلى التغيير في بنية التفكير والسلوك الإنساني، ولم يكن يكتفي بوصف هذا الفكر والسلوك وتحليله والتعليق عليه كما فعل معظم الفلاسفة.

ومن غريب التناقضات أن ينحدر هذا الفيلسوف الثائر الذي أزاح آخر ستارة للدين عن المسرح الأوروبي من أب قسيس؛ بل إن أجداده لأبيه وأمه كانوا سلسلة متتابعة من رجال الدين. وكانت أمة سيدة تقية تتمسك بمذهبها في تزمّت. وقد جاء على مثالها في السلوك والأخلاق في مطلع شبابه، حتى أطلق عليه في مدرسته اسم «القسيس الصغير»، وقال فيه أحد أصدقائه إِنَّهُ «كالمسيح في معبد».

وتزداد أهمية نيتشه أيضا حين نذكر أنَّهُ أعلن توقعات لأحداث مستقبلية تقع في أوروبا، وقد وقعت بالفعل في القرن العشرين، مِمَّا يدل على نفاذ بصيرته في فهم الواقع الذي كان يعيشه العالم الغربي، بحيث رأى واستشرف المصير الذي تؤدي إليه هذه الأحوال. كان يتوقع - وأعلن ذلك في مؤلفاته - أن القرن العشرين سيشهد ظهور حالة من العدمية (حيث انعدام القيم وتلاشي أي معنى للحياة البشرية)، وتهاوي نظام العالم القديم، وسيكون قرنا مشهودا بحروبه الضخمة، كما سيكون قرن السياسة على نطاق واسع (ربما هو مفهوم العولمة الذي يسيطر هذه الأيام). وسيختفي فيه الاعتقاد بالدين وبالإله والأخلاق. قرنا تلد فيه ديموقراطية أوروبا أنظمة طاغية وديكتاتورية (وقد رأينا نظامي هتلر وموسوليني والأنظمة الشيوعية في المعسكر الشرقي. وقد توقع أن يسير الفكر البشري فيه على خطى هيغل (ونظريته في زحف التاريخ) وتصبح فيه مقولة دارين (البقاء للأصلح في الطبيعة) واقعاً عملياً يطبق في حياة المجتمعات الإنسانية حتى يمسخ المرء إلى حيوان أو آلة.

ومن توقعاته التي شهدنا بزوغها ثُمَّ أفولها ما ورد على لسانه بخصوص روسيا، فهي في نظره وحش أوروبا الضاري، ولشعبها عزم مصمم ثابت امتاز به عن الشعوب الغربية، ولن يكون عجيبا - كما يقول نيتشه - أن نرى روسيا تبسط سلطانها وسيادتها على أوروبا.

ومن أهم المدارس الفلسفية التي انبثقت مباشرة من فكر نيتشه الفلسفة الوجودية التي أسسها مارتن هايدجر ومن بعده جان بول سارتر. وهي فلسفة قامت على الوجود المادي البحت للإنسان. والوجود المنقطع عن الميتافيزيقيا، وكل ما تشمله من أديان وروحانيات؛ يصبح فيها الكون رؤية فردية، ولا يبقى معايير عامة لبني البشر، بل يصبح كل إنسان معياراً لنفسه، وله الحرية الكاملة.

وكذلك المدرسة الشكلية في الأدب خاصة، والتي قامت على الاعتقاد بالظاهر الملموس فقط، وأنه لا شيء وراء ذلك. واشتهر منها مدرستا براغ وكوبنهاغن للأدب والإنسانيات، والمدرسة الشكلية الروسية.

ولعل أكثر الورثة شرعية في عقب فريدريك نيتشه هم مؤسسو الاتجاه التفكيكي في النقد، وعلى رأسهم جاك دريدا وميشيل فوكو؛ فالأول يكاد يكون الامتداد الحقيقي لنيتشه، حيث استمر في تطبيق المنطق الناقض للمقولات الفكرية المختلفة، هادماً بناءها من الداخل وبنفس الأدوات التي قام بها بهذا البناء. وهذا الاتجاه من أهم الاتجاهات في عالم ما بعد الحداثة والذي انبثق برمته من فلسفة نيتشه، فهو الذي قال عن العالم: إنَّهُ «نص» يقرؤه كلٌّ على طريقته، وبالتالي فلا توجد حقيقة أو معرفة عامة يراها الجميع رؤية موحدة متفق عليها.

ويمتد «ظل نيتشه الطويل، وبخاصة تصوره لحركة الكون كتفاعل قائم على الاختلاف والتضاد ليهيِّئ المسرح أمام النقد المعاصر في مجال الفكر والفلسفة».

وينسب إليه كذلك القول بنسبية الأخلاق والمعرفة، حيث يتم الربط بينها وبين المنفعة، فلا يكون للخلق الواحد قيمة ثابتة مطلقة؛ بل تتغير هذه القيمة بتغير الظروف المكانية والزمانية. أما إمكانية التمييز بين الحق والباطل فقد صارت موضع شك كبير وربما استحالة.

يقول آلان بلوم في كتابه الشهير «إغلاق العقل الأميركي» (١٩٨٧)، والذي ينقد فيه نظام التعليم العالي في الولايات المتحدة: إن التصحر الأخلاقي في الجامعات الأمريكية المعاصرة نبع من الفكر الألماني، بدءا من نيتشه في القرن التاسع عشر.

أما في مجال السياسة فيتبلور في فكر نيتشه محوران مهمان:

أولهما: هو اقتناعه التام بحكم النخبة معدداً فضائله وميزاته. والنخبة في رأيه قد تكون هي الطبقة الأرستقراطية التي كادت تنقرض في أوروبا، أو على الأقل فقدت مركز السيطرة في الدولة. وهو يحمل مسؤولية هذا التراجع والذي يأسف عليه أشد الأسف للثورة الفرنسية التي أعلنت شعاراتها الشهيرة «حرية، إخاء، مساواة»؛ كما يؤكد ليست في الطبيعة البشرية وغير البشرية. ومفهوم

المساواة المرفوض لديه ليس بمعنى العدالة أو المساواة أمام القانون؛ بل هو تجاهل لمبدأ تميز الأفراد عن بعضهم البعض في الاستعدادات والقدرات. ويطرح سؤالا مؤداه أن ليس كل من حصل على حق الانتخاب مؤهلا لذلك وقادرا على الاختيار الصحيح؛ وفي الأغلب ستكون النتائج إما سيئة وإما معرضة لتأثيرات شتى. ومن هنا يعلن رفضه الشديد للديموقراطية وحكم الجماهير، مميزا بين أخلاق النبلاء وأخلاق العبيد والفوغاء.

والمحور الثاني في فكره السياسي هو: ما اشتهر به من فلسفة القوة والإرادة، والتأكيد على الحياة وكل ما يخدمها ويقويها، ويدفع بالإنسان إلى الأمام في طريق الرقي، وما سماه بـ«تجاوز الذات»؛ أي: أن تكون في غدك أحسن منك في يومك، وأن يكون نسلك - إن كان لابد من الإنجاب - متقدمين عليك في كل الصفات، وأن يتفوق جيلهم على جيلك. وقد لخص هذه الفكرة بما بَشَّر به من الإنسان السوبرمان الذي أسهب في الحديث عنه.

فأما المحور الأول فقد نشأت عنه - سواء عن فهم صحيح من قبل الدارسين له أم عن فهم خاطئ وتحريف - الحركات الدكتاتورية في أوروبا مثل: النازية والفاشية، والتي قامت على فلسفة التمييز العرقي وسيطرة الأقلية من النخبة متمثلة في الأحزاب وميليشياتها.

وأسوأ تهمة ألصقت به أن هذه الاتجاهات نمت وترعرعت من البذور التي زرعها في عقول الألمان، وأن التنكيل باليهود كان وليداً لبعض ما كتبه عن اليهود في أوروبا، واقعهم ومستقبلهم. والواقع أَنَّهُ من السهل جدا أن يساء فهم كتاباته، فهي أولا مدبجة بأسلوب أدبي أقرب إلى الشعرية مِمَّا يمكن أن يوصف بالسهل الممتنع (وقد كان نيتشه شاعراً مجيداً له العديد من القصائد).

وثانيا: لنيتشه في فكره خاصية ندر وجودها عند الفلاسفة؛ بل هي من صفات الشعراء أيضا، ألا وهي «الرؤية المنظورية»، والتي يقدم الكاتب فيها موضوعه من رؤية متعددة الزوايا وجميعها متساوية في الوزن والأهمية بحيث لا

يستطيع المتلقي أن يجزم أيّ هذه الرؤى هي المقصودة من قبل الكاتب. والحقيقة أنه لا توجد رؤية واحدة للكاتب، بل هو نفسه واقع تحت تأثير تعدد الرؤية. وهذا ما نجده في كتابات نيتشه مِمَّا حدا ببعضهم أن يصمه بالتناقض.

وبسبب من هذه الشبهات فقد نيتشه الكثير من شعبيته في أوروبا وأمريكا أثناء الحرب العالمية الثانية إلى أن قام بعض المنافحين عنه يجادلون في أن هتلر وجماعته فهموا نيتشه فهما خاطئا، وقرؤوه قراءة سطحية دون تمعن، وقدم هؤلاء المدافعون بدورهم قراءات جديدة له تبرئه من وزر النازية ومن لف لفها.

ويقول تشارلز سكوت: «لقد عادت أعماله لتلقى قبولا في إنجلترا والولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية وبعد أن أدرك الناس أن استغلال كتاباته من قبل الرايخ الثالث في ألمانيا كان تحريفاً فاضحاً لفكره».

وأمَّا المحور الثاني فقد تولد عنه فلسفة أن القوة في الحق، والقوي هو الذي يضع النظام العالمي، وأن السوبرمان هو الإنسان الذي لا يخضع لأية سلطة، بل هو مطلق الحرية والإرادة قادر على صنع قدره بنفسه. وهذا ما طبقته سياسة الغرب خاصة أميركا في النصف الثاني من القرن العشرين، وتطبقه الآن.

والواقع أن فكرة السوبرمان قد أشار إليها أصلا المفكر الأميركي إمرسون الذي تأثر به نيتشه، ونقلها عنه، وكتب عنها باستفاضة؛ ومن هنا يمكننا القول: إن بضاعتهم ردت إليهم، فتلقفوها.

تأثر موقف نيتشه من اليهود ورأيُه فيهم بعدة عوامل مثل: صداقاته التي كانت تتروح ما بين أعداء لليهود (أو أعداء السامية كما اصطلح على تسميتهم في الغرب) وأشخاص من اليهود أنفسهم. ولأن نيتشه بكونه فيلسوف التناقضات، فهو يرى حسنات الشيء ونقيضها؛ فقد كان موقفه من اليهود يتسم بأنه بدأ باحترامهم بحذر شديد في كتاباته الأولى، لكنه عاد يتسم بالهجوم الصريح القاسي في كتاباته الأخيرة.

ففي كتابه: «إنسان مفرط في إنسانيته» الذي صدر عام ١٨٧٩ نجده يتحدث

عن الشعب اليهودي باتزان وحذر شديدين، حديثا هو أقرب ما يكون إلى حديث الساسة والدبلوماسيين في تنظيرهم الفكري. ومن خلال هذا الكتاب يتضح لنا موقفه من اليهود والمعضلة الاجتماعية التي يثيرها وجودهم ضمن المجتمعات الأوروبية؛ فالنزعات القومية الضيقة لدى الأوروبيين أبعدت الأقلية اليهودية من دائرة القبول اجتماعيا، وهذه مشكلة لا يمكن حلها - كما يبين نيتشه - إلاَّ إذا استبدلت العقلية القومية لدى تلك الشعوب بالانتماء الإنساني العريض أو ما اصطلح هو على وصفه بـ «الأوروبي الصالح».

يقول نيتشه: إِنَّهُ لم يبق أمام اليهودي سوى أن يعلن عن نفسه كمواطن أوروبي صالح، وأن يعمل في مجريات حياته على التعايش السلمي بين الأمم، ويسعى لاندماج هذه الأمم ومحو الفروقات القومية بينها؛ لأن مشكلة اليهود لا توجد إجمالا إِلاَّ في حدود الدول التي تسيطر عليها النزعة القومية. ففي مثل هذه المجتمعات غير المفتوحة يمكن لطاقة اليهود وذكائهم المتفوقين، ذلك الرأسمال من العقل والإرادة اللذين تراكما لمدة طويلة، وجيلا بعد جيل في مدرسة الشقاء - حسب قوله -؛ يمكن أن يبلغا درجة من السيطرة تثير الغيرة والبغض، بحيث إن هذه المشاعر ستنتشر لدى كل الأمم الأوروبية تقريبا. وبقدر ما تتبنى هذه الشعوب بدورها مواقف أكثر قومية بقدر ما ينتشر فيها ذلك الأدب المقيت الذي ينوي أن يسوق اليهود إلى المذبحة كأكباش فداء عن كل السيئين في الأمور العامة والداخلية.

أما إذا لم يعد الأمر يتعلق بالحفاظ على نقاء العرق عند الأمم، ولم تمانع شعوب أوروبا أن ينشأ جنس أوروبي هجين خليط، ولكنه أقوى مما لديها في الحاضر؛ فإن اليهودي عندها يصير عنصراً مفيداً ومرغوباً فيه.

ويؤكد نيتشه أن لكل أمة ولكل إنسان ملامح منفرة، بل شريرة، وإنه لمن الظلم أن نطلب من اليهودي أن يكون استثناء؛ فهو ليس نسيجاً وحده فيما يتصف به من هذه الملامح الشريرة والمنفرة بوجه خاص.

ويعترف نيتشه كذلك بأن بعض المسؤولية عن شقاء اليهود في أوروبا يقع على عاتق الأوروبيين أنفسهم. كما يعلن عن كون أوروبا مدينة لهم جدا حيث نقلوا إليها علوم اليونان القديمة التي وصفت العالم وصفا مطابقا للعقل متحررا من الأساطير مِمَّا ساهم في بناء الحضارة الأوروبية المعاصرة.

وفي عام ١٨٨٧ ظهر لنيتشه كتاب: «ما وراء الخير والشر»، وفيه يواصل حديثه شبه السياسي. يتحدث نيتشه عن نزعة معاداة السامية التي تدينها القيادات السياسية بشكل جذري لكن ـ في اعتقاده ـ أن هذا التعقل وهذه السياسة لا يقضيان على الشعور المناهض لليهود بحد ذاته؛ فالألمان يرون أن عدد اليهود في ألمانيا كبير جداً وأكثر من اللازم، بحيث يصعب على المعدة الألمانية، وعلى الدم الألماني ـ ويؤكد نيتشه أَنَّهُ سيظل يصعب عليهما زمنا طويلا ـ هضم هذا المقدار الموجود من اليهود. ويشير إلى أن أمنية الشعب الألماني أن لا يأتي المزيد منهم ما هي إِلاَّ أمنية أمة تخاف أن يأتي عرق آخر أقوى منها فيمحوها أو يطفئها. وفي هذه الحالة قد يكون اليهود هم السلالة الأقوى، الأكثر مقاومة والأصلب في أوروبا وقت كتابة الكتاب؛ فهم يعرفون كيف يفرضون أنفسهم حتى في أقسى الظروف، وذلك بفضل مزايا خفية يمكن أن تحمل أحيانا على محمل العيوب. إن لدى اليهود وقتا كثيرا يترجم بآلاف السنين، إنهم يتغيرون متكيفين مع الظروف بكل هدوء.

ويوجه نيتشه نصيحة إلى الساسة ليس في بلاده وحسب، بل في أوروبا قاطبة. يقول في كتابه الآنف الذكر ـ ولا ننس أَنَّهُ صدر في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ـ: إن أي مفكر يهتم بمستقبل أوروبا عليه أن يأخذ في مخططاته بعين الاعتبار وجود اليهود الروس الذين يشكلون من الآن فصاعدا عاملين أساسيين سيلعبان دوراً رئيساً ومؤكداً في صراع القوى الكبرى. ما نسميه اليوم«أمة» في أوروبا، هو هذا الكيان الحادث أكثر مما هو الكيان الطبيعي، هو على كل حال ما زال في إطار الصيرورة، شابا، هشا، ليس سلالة بعد كما هو حال الشعب اليهودي.

ويستمر نيتشه في القول: إذن على هذه «الأمم» أن تحترس بشدة عند اتخاذ أية خطوة، وأن تحذر من إثارة روح عدوانية عمياء. إنَّهَا لحقيقة أن اليهود - كما يقول نيتشه - يستطيعون ومنذ اليوم - إن أرادوا أو إن دُفعوا إلى ذلك - أن يسودوا في أوروبا سيادة تامة. وإنها لحقيقة أيضا أنهم لا يسعون إلى هذا الأمر، وليس لديهم مشاريع في هذا الاتجاه؛ ما يريدونه الآن (أي في أواخر القرن التاسع عشر) وما يرغبون فيه - بشيء من الإلحاح - هو أن تمتصهم أوروبا وتهضمهم، إنهم يحترقون شوقا لإنهاء «بداوتهم» (ويقصد بها نيتشه تنقلهم المستمر وعدم تثبيت جذورهم في مكان ما) بداوة «اليهودي التائه».

وينصح نيتشه بني قومه بقوله: «ويحسن بنا أن نطرد من البلاد جميع الأبواق المعادية للسامية، ينبغي استقبال اليهود بتعقل واصطفائية كما تفعل طبقة النبلاء في إنكلترا. أما في ألمانيا الجديدة، فمن المؤكد أن النماذج العرقية النشيطة جدا والمهتمة جدا تستطيع أن تتحالف مع اليهود».

ومن ناحية ثانية نجد أَنَّهُ هاجمهم، وأن هجومه عليهم كان مبنياً على دورهم التاريخي في تطور النصرانية، وعلى الطبيعة النفسية التي اكتسبوها من خلال تجاربهم عبر الزمن. لقد حولوا النصرانية إلى دين باهت كما سيتضح لنا لاحقا. فبعد أن يكيل نيتشه الثناء لشخص المسيح عيسى عليه السلام يبدأ بالتهجم على بولس الذي يعد المؤسس الحقيقي للكنيسة النصرانية كما هي معروفة اليوم. يرى نيتشه أن المسيح عليه السلام لم يكن محاورا جدليا: لم يكن يحاول أن يقنع الناس برسالته بالحجج المنطقية، بل كان يسعى إلى أن يهتدوا إلى الدين الذي جاء به؛ وبالتالي فقد كانت حياته نموذجا عمليا لتعاليمه، كان صادقا، عمله هو نفس قوله. أما بولس «اليهودي» فلم يكن قادرا على هذا المستوى من الأداء؛ لأنه كان يقاوم طبيعته الخاصة المضطربة: فمن أجل أن ينهي نفسه عن رغباتها وجد نفسه مضطرا إلى أن يلغي هذه الرغبات، وأن يوجد نظام الرهبنة الذي وجد فيه نيتشه نفياً للحياة. لقد أعاد بولس تأويل الغرائز الطبيعية في الإنسان على أنها رذائل يجب كبتها. وهكذا يستبدل اليهودي الحقيقة بالتأويل.

وهكذا يتحول الإله في أوروبا ـ كما يراه نيتشه ـ إلى إله لكل ما يتألم، وكل ما يجنح إلى الموت. وهو ـ أي: بولس ـ بدلا من أن يبشر بما يفيض على الحياة من بهجة ونعيم، وبدلا من أن يبث في الإنسان الإرادة القوية التي تقول للحياة: «نعم»؛ نراه يكره الحياة الحقيقية ولا يحمل لها إلاّ مقتا.

في رأي نيتشه، حَوَّل اليهود الدين في أوروبا إلى أخلاق العبيد؛ فقد نقموا على المبادئ القائلة بأن الصالح والشريف والقوي والجميل والسعيد يحبهم الإله أيضا، وعملوا على دحضها بمنطق قوي؛ قالوا: إن الضعفاء والعجزة والأشقياء والبؤساء هم الصالحون وحدهم، وإن المتألمين والتعساء والمرضى والقبيحين هم وحدهم المقربون إلى الله، ولهم وحدهم أعدت مساكن النعيم. أما النبلاء والأقوياء فهم في تلك الدار المخذولون والأشقياء.

وهو يرى أن المعركة لا تزال مشبوبة محتدمة منذ عشرين قرنا بين «روما» وارثة الحضارة اليونانية من جهة، واليهودية موطن البغض ومنزل الروح الكهنوتي من جهة أخرى. وانتصرت اليهودية في هذه المعركة وانتصرت معها شريعة العبيد.

وتتمثل شريعة الأسياد المضادة لشريعة العبيد بالرجل القوي الشريف الذي تتمثل فيه معاني الفروسية؛ فهو يفتش عن كفء له يبادله النضال، ويحني هامته إزاء قوته، وتراه يحتقر الفريسة الذليلة السهل انقيادها، وتراه ينحرف عن الخصوم الذين لا يجد فيهم أكفاءه وأنداده. أما الضعيف فهو يميل إلى الظفر السهل والفريسة الخانعة.

لقد كانت الروح الرومانية في أوروبا ترى في اليهودي شيئا مضاداً للطبيعة، وهو الذي يبادر بالتوجه بالكراهية للجنس البشري أجمع.

إذن في تقديره هناك أخلاق للسادة وأخلاق للعبيد. أخلاق السادة هي الرجولة والشجاعة والإقدام والجرأة. أما الأخلاق الثانية فجاءت من اليهود بصفة خاصة أيام خضوعهم السياسي؛ لأن الخضوع يولد الضعة، ويغلف

بالاستكانة والذل القدرات الاستثنائية التي لديهم. وقد طفت هذه النفسية على أوروبا فاستبدلت المكر بالقوة والانتقام الخفي بالانتقام العلني والرأفة بالعنف.

وفي يقينه أن حياة ترتكز على مثل هذه الآراء لهي حياة مكتوب لها أن تنحل وتنزلق إلى الهاوية. ولعل آخر مراحل هذا التدهور - في نظره - هو تمجيد الشفقة والتضحية بالنفس من غير ما داع، والشعور بالعطف حتى على المجرمين. وعندها يصبح الخير ألا نفعل شيئا مِمًّا لا يقوى غمار الناس على فعله. وهذا يعيدنا إلى مفهوم المساواة لديه والذي يعني أن تكون من «القطيع»؛ بل أن تصبح إمعة معدوم الشخصية.

أما في كتابه «الفجر» فيقول: بالنسبة لشعب إسرائيل: فالدراما التي سيحفل بها القرن القادم (أي: القرن العشرون) ستقرر مصير يهود أوروبا. ويمكن للمرء أن يدرك الآن أنِ اليهود ألقوا بنردهم، والأمر يتوقف عليهم؛ إما أن يصبحوا سادة أوروبا أو أن يفقدوا أوروبا كما فقدوا مصر في الزمن القديم حين كان لهم الخيار.

لقد عاشوا في أوروبا ثمانية عشر قرنا استفادوا فيها من التعليم ما نتج عنه الطاقات الروحية والعقلية الاستثنائية التي يملكونها اليوم. تجدهم حتى في أشد حالات الإحباط لا يلجأون كباقي الأوروبيين إلى الخمور أو الانتحار، ولكل منهم عبرة في تاريخ أجدادهم؛ كيف قهروا أقسى الظروف بأساليب التحايل، واستغلال المصائب والفرص. يخفون شجاعتهم خلف قناع من الخنوع المثير للشفقة. ورغم محاولات إبقائهم في وظائف وضيعة إلاَّ أن شعورهم يظل هو أن القدر يعدهم لأمور كبرى.

لم يضطروا إلى العمل بأيديهم كالصناع والزراع، ولم يتعودوا استخدام السلاح، ولم يغرس أحد في أرواحهم مشاعر النبلاء فظل فيهم ذلة. أما الآن وقد تزاوجوا مع أرقى العائلات النبيلة في أوروبا فستتغير أحوالهم في الشكل والشخصية خلال مائة عام (كان هذا القول في أواخر القرن التاسع عشر وقد

رأينا أنه قد حصل بالفعل). وهم يعلمون أن أوروبا لن تقهر عنوة؛ بل سيأتي عليها زمن تسقط فيه بين أيديهم كما تسقط الثمرة الناضجة. أما الآن فهم حريصون على أن يبدعوا في كل المجالات حتى يصبحوا هم عما قريب المحكمين في الإبداع.

هذه الحملة وكثير مثلها وبألفاظ أشد وأقسى تكرر في كتبه، معبرة عن حنقه على روح «الضعف والاستكانة» التي رآها في مجتمعه، وخاصة عزوف المتدينين عن الحياة واحتقارها.

وكما سبق لنا ذكره أن والد نيتشه كان نفسه قسيسا في الكنيسة الألمانية، فهو إذن يتحدث عن تجربة شخصية قبل كل شيء. ثُمَّ إنه اعتقد أن مصدر هذه الروح ما هو إلا دعوة روجها بنو إسرائيل في العالم كي يسيطروا عليه بطريقة غير مباشرة.

أما بالنسبة لنظرته إلى العرب فقد كانت مختلفة تماما، وإن لم يفرغ لهم في كتاباته حيزا مماثلا لما أفرغ لليهود، بحكم التواجد اليهودي في بلاده والذي كان مثار جدل وخلاف إلى درجة أن سمي بالمشكلة اليهودية، ثُمَّ حدث في القرن العشرين من ظهور الأنظمة الديكتاتورية التي حاولت حل هذه المشكلة بالعنف، ثم تخلصت منهم عن طريق وعد بلفور.

إننا نجد نيتشه في بداية حياته الفكرية يعلن أمراً أثار التساؤل إن لم يكن الامتعاض في الأوساط الأوروبية المحيطة به؛ وذلك حين أعلن أَنَّهُ يضع على قدم المساواة الأنبياء الثلاثة: موسى وعيسى ومحمدًا عليهم الصلاة والسلام «كمجموعة أضفت سيادتها على العالم».

وهو كثيرا ما يضرب أمثالا للشعوب التي تجسدت فيها إرادة القوة، «الشعوب النبيلة» كما يسميها، الشعوب التي تتكون من «الفرسان المحاربين» والأبطال الأشاوس وليس من «الجنود». والفرق عنده شاسع بين الكلمتين: الأولى تدل على الإباء والشرف والقيادة وعلو الهمة. والثانية عنده رمز للخضوع وتشابه أفراد

القطيع حيث يفتقرون إلى التفرد والتميز؛ «أرى جنودا كثيرة العدد، حبذا لو رأيت ما يساويهم من الفرسان! ويسمون لباسهم زيا موحدا، أرجو ألا يكون ما في داخلهم موحدا كذلك!».

وفي كل هذا يأتي ذكر العرب كشعب عريق نبيل أبيّ يأبى الذل والخنوع؛ «في هذه الأعراق يجد المرء الأسد العظيم يبحث عن النصر: الرومان، العرب، الألمان، اليابان، هؤلاء جميعا لهم الصفة المشتركة».

والواقع أن حديثه عن هذه الشعوب يدل على أَنَّهُ بعيد عن التعصب العرقي أولا، وعن التعصب ضد اليهود لكونهم من الجنس السامي وليس الآري، فهم والعرب من أصل سامي واحد؛ لكنه وضع كل أمة موضعا بعيداً عن الآخر حسب ما رأى من طبائعهم. نجده يقول:

في وقتنا الحاضر يتحدث المرء كثيرا عن الروح السامية في العهد الجديد، لكن هذا لا يزيد عن كونه مجرد اسم آخر للكهنوت. وتطوير اليهود للكهنوت ليس بدعاً بل نقلوه عن البابليين.

أما الديانة السامية التي تقول: نعم للحياة، والتي ترعرعت على أيدي السادة، فانظر إلى كتاب شريعة محمد الذي يشبه بعض أجزاء التوراة. إن المحمدية دين لأولئك الذين يحتقرون الانفعالات العاطفية والعوج، ويعتبرون ذلك ليس من شيم الرجال بل النساء، (وطبعا موقفه هذا من النساء أثار سخطاً كبيرا لديهن).

إِنَّهُ يعتقد أن من ينساق لعواطفه وغرائزه هو الضعيف الذي تعوزه قوة الكبح، والذي ليس لديه من القوة ما يقول به: «لا» إذا وجب قولها. فأسمى ما يسمو إليه الإنسان هو أن يضبط نفسه. فإذا أردت ألا تكون نكرة من غمار الناس وسوقتهم فما عليك إلا أن تُعسِّرَ على نفسك الحساب».

الذي يتضح لنا هو أن نيتشه قد قرأ القرآن الكريم على الأقل، ووجد فيه القيم التي تشد من أزر الإنسان المؤمن وعزمه، وتعزز فيه الكرامة والعزة. وعلى عكس المستشرقين الذين ظلوا يعيبون على المسلمين مفهوم الجهاد، نجد أن هذا

المفهوم بالذات وجد تفهما وإعجابا من فيلسوف باحث عن الحقيقة. وكان قد وصل به الأمر إلى رفض قيم الضعف، سواء أكانت ناتجة عن الترف أم عن الخضوع في مجتمعه، والتي رآها تسير بالإنسان إلى الهاوية.

يقول في كتابه «هكذا تكلم زرادشت»: «الحرب والشجاعة حققا من الخير أكثر مِمًّا حققته الشفقة؛ ليست الشفقة، إنَّمَا الشجاعة هي التي تنقذ الضحية. ماذا يهم طول العمر؟ وأي فارس يطلب السلامة؟».

ويقول نيتشه في معرض حديثه عن الإسلام: «لقد حرمتنا المسيحية من جني ما أثمرته الثقافات القديمة؛ وفيما بعد حرمتنا كذلك من جني ما تمخضت عنه الثقافة الإسلامية.... إنها حاربت ثقافة ينبغي على قرننا التاسع عشر ذاته أن يشعر أمامها بالضعف والتأخر؛ والأمر بَيِّن واضح، إنهم (أي: الصليبيين) كانوا يجرون وراء الغنائم؛ فالشرق كان غنيا ثريا، لقد كانت الغزوات قرصنة متقدمة ولا شيء غير ذلك.

ونجده يلمح مجدداً إلى التجربة الصليبية في كتابه «هكذا تكلم زرادشت»:

«هؤلاء الملوك يضعون وجها طيبا عليها (تجربة تلك الحروب) حين يكونون في صحبتنا؛ لأنها درس تعلموه كما لم يتعلمه أحد منا. ولكن هناك من مبصر، فأراهنك على أنه بقدر ما يعنيهم الأمر فسوف تبدأ اللعبة السيئة كرة أخرى. اللعبة السيئة لإبعاد الغيوم، وللكآبة الماطرة، وللسماء المحجوبة، والشموس المسروقة، ورياح الخريف الغاضبة. اللعبة السيئة لصراخنا وصياحنا طلباً للمساعدة: ابق معنا، زرادشت، فهنا تعاسة مخبوءة تبحث عن تعبير، هنا الكثير من المساء، الكثير من الغيوم، والكثير من الهواء الميت».

ويتقدم نيتشه بقصيدة معتذرا:

«اغفروا ذكرياتي القديمة، اغفروا لي إذا غنيت أغنية مساء قديمة كنت غنيتها مرة بين بنات الصحراء. فبينهن أيضا كان هناك هذا الهواء الشرقي الصافي البديع؛ وهناك كنت أنا بعيدا جدا عن أوروبا العجوز الكئيبة الماطرة

المثقلة بالغيوم، عندها أحببت أولئك الأوانس من الشرق، ومناطق أخرى أشد زرقة من السماء، غير مغطاة بالغيوم أو الأفكار».

يقول نيتشه في قصيدته معنونا إياها بـ«بنات الصحراء»:

هنا أجلس، أستنشق الهواء الأفضل،

هواء من الفردوس حقا،

هواء خفيف لامع موشح بالذهب،

كما يكون أطيب الهواء

الذي ينزل من القمر،

هل جاء صدفة

أم جاء متلاعبا،

كما يخبرنا الشعراء القدماء؟

لكنني، المرتاب، أسيء الارتياب فيه،

فأنا أجيء من أوروبا

المستعدة أبداً للارتياب

أكثر من زوجة عجوز.

ليصلحها الله، آمين.

أستنشق هذا الهواء الأحلى

يتسع منخراي كالأقداح،

بدون مستقبل ولا ماض،

هاهنا أجلس،

يا أعز الآنسات،

وأحدق في شجرة النخيل هذه.

وحيث إن نيتشه لم يكن يتهافت على الآنسات أو يتغزل بهن فلا بد أَنَّهُ رمز بهن إلى الشرق عامة وإلى الصحراء العربية وسكانها خاصة.

ويستخدم نيتشه صورة من الصحراء العربية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالبيئة والحضارة العربية هي صورة الجمال. ففي المثل الذي يعبر به عن الاستحالات الثلاث للروح في سعيها المستمر نحو الرقي وتجاوز الذات؛ يبدأ بالحالة الأولى والتي تكون النفس الإنسانية فيها «جَملا» يحتمل بصبر أثقل الأعباء على ظهره، كناية عن القدرة على جمع الشيء الكثير من التجارب. ثم يستحيل الجمل أسداً حراً ذا إرادة يزأر قائلا: «أنا أريد»، ويتوعد بمخالبه الحادة كل من يحاول العبث بحريته. وأخيرا يستحيل طفلا يرمز إلى الصفاء والنسيان والابتداء (هكذا تكلم زرادشت». فلا صفاء إذن ولا وداعة بدون بنية أساسية تتكون أولا من التجارب ثم من بناء للشخصية يقوم على القوة والمنعة.

لقد وجد نيتشه أن أوروبا قد أقصت الدين عن حياتها ولم يبق منه سوى روحانية متذبذبة تنكر الجسد وحقه، وتحتقر مباهج الحياة وطيباتها، فرفض بدوره الإيمان بالدين كلية. ويصف هؤلاء المتعلقين بهذه الصورة من المعتقد والتي رأى فيها موت الإنسان لا حياته بما يلي: «يتمنون الموت، ونحن نتمنى لهم ذلك أيضا! ولنحذر حتى لا نوقظ هؤلاء الموتى، أو نهز هذه التوابيت الحية! ما إن يشاهدوا عجوزا أو جثة أو مريضا حتى يسارعوا إلى القول: «الحياة باطلة!»، وما باطل سواهم، وسوى عيونهم التي لا ترى إلا جانباً واحداً من الوجود».

ويكتب لنا أيضا: يقول الضعيف المتهدم: «إن الحياة لا تساوي شيئا» وخير له أن يقول: «إنني لا أساوي شيئا».

ويضيف: «لكن اليقظ، العارف، يقول: أنا جسد، وما الروح إلا اسم لشيء في هذا الجسد». وتنسجم هذه الأفكار مع فلسفته الداعية إلى القوة: «من كل ما كتب، لا أحب إلا ما كتبه الإنسان بدمه. اكتب بالدم، وعندها ستجد أن الدم هو روح. إن ما يكتب بالدم لا يقرأ، بل يحفظ عن ظهر قلب».

وفي الكتاب نفسه نجده يصف الحكمة بأنها كالمرأة لا تحب إلاَّ المحارب الشجاع.

هذه صفحة من فكر علم من أعلام الغرب، ترك أثراً عميقاً مثيراً للجدل، لكنه في هذه الزاوية كان باحثاً موضوعياً عن الحقيقة ولا شك. والاطلاع على فكره ضروري لكل مهتم بفهم الجذور التي انبثقت منها المرحلة الراهنة في الحضارة الغربية.

12

الفصل الثاني عشر
الإنسان في فلسفة نيتشه



الإنسان شيء لابد من تجاوزه، لعل هذه العبارة هي العبارة الأكثر ترديداً عند نيتشه وهي الفكرة المركزية في فلسفته، وهذا ما جعله يتطلع إلى تلك المفاهيم التي تعبّر عن الفلسفة الإنسانية، لكن بأدوات وآليات ميزته عن سلفه وخلفه ممن تعاطوا مع الإنسان وفلسفته، وإن أهمّ ما ميز نيتشه هو رفض التعاطي بالإنسان ومعه على قاعدة القيم والأخلاق التقليدية، بل تجاوز ذلك إلى إبداع مصفوفة أخلاقية خاصة به (النيتشوية)، فالإنسان الذي لا بد من تجاوزه هو إنسان القيم البالية، إنسان الميتافيزيقية واللاعقلانية، وعلى هذا الأساس استندت فلسفته على «قلب القيم»، وهذا قطعاً لا يعني إحلال السالب عوضاً عن الموجب أو العكس، بل يعني صراحة هدم الأصنام وعقلنة الأخلاق، كي تكون أخلاقاً خارجة ومرتبطة عن هذا الإنسان وبه، وعلى هذا الأساس أسقط نيتشه مفاهيم عديدة من فلسفته بشكل عام، وما يخص الإنسان والإنسانية بشكل خاص، ومن هذه المفاهيم: «الله»، «الروح»، «الفضيلة»، «الحقيقة»، «الماوراء» وغيرها، كي يختزل المفاهيم المحدّدة لهذا الإنسان ذاته.

كيف يصبح المرء (ما هو)؟ بهذا السؤال، أو بهذه الإشكالية إن صح التعبير، يبتدئ نيتشه فلسفته حول الإنسان، وبهذه الإشكالية أيضاً يكون قد لامس الجانب الإبداعيّ في فنّ حفظ الذات «فن إيثار النفس»، وبالتالي فإن الخطر يكمن في تعرّف المرء على نفسه بالنظر إلى تلك المهمة. أن يصبح المرء (ما هو) يُفترض أن لا يكون لديه أدنى دراية بـ (ما هو)، ومن وجهة النظر هذه تغدو حتى الأعمال غير الصائبة التي تحدث في الحياة ذات معنى وقيمة، وكذلك السبل الجانبية والسبل الخاطئة التي يسلكها المرء لفترة من الزمن، ووقفات التردد والركون إلى الأوضاع «المتواضعة» والجهود الجديّة التي تنفق في مهمات مجانية للمهمّة الحقيقية. وهنا تتجلّى حكمة كبرى، بل الحكمة الكبرى، ألا وهي «اعرف

نفسك بنفسك»؛ فنسيان الذات وسوء فهم الذات وتحقير الذات (الذات الإنسانية) وأيضاً التحول إلى كائن ضيق الأفق ورديء، تغدو عين الحكمة أمام القفز إلى الماوراء دون معرفة ماهية ما تم القفز فوقه، وعليه لا يعتبر نيتشه هؤلاء (العظماء) المزعومين، والذين ساهموا وما زالوا يساهمون بسن الأخلاق والقيم المحددة للإنسان حتى في عداد البشر فيقول: فهم في نظري نفايات البشرية، ونتاج للمرض وغرائز الانتقام، إنهم كائنات فظيعة ومضرة وغير قابلة في جوهرها للعلاج، غايتها الانتقام من الحياة.

ويطالب نيتشه نفسه بأن يكون نقيضاً لهذا النوع، وأنه رغم (اعتلاله في بعض الأوقات) - حسب تعبيره - إلا أن ذلك أنتج منه كائناً يخلو من الأمراض، وفي هذا يقول: «عبثاً سيحاول أيّ كان أن يستشفّ لديّ أثراً للتعصب، كما لن يعثر المرء لديّ على شيء من هيئات الغرور أو الانتفاخ الحماسي، فالتفخيم الذي يُضفى على الهيئة لا ينتمي بحال إلى العظمة، ومن كان بحاجة إلى اتّخاذ هيئة ما فهو مزيّف». فنيتشه لم يعرف في ممارسته للمهمات الصعبة من طريقة أخرى غير اللعب، وبأقل تكلف، وببسمة غير متجهمة ودون نبرة شديدة في الحلق، وعد هذه المظاهر مآخذ ترفع ضد الشخص وبصفة أكبر ضد أثره. فالإنسان الحق عند نيتشه، هو ذاك الإنسان الذي لا يدعو إلى العفة، فالعفة حسب وصفه: تحريض عمومي معاكس للطبيعة. كما اعتبر تحقير الحياة الجنسية وارتباط هذه الحياة بفكرة «الدنس» هي جريمة في حق الحياة، وإذا ما اعتُبرت خطيئة من قبل المثاليين، فالخطيئة عند نيتشه هي المثالية ذاتها، فالإنسان هو الإنسان الحر، والإنسان الحر هو من يمتلك عقلاً حرّاً، أي عقلاً محرّراً استعاد تملكه بذاته، ومنه فالإنسان المستقيم هو الإنسان الذي يعي نفسه كنقيض لأكاذيب آلاف من السنين. وليس من اليسير عند نيتشه الوصول لهذه الاستقامة، فمن يرغب بالوصول إليها عليه أن يكون قادراً على رؤية الكذب ككذب، أي عدم الإصرار على عدم الرغبة في الرؤية الكيفية التي يتكوّن عليها الواقع في الأساس، وأن ينظر إلى أوضاع البؤس بجميع أصنافها كاعتراض وكشيء ينبغي إزالته في جميع

الأحوال، ومنه أيضاً فالإنسان المبدع عنده هو الإنسان الذي يجب عليه أن يكون أولاً إنساناً «مدمّراً» وأن يحطّم القيم «فالشرّ الأعظم هو جزء من الخير الأعظم، لكن ذلك هو الخير المبدع». والإنسان الأرقى في فلسفة نيتشه هو الإنسان الذي يتمثّل الواقع كما هو، ويمتلك ما يكفي من القوّة لهذا الغرض، «الإنسان الأرقى ليس غريباً عن هذا الواقع وليس ببعيد عنه، إنه هو ذاته، وهو ما يزال يحمل في داخله كل فظاعاته وإشكالاته، بهذه الكيفية فقط يمكن للإنسان أن يكون ذا عظمة». والإنسان الأكثر حقارةً هو ذاك الذي لم يعد قادراً على احتقار نفسه، والأحمق هو الذي ما يزال يتعثر في حجر أو بشر، والإنسان القادر على العطاء هو الإنسان الذي ما يزال يحمل شيئاً من الفوضى «كي يَلد نجماً راقصاً».

كما يرى نيتشه أنّ الإيمان ليس كما يُعبّر عنه حاليّاً، اي أنّ المؤمن ليس هو ذاك الإنسان الذي ينتهي به الأمر إلى قناعة أساسية مفادها بأنه لابدّ أن تُملى عليه أوامر من الخارج، وبالمقابل فهو يرى الإيمان على أنه ذاك التصور وتلك الرغبة بالقدرة على استقلالية القرار، أي حرية إرادة، بموجبها يودع عقل ما كلّ إيمان وكل رغبة في اليقين، ويكون ذاك الإنسان قد امتلك دربه الخاص في الحفاظ على توازنه، مثل هذا الإنسان - يقول نيتشه - سيكون مؤمناً، حرّاً ومنعتقاً.

هكذا نظر نيتشه إلى الإنسان، وهكذا عرّفته فلسفته الخاصة، انطلق منه وانتمى إليه انتماءً خاصّاً، انتماءً إنسانيّاً، متفرّداً، خارجاً بذلك عن القيم والمثل والأخلاق (ما قبل نيتشه)، والتي يحبذ هو أن يسمّيها بالقيم المنحطة، فإنسانية فيلسوفنا هذا، إنسانية تكفر بالشفقة وتناهض العواطف التجميلية الكاذبة والمخادعة، وهو بذلك يرفض أن تكون أخلاق الإنسان مستمدّة من الماوراء، وأن يدّعي هذا الإنسان امتلاكه للحقيقة، كما أكّد دائماً على نسبيتها وهذا ما دفعه إلى «تقويض القيم» حيناً و «قلبها» أحياناً أخرى، كما دفعه ذلك إلى إطلاق دعوة «هدم الأصنام» في كل العصور الماضية والمستقبلية.

إنسان نيتشه هو إنسان العقل، إنسان الخير والشر كما يراهما العقل، وتقييم

الخير والشّر عليه أن يكون «تقييماً أرضياً وليس فوق ـ أرضي»، وهو بذلك يضع الإنسان ولأوّل مرّة في تاريخ البشرية، بكلياته وتناقضاته موضعاً إنسانيّاً، ومحيطاً إيّاه بأخلاق جديدة وقيم ومثل إنسانية أرضية، هذه الأخلاق وتلك المثل مشروطة، ليس فقط بتصالحها مع العقل، بل اشترط أن تكون نتاجه أيضاً ونتاج تداعياته الموضوعية، فالإنسان وإذا ما أردنا أن نكثّفه حسب نيتشه لتوضحت لنا ملامحه بتجلٍ سليم: «هو المحارب الذي يجنّد كلّ قواه وطاقاته الإثباتيّة في الصراع من أجلِ التطوّر والتجاوز». وإنّ أصغر الفجوات لأكثرها تعذّراً على التجاوز.

لقد تميز نيتشه بنظرة بيولوجية في تحري تاريخ الإنسانية، الماضي، ومظاهر الانحلال الأوربي المعاصر، فأعلن نقمته على أوربا، قائلا "كل حضارتنا في أوربا ما زالت تئن وتتلوى كأنها في انتظار الكارثة لقد سيطرت الكمية على حساب النوع، وصارت الحضارة الخلاقة تختنق شيئا فشيئا، بدخان الإنتاج الصناعي الجبار، فتطور الإنسان الخارجي، على حساب الإنسان الداخلي.

وكما وجدنا هيغل مرآة عصره، ظهرت أفكار نيتشه مصطبغة بما عاناه من ظروف حياتيه وتربوية واجتماعية سيئة، دفعت به إلى أن يثور على أسرته وأصدقائه وعصره مدفوعا وراء نداء داخلي، يحثه على اتخاذ الموقف الذي يؤهله إلى إحداث ثورة في ميدان الفكر ويحق لنا أن نعده فيلسوفا غلب على تفكيره الجانب الخلقي المحكوم بالقوانين البيولوجية الصارمة، استبطن التاريخ باحثا لفكره عن موقع.

فكما وجدنا تاريخ هيغل محكوماً بمنطقه، عمل نيتشه على أن يحكم التاريخ بأخلاقه فالتاريخ كله، عند هذا الفيلسوف يسير مدفوعاً بإرادة الظفر خلال قوة لا تعرف الرحمة،إن القوة هي المبدأ الأول للحياة.. وإن عذاب الكثرة ضروري لانتصار القلة، وأنبل عمل في العالم هو شن الحروب لتحقيق طموحات القلة.

وهدف السادة الأقوياء، قلبه المجتمع القديم (فالأنا) الكلي المقدس أو (الأثرة)

المباركة، تعتمد على قوانين التطور التي لا رحمة فيها والروح السامية لديه هي التي تبلغ أقصى درجات الأثرة.

سعى نيتشه من وراء ذلك إلى ممارسة عملية الهدم ليتسنى له البناء، فجاء ملخص رأيه في القيم قريبة من مقولة السوفسطائيين «الإنسان مقياس كل شيء» حيث صبها في العبارة التالية «قيمة الأشياء ليست في ذاتها، وإنما الإنسان هو الذي يصنع القيم للأشياء، فخالق القيم إذن هو الإنسان» .

فدعا إلى قلب القيم السائدة. وحاول متأثرا بالداروينية، أن يرد القيم الأخلاقية إلى أصول حيوية عضوية رافضا قيم عصره في كتابه «إرادة القوة» بمحاولة فلسفية جدية، تناولت المبحث الفلسفي الجديد «القيم» بما ينم عن سعة تفكيره حيث عبر عن الفلسفة الكامنة في كل تقدم أحرزه العقل البشري في تأكيده على خلو العالم من القيم التي لا يخلقها الإنسان ذاته، والتي لا تضيفها على العالم إلا مطالبه وحاجاته دون أن يعوقه عائق.

إن الحياة هي المحور الذي ربط من خلاله نيتشه بين الإنسان والقيم، ويضيفها فيما بعد، على كل ما في الطبيعة من مظاهر «فالحياة» أصل القيم العقلية والأخلاقية.

أما فلسفته في التاريخ فيمكن متابعتها في الأخلاق ومبحث الصراع الذي يحكم العلاقات بين الناس، منذ أقدم العصور. والحضارات الكبرى، نشأت هي الأخرى بفضل الجهود العظيمة التي قامت بها طائفة من الأرستقراطيين (على شكل حيوانات شقراء) حينما فرضت إرادتها على الشعوب التي قطنت آسيا وأوروبا، فكانت أساسا لنشأة الحضارات اليونانية والرومانية والجرمانية حيث اخترعت لها الشرائع من القيم الأخلاقية المستندة على قوة جسمية وصحة زاهرة.. وكل ما يتصل بالقوة والغزو والحرب والمخاطرة والصيد والرقص والألعاب البدنية وظهر ذلك جلياً في المدن اليونانية التي تحقق فيها بنجاح ذلك الانتصار المتمثل بالقول والتحطيم الباعث على شعور الأرستقراطي الأخاذ بالفوز وهو يعذب الآخرين.

ومن أجل ضمان ديمومة نفوذ هؤلاء الأرستقراطيين عملوا على تطبيق برنامج تربوي يتناول الفرد والأسرة. ويؤكد على الجسم والعقل، فكانت أسبرطة عزاء للنفوس المريضة.

ولا يعتقد نيتشه. أن كل إنسان (بالطبع) إما سيداً أو عبداً بل المقياس هو في انضواء الإنسان (بالتربية) تحت واحد من الأنماط الأخلاقية المتناقضة، وشعوره بالانتماء إلى:

١. جماعة حاكمة تشعر باختلافها عن الجماعة المحكومة شعور يصاحبه إحساس بالسرور لتوكيد الذات (النبيلة) التي هي عنوان «الخير».

٢. أو جماعة محكومة (العبيد) الخاضعة للحكام الأشداء.

أما مواصفات السادة عند نيتشه، فقريبة من وصف أرسطو للرجل ذي الروح العظيمة.

والتاريخ عنده يلخصه ذلك الصراع بين الحاكمين والمحكومين، بين السادة والعبيد وهو بالتالي صراع حاد بين أخلاق وقيم السادة وأخلاق وقيم العبيد، حيث يبدأ العبيد بثورتهم، فيقلبوا ما اصطلح عليه السادة من أوضاع، فيبدلون قيم السادة بقيمهم المتخلفة، ويحاول السادة إعادة الأمور إلى طبيعتها بصراع مضاد. إن هناك حربا شعواء بين قيم السادة، وقيم العبيد، وحرب العبيد ضد السادة غير متكافئة، لأنها تعتمد على «القوة» و «البساطة» و «الشجاعة» بل دعامتها «اللؤم» و (الخبث و الضعف) فيصبح الخير شرا والعكس بالعكس مما يحفز السادة إلى استعادة مكانتهم وحماية قيمهم، ويتحقق لهم ذلك لأن ذلك أخلاقهم أخلاق «أقوياء» ومقياس أخلاقية الفعل عند نيتشه هو تعبيره عن روح "القوة" التي يستشعرها المرء في ذاته، وهذا الفعل يجب أن يلائم تلك النفوس الزاخرة التي تشعر بأنها هي التي تمنح القيم وتخلقها. ولكن بسبب تكتل العبيد، "وكثرة" عددهم، يتحقق لهم الانتصار على السادة.

هذا هو جدل الصراع عند نيتشه، صراع ثنائي بين قيم متناقضة ورغبات

متفاوته، تلعب فيه القوة تارة ـ دور المؤثر تقابلها الكثرة تارة أخرى وإن التاريخ صراع بين قيم القوة والكثرة مسيرة هذا الصراع متفاوتة بين الهدم والبناء ومهمة السادة (الهدامين) (الخالقين) كما أعلنها «زرادشت» هي العمل على (هدم) قيم العبيد، وبناء عالم (الأقوياء) بما يمهد لظهور رمز التطور التاريخي البيولوجي ونعني به (الإنسان السامي ـ السوبرمان).

يقابل ذلك نقيض يعمل (يهدم) قيم السادة، وبناء البديل الخلقي لعالم الكثرة والضعفاء ونعني به مجتمع المساواة، المعتمد على قيم يسميها نيتشه (الضعف والذلة والخنوع).

لقد جسَّد نيتشه (تاريخ العالم) بتأريخ الصراع بين القيم، مقتفيا أثر هيغل في استقراء مراحله، وإن مال إلى التفصيل، بفضل تأخر زمانه عن زمان هيغل وتوسع الدراسات التاريخية خلال تلك الحقبة، فظهرت له سلسلة الصراع بين (القوة) و (الكثرة) بتعاقب زمني لا يخلو من الانتخابية فكانت:

١ـ المرحلة اليونانية التي تمثل التنافس الخالي من العاطفة، المعتمد على (إرادة القوة) على مستوى الواقع الاجتماعي «والفكري» لذلك لم يفقد الحماسة لمن سبق سقراط من الأغريق، ممن استخدموا طرقا تربوية لإنشاء الأفراد المتفوقين، العظماء المختلفين عن «هؤلاء الذين يدينون بوجودهم للصدفة وحدها».

٢ـ المرحلة المسيحية التي هي شذوذ عن الحقيقة، وإن كانت تعبيرا عن «قوة» الضعفاء (وكثرتهم) لكنها لا تطلب السيطرة على العواطف بل تطلب وأدها، وعملت على اعتبار الدافع (الجنسي) شيئا قذرا مع أنه بالإمكان تهذيبه وهزأ بفكرة الحياة الثانية، وعالم آخر حلم فيه المسيحيون، حيث يقتص فيه الضعيف من القوي.

٣ـ عصر النهضة وهي مرحلة كادت فيها أخلاق السادة أن تعود إلى أصالتها

اليونانية (ممثلة بالنبلاء) لولا حركة الإصلاح الديني التي حالت دون عودة أخلاق السادة.

٤. الثورة الفرنسية وهي من أخطر المراحل التي سيطرت فيها أخلاق العبيد، ورفعت شعار (الحرية، الأخاء، المساواة) وغيرها من قيم (متخلفة) في مفهوم نيتشه.

٥. المرحلة النابليونية أمل الأقوياء وحلم السادة، تحقق على يد نابليون (القوي) الذي لا يعرف (الرحمة) إنه «مزيج مما هو غير إنساني، ومن فوق الإنساني والذي يؤكد «امتياز العدد القليل على الأغلبية» ولكن بسقوطه، زال آخر شعاع من قيم السادة في أوربا.

٦. القرن التاسع عشر يمثل انتصاراً لقيم العبيد، التي اعتبرها علة انهياره، وسبب أزماته، ولم تشفع معه حتى الأخلاق (البرجوازية) التي انتقدها نيتشه بشدة واعتبر النضال من أجل «الأهداف الاجتماعية» رجوعا بالإنسان إلى الوراء وعلى خلاف هيغل، قال نيتشه بفكرة الشعب المختار، وقصد به الشعب الذي «يلائم رجاله زمانهم فيأتون أضدادا لمن لا تتفق أحوالهم مع الزمان» وترك ذلك للتأريخ.

نيتشه واحد من فلاسفة الأخلاق، وكانت فلسفته في مجملها انتقادية لقيم عصره، لقد رفض أن تكون (أوامر الله) أو أحكامه منبع الأخلاق. بل الطبيعة الإنسانية وغريزة حب السيطرة وإرادة القوة هي مكمن الأحكام التقويمية، لا العقل الإنساني.

لقد طرح «المصدر الإلهي» و «العقل الإنساني» من التأثير على الأخلاق وقرنها (بالأنانية) ونقل ذلك إلى تاريخ الفلسفة، بذات المنطق، منطق الصراع بين (أفكار) العبيد، فاعتبر ثورة سقراط الفلسفية، انتصاراً لقيم العبيد، على أفكار السادة و (أفكار) العبيد، على أفكار االفلاسفة العظماء من السابقين عليه.

فهاجم هذا الفيلسوف ناعتا إياه بشتى نعوت الضعف والخور كما اعتبر

المسيحية مصدراً لقوة العبيد، من هذا جاء تاريخ العالم بعد المسيحية، ممثلا لسيادة قيم العبيد وأخلاقهم، وما ظهور أخلاق السادة إلا عرضي.

ولم تكن هذه السيادة كافية لإقناع نيتشه بمشروعية أخلاق العبيد، بل اعتبر هذه الأخلاق غريبة عن الواقع، وتتعارض مع قوانين الطبيعة الحقيقية.

إن نيتشه في كل ذلك كان مدفوعا بمنطق (الصراع) الذي كان يحكم فلسفته التأريخية والأخلاقية، على أساس (إرادة القوة)، فانتقد الفلاسفة الذين ادعوا أنهم حسموا المسألة الأخلاقية لصالح العصر، دون أن يعلموا، أنهم فشلوا في ذلك فشلا ذريعا، بسبب قلة معلوماتهم، عن الماضي (التاريخ) وعدم اهتمامهم به، ولما كانت المشكلات لا تبرز ألا بمقارنة كثير من النظم، بعضها مع بعض جاءت تحليلاتهم مضطربة وناقصة.

إن كتابه «أصل نشأة الأخلاق» تضمن تفصيلات لا بأس بها لمسألة الصراع بين الخير والشر، والحسن والرديء، بين السيد والعبد، تنسجم ومنطقه التاريخي العام، لكنه يضطرب في كتابه «أفول الأصنام» حينما اعتبر كلا من أخلاق السادة وأخلاق العبيد، نمطين من الأخلاق، كل منهما جدير بالآخر. وبذلك استعار من هيغل منطقه الجدلي التأريخي، حينما جمع المتناقضات ليوجد المركب، مع أن نيتشه لم يؤشر لنا معالم ذلك المركب، وهو القائل إن الخير الأعظم يكمن بالشر الأعظم لكنه قصر (السوبر مان) على السادة دون العبيد، وإلا لأصبح ذلك الإنسان السامي هو المزيج الأفضل لجدلية (السادة والعبيد).

خلاصة القول إن نيتشه لم يعترف بالنظام الأخلاقي إطلاقا، لأنه (استبداد) «يناقض الطبيعة والعقل» ولكونه ينبع من معين أخلاق العبيد أما (الأنانية) فهي وحدها التي ارتقت بالإنسان من حالة الحيوانية إلى الإنسانية، وستكون سببا بارتقائه إلى الكمال (السوبر مان) وبذلك كان نيتشه أمينا على منهجه التطوري البيولوجي التاريخي الذي تحكمه قاعدة «البقاء للأقوى» لأنه «الأصلح» والتي فرضت ارتقاء الكائنات جيلاً بعد جيل. كما أنها فرضت قيماً جديدة. لتحقيق «غاية الحياة» و «هدف» الإنسانية ونعني به ولادة «الإنسان السامي ـ السوبرمان»

من صلب الأرستقراطية التي خصها فيلسوفنا بأحسن الأشياء وأفضل الامتيازات وطالب الأكثرية (الضعيفة) بفضيلة (القناعة).

أما النظم الخلاقية، فلقد هاجمها نيتشه، ودعا إلى (هدمها) لأنها وصفة يعيش بها المرء مع عواطفه، ليس إلا، فهي: من ناحية الشكل تسير على نسق غير معلوم كما أنها غير معقولة لأنها موجهة للجميع، فهي إذن تعميم ومن المستحيل إخضاع الناس إلى قوالبه مثلما من المستحيل أن يحيا القديس أوغسطين حياة أرسطو فرفض على هذا الاعتبار قيم «الشفقة» و «المساواة» و «المحبة» و «التعاون» و «العطف» و «الرحمة» ...إلخ. لأنها قيود اخترعها الضعفاء لتقييد الأقوياء كما رفض نيتشه كل إرث اجتماعي وتراث خلقي، ليعرض على الناس بضاعته (الأخلاقية) المتمثلة بقيم العصر الذي حلم به، وعاشه في داخله فدعا إلى المبادئ التالية:

١. مبدأ «الهدم» لكل ما هو قديم.

٢. مبدأ «الحرية الفردية»، وتحطيم القيود، ليكون الإنسان القوي فوق كل القيم والقوانين والناس والأخلاق.

٣. مبدأ الفضيلة القصوى (الألم) والشعور بالخطر الدائم والتحفز والمجازفة.

٤. مبدأ (الانتحار) والموت الاختياري، يمارسه الإنسان حينما يشعر أن النفس توشك على الذبول، والخمول، وفقدانها لقدرة الإبداع والخلق والإنتاج يحثه مبدأ (عودة الحياة) وتكرارها مستقبلا.

٥. مبدأ «الدورة» والعود الأبدي لحيوات مستقبلية، بهدف تجاوز رهبة الموت، فزرادشت يدعو إلى ذلك اليوم الذي تعود فيه من جديد سلسلة العلل التي أنا مشتبك فيها، وستخلق من جديد، وكأنه بذلك حقق انتصارا على مسألة «الموت» التي فشل جل المفكرين في حسمه لصالح (خلود الإنسان) في عالمنا الأرضي.

٦. مبدأ «الغائية» و «الهدفية» في الحياة، قصد نيتشه من ورائه، السمو بالحياة

نحو درجة أفضل، وبالإنسانية نحو نوع أرقى، ولا وجود غيرها، وإرادة الحياة، هي مقياس القيم في الحياة بسبب كونها، كفاحاً لا هوادةَ فيه ولا رفقَ.

٧. مبدأ «موت الآلهة» ويمثل قمة تطرف هذا الفيلسوف، لأنه بذلك نسخ كل ما دعت إليه العقائد السماوية والأرضية: قصد من ورائه تهديم الجوهر الذي ترتكز عليه الأخلاق والطبيعة والمجتمع، مسوغا ينسجم ودعوته للعود الأبدي وتكرار المراحل.

إن الفلسفة الخلقية لنيتشه، عصارة «انفجارية» حفزت عليها ظروفه النفسية والاجتماعية وضجيج هائل من الآراء والأقوال والادعاءات كانت تزخر بها سوق الفكر، فحاول تجاوزها بالحديث عن الإنسان والكون بمنطق التطور العشوائي اللاواعي، فالإنسان عنده وتر مشدود بين الحيوان والإنسان الأعلى، وتر على هاوية فعليه إذن بهذا المنطق، أن يتشبث من أجل تحقيق النقلة النوعية، لا في الإطار البيولوجي بل وكذلك في حيز الأخلاق وفق المعايير التالية:

(الخير) هو كل ما يرفع في الإنسان الشعور بالقوة وإرادة القوة أما (السعادة) فهي الشعور بأن القوة تنمو وتتزايد باستمرار و (الحرب) طمأنينة الإنسان، والسلم حتفه (المهارة) درجة تسمو بنا نحو «الذات» بعيداً عن فضائل (الضعف). و (الشفقة) رذيلة من أشد الرذائل، لأنها نقيض لمبدأ إرادة القوة وجوهر الوجود. أما (الصراحة) فهي صفة تنم عن (الشجاعة) يناقضها «الضعف والعجز» كصفات مرفوضة، يتوجب علينا تطهير المجتمع منها حباً بالإنسانية و (المخاطرة) توتر دائم يشد الإنسان إلى قدرة السامي ويدلل على «الحيوية» باعتبارها صفة محببة من القوى لتجاوز (الخمول)، أما (العود الأبدي) فهو إيمان يساعدنا في السيطرة على الزمن ويشعرنا بقدر من الحرية. إن (الإيمان) مقولة لا تتحقق في أخلاق نيتشه إلا بموت الإله!! ليكون الإنسان (السوبرمان) هو البديل.

أما (الشرف) فكلمة يكتنفها الغموض في قاموس الأقوياء، وتدلل على المسكنة

والقذارة والغرور. و(الذكاء) قدر معقول يمتلكه الإنسان ليتكيف مع طموحاته. وليس هو كل شيء، بل يساهم مع الجسم بنصيب متساو في استيعاب الظواهر الخارجية.

و (العدل) حجر يقدح شرراً ولا يشتعل. و (الراحة) مستنقع يشجع على الثرثرة . أما (المرأة) فمخلوق يوجب الحذر، لكنها جديرة بالاحترام لأنها ستساهم في ولادة السوبرمان. لا تحتاج إلى (العفة) لأنها في مفهوم نيتشه «أمر قريب من الهذيان» و (المواطنة) عنده تتلاشى أمام عالمية السوبرمان، الذي سنحققه (بالأنانية)، كما تحققت الإنسانية من الحيوانية.

و (التأريخية) معناها أن يحيا الإنسان تاريخ الإنسانية بأسره من جديد وكأنه تأريخه، فيجد أمامه ومن ورائه أفقاً واسعاً مكوناً من آلاف السنين.. يشعر أنه الوارث لكل ما تناثر فيها من نبل روحي يحمله مسئولية كبرى وهذا ما حاول نيتشه أن يفعله.

لقد سعى نيتشه، في فلسفته التاريخية والخلقية، إلى إيجاد الإنسان (النموذج) المتطور فيزيولوجيا، باعتباره المثال الرومنطيقي الفني (السوبرمان) المقابل للحالة التي كان عليها هذا الفيلسوف. مستخدما القوانين الطبيعية في تفسيره لحركة الإنسان، مما أوصله إلى (جبرية) حكمت على الكون وما فيه بالعشوائية والعمى والتقدم لديه لا يتم إلا باتجاه قوة أعظم، تعتبر جوهر الوجود أنها (إرادة القوة، إرادة الحياة) مستعيراً من الرواقيين نظريتهم في تحرك الحوادث من خلال الزمن كله في سلسلة الدوائر المكررة والتي تذكرنا بوحدة الكون والدورات الفلكية التي وجدناها في الفكر الرافدي القديم.

إن نيتشه مدفوعا وراء "نظرته الكونية" المؤكدة على سمو الحياة كان ينتقد الفلسفة والدين والأخلاق لأنها لا تحقق "فردية الإنسان" تلك الفردية التي يحث عليها القانون الطبيعي بعيداً عن قيود الأخلاق الاجتماعية التي اعتبرها هي والأهداف الاجتماعية حالة نكوص في حياة الإنسان لذلك هاجم الديمقراطية

على الصعيد السياسي، لأنها تقف في طريق أطماع الوحوش الأرستقراطية الضارية. إن الركون إلى السلام سيؤدي حتما إلى التراجع والانشغال بالملاهي لذلك فالحرب وحدها - وبكل أشكالها - هي التي تحفز الإنسان وتديم توتره من أجل التغيير والتفوق.

بعد أن عرضنا - باختصار - لموقف كل من هيغل ونيتشه في «فلسفة التأريخ» المحكومة بالجدلية المنطقية الهيغلية والأخلاقية التطورية لنيتشه ومن أجل أن تتكامل خطوط البحث نستخلص النتائج التالية:

أولا: ديالكتيك هيغل في نطاق الفكر مثله تاريخ الفلسفة والعكس على فلسفة التاريخ، أما عند نيتشه، فعكس الصراع بين السادة والعبيد على الفلسفة أيضا، واعتبر سقراط ممثلا لقيم العبيد، على خلاف هيغل الذي فضله على السيد المسيح.

ثانيا: الوعي: عند هيغل هو مقياس التطور الذي يأخذ منحى صوفيا «اتحاديا» ووحدة وجود كونية، على خلاف مقياس «القوة» الذي يحكم الصراع والتطور عند نيتشه. فالتطور الواعي لا الأعمى هو الذي يحكم العالم. لقد اعتبر هيغل أن وضوح الوعي، يفرضه إدراك المطلق في (الجدل) فيكون سببا للتطور المقترن بالحرية، أما نيتشه فاعتبر الأنانية، هي التي رفعت الإنسان من الحيوانية، وستوصله إلى (الكمال) الأعلى، مقترنة بإرادة القوة. إن النزعة الصوفية واضحة المعالم لدى كلا الفيلسوفين، فعند هيغل تشخصت (بوحدة الوجود الكونية) وعند نيتشه في حديثه عن المعنى الإنساني الذي يشمل العالم أجمع، وذلك ما تلخص بدعوته إلى الإنسان السامي الذي يشمل التلقائية لا العقل المجرد ولقد ظهر لنا تصوفه جليا في «هكذا تكلم زرادشت» لكنه تصوف معلق بالأرض ممجداً للحياة الحسية.

ثالثا: الحتمية: عند هيغل تمثلت في حكم الظروف للمرحلة التاريخية الواحدة التي تكون بالضرورة سببا في ظهور المرحلة التاريخية اللاحقة. أما عند نيتشه

فتشمل كل المراحل التاريخية التي تحكمها قوانين متشابهة، تلك القوانين التي رفضها هيغل كما رفض فكرة (الدور) و (العود الأبدي) التي وجدناها عند نيتشه.

رابعا: الغائية (الهدفية) سمة جلية في حركة المطلق عبر مسيرة التاريخ إلى أن يتحقق بالفعل: عند هيغل أما نيتشه، فمسيرة التاريخ تنتهي بانبثاق (السوبرمان) وانتهاء الصراع بين الطبقات. وكلا الفيلسوفين، واجها صعوبات في التوفيق بين (حركة) التاريخ و (توقفه). لقد واجه هيغل صعوبة التوفيق بين قوله بديناميكية التطور الجدلي، وجبرية المنهج المنطقي الذي يصل إلى نقطة النهاية في (المطلق) ومثل ذلك يقال عن قوانين الصراع الطبيعية التي تنتهي بالسوبرمان. عند نيتشه.

خامسا: التفاؤلية: يتجه التاريخ الهيغلي محكوما بمنطقه وجهة تفاؤلية تسمو دائما نحو المطلق، على خلاف نيتشه الذي يتشاءم في تحريه لتاريخ الصراع. ولقيم عصره، مع أن فكرة (السوبرمان) تبقى ذلك العزاء الذي حاول به هذا الفيلسوف أن يحله بديلا عن (الإله).

سادسا: المثالية الخالصة: نلحظ في فلسفة هيغل منطقا مثاليا خالصا حافظ عليه هذا الفيلسوف حتى في تفسيره للتاريخ على خلاف نيتشه الذي سحب القوانين الطبيعية (البيولوجية) التي تحكم عالم الأحياء، كقانون الانتخاب الطبيعي والبقاء للأقوى، والصراع من أجل البقاء، وغيرها من قوانين قالت بها المدرسة الداروينية التطورية، ليطبقها على المجتمع الإنساني دون حساب للعقلانية التي ميزت الإنسان عن غيره من الكائنات، بمعنى أن نيتشه لم يدرك مسألة (الوعي) التي اعتبر هيغل تطورها، علامة تقدم خلاق يتجه نحو آفاق رحبة، تنتهي إلى مثالية (الاتحاد بالمطلق).

لقد أخلص هيغل إلى مثاليته حتى نهايتها، أما نيتشه فبقي متذبذبا بين حسية فجة ومثالية متطرفة، فلم ينحدر هيغل إلى التطورية الميكانيكية التي

سقط فيها نيتشه. بل ميز بين القوانين البيولوجية، وقوانين مجتمع الإنسان. لذلك تحدث عن الطبيعة العضوية باعتبارها تقع خارج التاريخ، لأنها مجرد تكرار وترتيب آلي وهذا ما نظر إليه نيتشه معكوسا، حيث قال «بالعود الأبدي» وسحب المجتمع الإنساني إلى حظيرة المجتمع «البيولوجي» ليتلاشى فيه، بمعنى أنه جعل الإنسان يحتمي بعالم الأحياء الدنيا، ثم يتكلم عن (السوبرمان).

سابعا: دور العقل: العقل في التطور التاريخي الإيجابي محور (الجدل) عند هيجل، أما نيتشه فالدافع «إرادة القوة» المقترنة بالحرية الفردية للسيد الأرستقراطي. إن هيغل لم يسقط الحرية من حسابه في تطور وعي الإنسان كما لم يسقط الانفعالات الشخصية، لكنه اشترط تهذيبا على قاعدة التوفيق بين (الأنا والنحن) العقلانية.

ثامنا: نشأة الحضارات: عند هيغل خاضعة لمنطق (جدلي) علاماته انبثاق الوعي وتجليه في الطبيعة، على شكل نشاطات تنسجم والروح الكلية (المطلقة) متجسدة على شكل جزئيات لا تخرج عن حتمية المنطق، أما عند نيتشه، فتنشأ الحضارات بفضل جهود فردية قامت بها «حيوانات شقراء مفترسة» هي مجموعة الأرستقراطيين السادة.

تاسعا: فكرة الصراع عند هيغل تحكم كل شيء، لكنها تنتهي إلى التوافق في (المركب) والتي استعارها نيتشه حيث طبقها على التاريخ ووصل إلى ذوات الغايات النهائية في حركة التاريخ (السوبرمان) وانتهاء الصراع حيث كان المنطق الجبري وسيلة الأول والقوانين الطبيعية أداة الثاني.

عاشرا: فكرة الأدوار (الزمنية) خيط فكري يمتد من بلاد وادي الرافدين وقولهم في «الشر» وخصوصا عند «هرمس البابلي» ثم انتقلت إلى هيراقليطس في «السنة الكبرى».

ثم هيغل في (الأدوار اللانهائية) وأخيرا نيتشه في «العود الأبدي».

الحادي عشر: العالم والحياة: وجدنا هيغل لا يؤمن إلا بحياة واحدة، وعالم

وحيد! أما نيتشه فقال بتكرار الحيوات (بالعود الأبدي) لكنه رفض وجود عالم آخر غير عالمنا.

الثاني عشر: مراحل التاريخ، التي لا تخلو من الصراع:

عند هيغل هي ثلاث، (الفرد) الحر الحاكم في الممالك الآسيوية، والقلة الحاكمة (الحرة) في الجمهوريات اليونانية والرومانية و «الأمة الجرمانية» ذات الثقافة المنتقاة من المسيحية والفلسفة. أما جدلية الصراع بين السادة والعبيد عند نيتشه فتتضمن تفصيلا أكثر، في مراحل «القوة» و «الكثرة» حيث بدأت بالأولى لتنتهي في القرن التاسع عشر بالثانية مع أنه وعد بالسوبرمان الذي يكمن في رحم الأمة الجرمانية.

وفي تحرينا الدقة لمسيرة ذلك التاريخ، نجد أن هيغل يعتبر أن تاريخ العالم ماهو إلا صراع وتناقضات واصطدامات، أما فترات السعادة والتناغم وغياب التناقضات فليست فترات تاريخية. على خلاف نيتشه الذي تشخصت تشاؤميته في القول بسيطرة العبيد على معظم التاريخ.

الثالث عشر: النشاط الإنساني: عند هيغل يتم داخل حركة التاريخ، وجدلية العقل والمادة، وفق قوانين لا يمكن الإفلات منها، والأهداف الخاصة للشخصيات التاريخية. تكمن في إدراكها لإرادة الروح، وانسجامها مع قوانين الدولة والمجتمع الكوني، أما عند نيتشه فتعتمد على أساس (الأنانية) و (القوة) والبطش فالسوبرمان، فوق كل القيم والقوانين والناس والأخلاق والمؤسسات، إنه إنسان فوضوي، يجسد أخلاق الأرستقراطيين بكل مواصفاتها الاستعلائية. وهذا يناقض ما قاله نيتشه حول القوانين الطبيعية وضرورة الانقياد لها.

ويبدو لنا في نهاية المطاف اتفاق في الموقف بين كلا الفيلسوفين، حينما أكد هيغل على توافق سلوك الإنسان مع قوانين العقل المطلق، ومع الطبيعة عند نيتشه وبذلك وقعا في فخ الجبرية، دون أن يجدي - اشتراط الحرية - نفعا فالمطلوب طاعة الأخلاق الموضوعية في الدولة عند هيغل وتحقيق الفردية المتزمتة (الأنانية) عند نيتشه، مقترنة بـ «خضوع» الأكثرية.

الرابع عشر: إهمال تراث الشرق الحضاري : حيث وجدنا كلا من هيغل ونيتشه يبدأ كل منهما في حديثه عن حضارة اليونان بما يوحي وكأن الأمم السابقة عليهم كانت متخلفة، وتاريخها كان عقيما وبذلك أسقطا منجزات حضارية في منتهى الأهمية لأنهما أحاطا بها نظرة «أوربية» متعصبة وعنصرية. وإن أعلن نيتشه تجاوز أوربية هيغل إلى «عالمية» السوبرمان، لكن ذلك لن يغير من المحصلة النهائية لمجمل النظرتين.

الخامس عشر: الموقف من المسيحية كفكر ومرحلة: المسيحية النقية عند هيغل المقترنة بالصواب مع ما جاء به الفلاسفة تمثل لنا «الثقافة الجرمانية» الحقيقية الصالحة لمجتمعه، المجلية لوعي أوسع والمجسدة للروح الكلية. كما تجسد في ثالوثها وطبيعة السيد المسيح. الجدل الهيغلي بصورة واضحة أما عند نيتشه فالمسيحية مرحلة سقوط لأنها تمثل أخلاق العبيد هاجمها، كما هاجم السيد المسيح.

إن النقطة المشتركة بين كلا الفيلسوفين هي في مهاجمة المسيحية كما عرضها الكهنوت، وما تركته من تطبيقات تحكمت فيها مشيئة الآباء من أجل كسب ود الحكام.

السادس عشر: الموقف من نابليون: مع أن الفيلسوفين يفيضان إخلاصا للأمم الجرمانية، وجدناهما يشتركان في تبجيل نابليون، لكن هيغل نظر إليه كرجل تاريخ من الطراز الأول، واع لمرحلته، مدرك للمهمة التي فوضتها الفكرة المطلقة إليه، أما نيتشه فنظر إليه على أنه قوي لا يعرف الرحمة.

السابع عشر: المسألة القومية: حظيت هذه المسألة باهتمام متفاوت من كلا الفيلسوفين، وبين أيدينا ما يؤيد شعورهما بالانتماء الجرماني فقال هيغل «بالثقافة الجرمانية» علاج أمراض العصر الهيغلي، لكونها متفقة مع اختبارات (الروح) التي كانت ترفض بقاء النظام الإقطاعي في ألمانيا، ووجدت في نابليون، منفذا لهذه الرغبة. أما نيتشه فاعتبر «الأمم الجرمانية» واحدة من تطور التاريخ

الإنساني وانتصار قيم السادة، التي كادت تنهض مجددا ـ بعد أن هددتها قيم العبيد في الثورة الفرنسية ـ على يد نابليون، الذي كان هو الآخر، علامة من علامات قيم السادة في أوربا، ولا نجد أي مبرر للملاحظة التي أوردها نيتشه في ملحق «هكذا تكلم زرادشت» من أنه كان يتمنى لو كتب «إرادة القوة» بالفرنسية لا الألمانية لكي لا يؤدي إلى أي طموح دولي ألماني، خصوصا والأمة قد حققت وحدتها. مع كل ذلك تبقى أطروحات «هيغل» حافزا لطموح دولي، ألماني حاول بسمارك ثم هتلر أن يكونا بعض علاماته.

الثامن عشر: فكرة الشعب المختار: عند هيغل عبارة عن عملية تزييف للوثائق التاريخية، أما عند نيتشه فهي معادلة تتحقق بموجبها الملاءمة بين الرجال وزمانهم، ورفض من يفشل في تحقيق تلك الملاءمة من الآخرين.

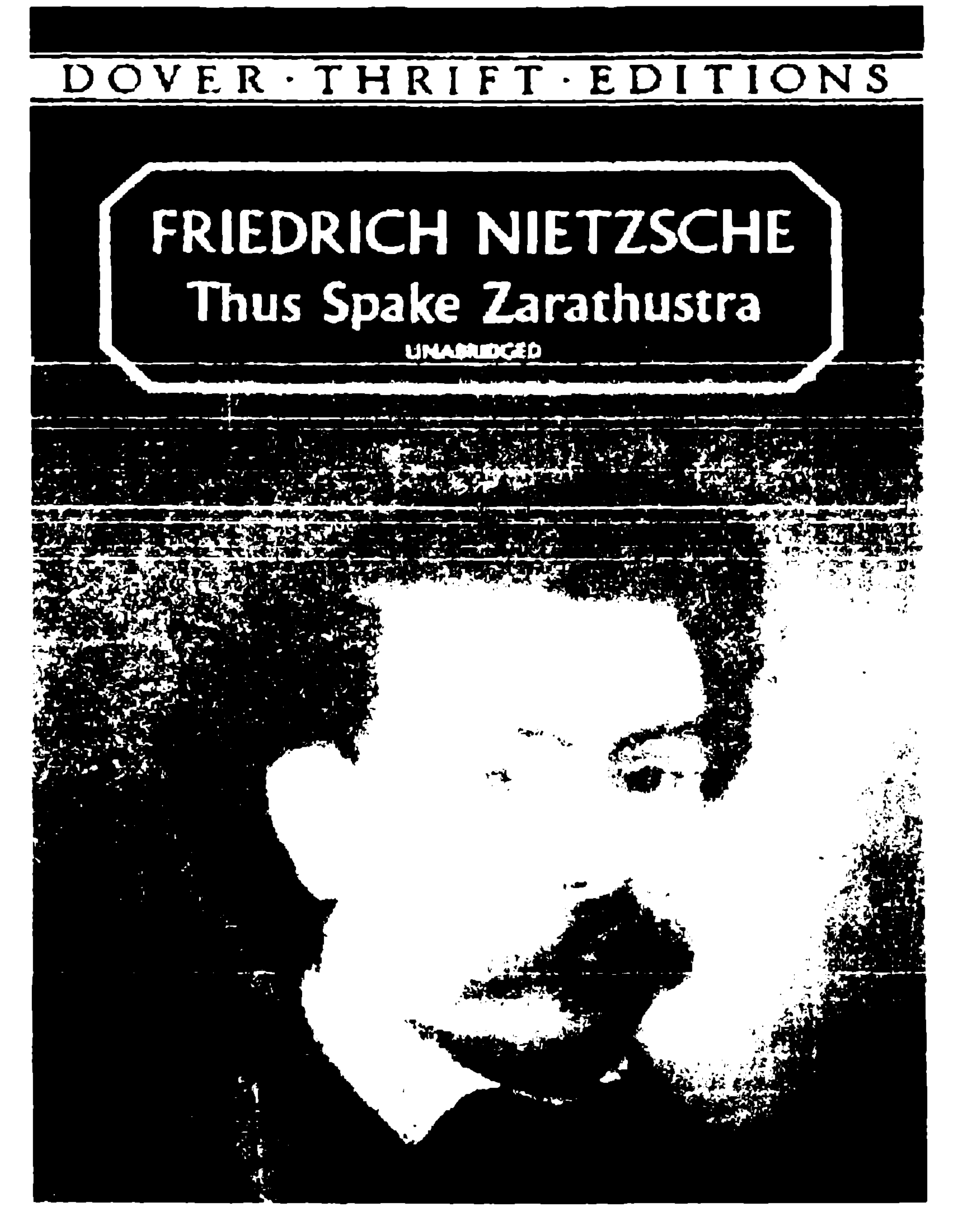
13

الفصل الثالث عشر
أشهر مؤلفات نيتشه



(١)

هكذا تكلم زرادشت



يعتبر كتاب «هكذا تكلم زرادشت» ١٨٨٣ من أشهر كتب نيتشه، بل والأعظم من بينها. فقد كتبه بأسلوب أدبي - نقدي رفيع المستوى، جمع بين النثر والشعر والموسيقى، وصاغ فيه أفكاره «الجهنمية» وصور نموذج الإنسان المتفوق، الخارق للعادة (السوبرمان) الذي رآه متحرراً من القيود الاجتماعية والأخلاقية، مثل إنسان عصر النهضة الذي تجرأ على أن يعيش حياة تتفق مع مصيره الأعلى، وكانت معرفته هي الشكل الظاهري لإرادة القوة التي هي هدف الحياة.

والواقع أن نيتشه في هذا الكتاب كان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً، إذ قال عنه الأديب الألماني الكبير توماس مان بأنه «أفضل ما كتب باللغة الألمانية». كما قال عنه نيتشه نفسه «لقد أوصلت اللغة الألمانية إلى ذروة كمالها». وفي هذا الكتاب كسر نيتشه جميع الحواجز التي وقفت أمامه وحطم الإيمان بالحقيقة المطلقة والقيم الإنسانية. ومما قاله: «ليس هناك وجود مطلق وإنما وجود يتكون، وليس هناك تجديد لا نهائي وإنما عودة أبدية، مثل الساعة الرملية الأبدية للوجود التي تعيد دورتها باستمرار، ولا يحتاج الإنسان فيه إلى شعور رقيق، لأن كل المبدعين يجب أن يكونوا أقوياء الإرادة».

هكذا يمجد نيتشه القوة وإرادة القوة، وبدل العقل والعقلانية جعل الجسد هو العقل الأكبر، وأن اللاعقل هو المصدر الأصل، «ففي كل مكان يكاد يكون الجنون هو الذي يفتح الطريق أمام الفكر الجديد، وعلى البشر أن يحققوا أهدافهم الكلية. والإنسان المتفوق (السوبرمان) هو الذي يستطيع تحقيق الأهداف والارتفاع إلى مستوى الحب القدري»، وبهذا جعل نيتشه الإنسان «كمؤدب» للإنسان، ومن يستطيع تحقيق الأهداف عليه أن يعرف «أنه يحتاج إلى أسوأ ما فيه إذا أراد أن يصل إلى أفضل ما فيه». وهو بهذا لا ينادي بتحرير الغرائز بقدر ما يريد إضفاء الصبغة الروحية عليها وتحويل الطبيعة إلى عمل فني والعودة إلى

الأبدي. يمثل نيتشه في الواقع نزعة عدمية بأحلك صورها، فهو يقول بأن الحقيقة والكذب يوظفان دوماً من أجل الكائن المتفرد، كما أن الحقيقة والوعي والعقل والموضوعية والأخلاق، وكل ما على الأرض في هذا الزمن، إنما يبرهن، خطوة فخطوة بكونه تدهوراً، مجرد «خشبة عمل» أمام قرف الحياة. وأمام هذا العجز والإحباط ليس هناك من مخرج سوى «تحرر الأنا والدخول في نيرفانا الفناء».

وبعد عشر سنوات من العزلة والتأمل وحيداً فوق جبل يستيقظ زرادشت سعيدا ممتلئاً بالحكمة يخاطب قرص الشمس قائلا له «أيها النجم هل لو لم يكن لك من تنيرهم أكانت لك كل هذه السعادة؟» يقارن زرادشت بينه وبين الشمس ومثل ذلك النجم الذى يهب للآخرين الدفء والنور منحدرا نحو الأفول فإن زرادشت قرر النزول ليهب حكمته للبشر. فى طريق انحدار زرادشت يقابل ناسكا منعزلا، يتعرفان على بعض، حيث إن الناسك يتذكر مرور زرادشت عندما كان صاعدا منذ عشر سنوات. يدور بينهما حوار نفهم منه أن الناسك يكره البشر جدا ويجد الإنسان كائنا معيبا ناقصا لذلك هو يحب الله بينما زرادشت يعلن حبه للإنسان. يحذر الناسك زرادشت من ألا يعطى الآخرين شيئا من حكمته حيث إنهم لا يثقون بالنُساك ويرتابون فيهم كما لو كانوا لصوصا. وفى نهاية حديثه يسأل الناسك زرادشت ومع ذلك دعنا نرى ما الذى معك، هنا يعترض زرادشت «وماذا أستطيع أن أمنحك، دعنى أمضى سريعا كى لا آخذ شيئا منك».

بعد أن يترك زرادشت الناسك يسأل نفسه: «ألم يعلم هذا الناسك فى عزلته أن الإله قد مات؟» !! .

لابد أن نقوم بالتأويل لمفرادت الصورة النيتشوية حتى تتضح أفكاره فى هذا الضوء:

- الجبل رمز للصعود غير المفارق، فهو أعلى نقطة فى الأرض ولكنه لا يبارحها، الاقتراب من السماء، أى السمو بما هو أرضى ليعلو عن المسطح (إثبات

التراتب الذى يظهر واضحا فيما وراء الخير والشر) ولكنه لا يفارق المحايث، فهو رفض لأى متعالٍ مفارق.

- العزلة هى البوتقة التى تتضح فيها وبها الحكمة، وهى رفض لكل ما هو سائد والبحث عن قيم جديدة جذريا.

- النجم، هو الحكيم، من يخط قيماً جديدة للبشر، وهو كالشمس عطاء بلا حدود، يمنح وفى هذا فقط سعادته.

- الناسك، اللاهوتى، رجل الدين، الفيلسوف صاحب أية منظومة مثالية متعالية كل من يتكلم باسم المطلق.

يعد إعلان موت الإله!! هو أهم بشرى للعالم الحديث، فهو يختلف جذريا عن مفهوم الإلحاد الكلاسيكى. أى أن نيتشه لم يكرر قول الملحدين الذين سبقوه، وهو أن الله غير موجود فقط. لا. وإنما الإعلان النيتشوى يحدد أن صلاحية مثل هذه الفكرة واقعيا قد انتهت. فإنسان العالم القديم العادى كان يرى العالم بمنظور أسطورى وسحرى. والفيلسوف القديم كان يرد الكثرة كلها للواحد عبر ذهنوية مثالية. أما إنسان العالم الحديث فحتى فى حياته اليومية ينظر للعالم ويفهمه عبر سلسلة السبب والنتيجة (أى من حيث الجوهر هو ليس فى حاجة لفكرة الله على الإطلاق) بينما الفيلسوف لم يعد يستطيع أن يرد كل هذه الكثرة لأصل واحد فقد أدرك أن هناك هوة ما بين العالم من جهة وتمثلاته الذهنوية (مقولات العقل المجرد) من جهة أخرى. لذلك انتهى وهم العوالم الماورائية تماما.

التبشير بالإنسان الأعلى

يصل زرادشت للساحة العامة حيث يجد جمعاً كبيراً من الناس فى انتظار بهلوان يسير من فوق حبل مشدود إلى قلعتين. يستغل زرادشت تجمع الجماهير فى إعلان البشرى إليهم، يبدأ قائلا (إننى أعلمكم الإنسان الأعلى. الإنسان شيء لابد من تجاوزه، فما الذى فعلتم كى تتجاوزوه؟ كل الكائنات حتى الساعة تبدع

أشياء فوق منزلتها، وأنتم أتريدون أن تكونوا حركة الجزر في هذا التدفق العظيم فتفضلوا العودة إلى منزلة الحيوان على مجاوزة الإنسان؟

ما القرد بالنسبة للإنسان؟ أضحوكة أو موضوع خجل أليم، كذا يجب أن يكون الإنسان بالنسبة للإنسان الأعلى: أضحوكة أو موضوع خجل أليم.

لقد سلكتم الطريق الطويل من الدودة إلى الإنسان لكنكم مازلتم تحملون الكثير من الدودة في داخلكم. كنتم قردة ذات يوم، وإلى الآن لايزال الإنسان أكثر قردية من أي قرد).

(انظروا إنني أعلمكم الإنسان الأعلى! الإنسان الأعلى كنه الأرض. فلتعلن إرادتكم: ليكن الإنسان الأعلى هو معنى الأرض!).

(أناشدكم أن تظلوا أوفياء للأرض يا إخوتي؛ وألا تصدقوا أولئك الذين يحدثونكم عن آمال فوق أرضية معدوى سموم أولئك سواء كانوا يعلمون ذلك أو لا يعلمون، مستخفون بالحياة هم، محتضرون ومتسممون بدورهم، ملّتهم الحياة: فليرحلوا إذا!).

بعد أن فرغ زرادشت من كلامه صرخ واحد من الجماهير «كفانا كلاما عن البهلوان، ودعونا الآن نراه» وإذا بالجماهير كلها تضحك ساخرة من زرادشت يخرج البهلوان ماسكاً عارضة التوازن وسائرا ببطء فوق الحبل، بعد قليل يخرج من القلعة مهرج ويسير على الحبل مسرعا وهو يصرخ في البهلوان تقدم أيها الأعرج، ما الذي تفعله هنا؟ لماذا تسد الطريق عمن هو أفضل منك؟» ولما يقترب المهرج من البهلوان السائر أمامه على الحبل، يقوم بقفزته الخطيرة من فوق خصمه، يرتفع عاليا في الهواء لينزل على الحبل مرة أخرى أمام البهلوان الذي أصابه الرعب حينما رأى خصمه تفوق عليه فرمى عارضة التوازن وسقط منسحقا على الأرض.

تأويل مفرادت الصورة

ـ الحبل: هو خط مسار التطور الحيوي (من الدودة!! إلى الإنسان الأعلى).

- البهلوان: هو الإنسان الأخير الذى يريد أن يقف فى مسار هذا التطور.

- المهرج: الإنسان الأعلى (المتفوق) الذى يستهين بالخطر، والذى سيأتى عبر قفزة (طفرة؟) على الإنسان الأخير الذى يعوق مسيرة التطور.

تعد فكرة الإنسان الأعلى هى البديل الذى يقدمه نيتشه للفراغ الذى خلفه موت الله!! فغياب الله يطرح مسارين هبوطا أقصى، وصعودا أقصى. المسار الأول يتخذه الإنسان الأخير وهو الذى ينحط بغرائز القوة فى داخله (الإنسان الأكثر حقارة ذلك الذى لم يعد قادرا على احتقار نفسه) لأنه لا يأمل بتجاوز الصورة التى هو عليها، والذى يعنى موت الله فقط عنده هو زوال الفكرة العقابية!! فيعيش كالطفيليات على الحياة. أما الصعود الأقصى فهو المسار الذى يتخذه الكائن الذى أدرك أنه حر فى هذا الوجود وأنه بالضرورةمسؤول إزاء هذه الحرية والذى يدرك أنه معبر، جزء من دفق التطور العظيم نحو أن يتخذ الكائن الإنسانى نفسه موقعه كمحطة على الطريق للإنسان الأعلى.

وليس الإنسان الأعلى هو نفس هذا النوع الذى نعرفه ولكن أرقى جسديا وفكريا كما فهم البعض خطأ، وإنما هو نوع جديد جذريا فى مسيرة التطور فالعبارة التى تتكرر طوال الكتاب واضحة: (الإنسان شيء لا بد من تجاوزه).

قال في الإلحاد

أحب الغاب، فما تسهل حياة المدن علي وقد كثر فيها عبيد الشهوات الثائرات. إنك إذا ما تفرست في رجال المدن، لتشهد لك نظراتهم بأنهم لا يرون في الأرض شيئا بفضل مضاجعة المرأة. في أغوار أرواحهم ترسب الأقذار، وأشقاهم من تمرغ بأقذاره.

اللــذة والشــهوة

لتكن فضيلتك أسمى من أن تستخف بالأشياء عند تحديدها، وإذا ما اقتحمت هذا التحديد، فلا تستح من أن تلفظ به تمتمة، فقل وأنت تتمتم:

- إن هذا هو خيري الذي أحب، إن هذا ما يثير إعجابي،فأنا لا أريد الخير إلا على هذه الصورة، لا أريد هذه الأشياء تبعا لإرادة إله ولا عملا بوصية أو ضرورة بشرية، فأنا لا أريد أن يكون لي دليل يهديني إلى عوالم عليا وجنات خلود.

قل: ما أحب سوى فضيلة هذه الأرض، لأن ما فيها من الحكمة قليل، وأقل منه هو صواب متفق عليه، إن هذا الطير قد بنى عشه على مقربة مني، لذلك أحببته وعطفت عليه، وها هو ذا الآن يحتضن عندي بيضه الذهبي، على هذه الوتيرة تكلم وأنت تتم ممتدحاً فضيلتك.

هنا تكمن عظمة الفضيلة،أن لا تعملها لتجاهر بها، ولا طوعا لأمر إلهي (هنا وقع قراء نيتشه بخطأ فادح إذ اعتبروا ما ذكره دعوة للإلحاد...!) يقول بعضهم إنها دعوة لنا لنتربع على قمة الإيمان، نعم إنها قمة الإيمان أن تفعل الفضيلة بأمر ذاتي صادر عن روح تواقة لفعل الفضيلة لأن فاعل الفضيلة الحقيقي لا يعمل بها تنفيذاً لوصية وصي ولا بالضغط على الريموت كنترول.. بل يفعلها لأنه يراها الصواب الذي يتوافق مع طبيعته بعيداً عن الضجيج والاضطراب النفسي.

تكلم نيتشه عن المراقبة الذاتية في أكثر من محور.. وقال:

إياك أن تقف حائلا بين فكرتك وفعلك وبين ما يناسبهما، فلا يبلغ أول درجة من الحكمة من لا يعمل بهذه الوصية من المفكرين،وقد عرض علينا الفضيلة بالتعامل مع محيطنا بعيداً عن الأهداف القذرة والمطامع في رد هذه الفضيلة،علمنا كيف نتصاحب مع محيطنا والأشياء التي نتعامل معها، وكيف نحب الطيور وأشار لأهمية دورها وفضيلتها بحياتنا.

وفي القراءة والكتابة قال:

اكتب بدمك فتعلم حينئذ أن الدم روح، وليس بالسهل أن يفهم الإنسان دما غريبا، إن من يكتب سوراً بدمه لا يريد أن تتلى السور تلاوة، بل يريد أن تستظهرها القلوب. ومن توصل بأقدامه إلى طرد الأشباح لا يصعب عليه أن يخلق من الجن له أتباعا. وقال لمن يكتبون بعاطفة:

إن السحب المتمخضة بالعواطف لهي سحبكم السوداء الثقيلة وأنا أهزأ بها..

((لقد خان نيتشه التعبير هنا.. لأن السحب السوداء الثقيلة محملة بالمطر الغزير.. تماما كما خانه المنطق وعمق النظرة عندما قرر وجوب القضاء على الصعاليك والضعفاء في المجتمع والبقاء على المتفوقين فقط، ولو أن المجتمع عمل بهذه النظرية لما كان نيتشه الشاعر والفيلسوف المتفوق.. لأنه ابن لرجل همشري وأقل من عادي)).

في الرحماء:

إن طالب المعرفة يرى الإنسان حيوانا له وجنتان حمراوان، ولم يره هكذا؟ أفليس كثيرا ما علته حمرة الخجل؟

وقال:

إذا أساء إليك نفر من الناس فقل له: إنني أغفر لك جنايتك على ولكن هل يسعني أن أغفر لك ما جنيته على نفسك بما فعلت!.

علينا إذا أن نكبح جماح قلوبنا كيلا تجر عقولنا معها إلى الضلال،لأن ظلمنا لا ينزل بمن تنفر منهم أذواقنا بل يسقط على من لا يعنينا أمره.

وقال:

يفرض الرجل النبيل على نفسه ألا يلحق إهانة بأحد لأنه يستحي جميع المتألمين.

((الملفت أن نيتشه كان لا يختلف عن بقية أفراد مجتمعه الذكوري آنذاك. فقد كان يخاطب الرجال فقط.. ولا مكان للنساء في عقله.. وإلا كان يتوجب عليه استبدال كلمة الرجل النبيل بالإنسان النبيل.لأن النبل لا يقتصر على الرجال فقط..!)).

قال في الكهنة:

وتمثل زرادشت مرور رهط من الكهنة أمامه فقال لأتباعه:

هؤلاء هم الكهنة، فعليكم ـ وإن كانوا أعدائي ـ أن تمروا أمامهم صامتين وسيوفكم ساكنة في أغمادها، فإن بينهم أبطالاً ومن تحملوا شديد العذاب فهم لذلك يريدون أن يعذبوا الآخرين. إنهم لأعداء خطرون، وما من حقد يوازي ما في جوانحهم من ضغينة وقد يتعرض من يهاجمهم إلى تلطيخ نفسه، لكن بيني وبينهم صلة الدم وأنا أريد أن يبقى دمي مشرفا حتى في دمائهم.

هنا يصل نيتشه لكل قارئ حسب طبيعته وشخصيته.. فمن يكفر بالكهنة سيعتبر هذا القول عداء للكهنة بشكل عام. وهذا الفهم خاطئ جدا وينفي صحته الاسم الذي أشار به زرادشت إلى رهط من الكهنة بهذه الجملة ((تمثل زرادشت مرور رهط من الكهنة أمامه فقال لأتباعه)) ولو أنه لم يحدد لاعتبرنا الكهنة أعداء لهم.. وهذا لا يعنيني شخصيا لأن نيتشه إنسان يخطئ ويصيب وما يقوله ليس مُنزَّلا.

أما أنا فأخذت ما يفيد بقوله:

.. إنهم لأعداء خطرون، وما من حقد يوازي ما في جوانحهم من ضغينة وقد يتعرض من يهاجمهم إلى تلطيخ نفسه، لكن بيني وبينهم صلة الدم وأنا أريد أن يبقى دمي مشرفا حتى في دمائهم.

((لكن بيني وبينهم صلة الدم وأنا أريد أن يبقى دمي مشرفا حتى في دمائهم)).

نيتشه ـ هنا ـ يؤكد على رابطة الدم التي نسميها في الإسلام صلة الرحم ولا يجوز قطعها.

في الموت

يقول عالم عن موت الله !! عند نيتشه بأن الملاحدة العرب أساؤوا فهمها، فهو كان يقصد موت الله الكنسي، بمعنى موت تشريعات الكنيسة القروسطية.

زرادشت يعلم الناس أن يموتوا في الزمن المناسب، ولكن أنّى لمن يعرف الحياة أن يتخير الموت في أوانه؟

الميتة الاولى: اعلموا أن لا ظفر لمن يموت إذا هو لم يبارك ما أقسم الأحياء بإتمامه.

الميتة الثانية: ميتة من يسقط بالمعركة وهو ينشر عليها عظمة روحه.

فما أجمل ميتتي إن أنا تخيرتها فجاءتني لأنني أطلبها.

في الطفل وحامل المرآة:

تكلم زرادشت عن خوف الإنسان من وجهه الحقيقي.. حين أفاق يوما من نومه قبل انفلاق الفجر مذعورا من الحلم.. حيث رأى ولداً «يحمل مرآة» يطلب منه أن ينظر في المرآة، انظر في هذه المرآة يا زرادشت:

وما نظرت إليها حتى صرخت وخفق قلبي خفوقا شديدا، لأن ما انعكس فيها لم يكن وجهي.. بل كان وجها تقطبت أساريره بضحكة شيطان ساخر. وقد اعتبر هذا الحلم تنبيهاً إليه، بأن تعاليمه مشرفة على خطر!!

في الحكومة وحكامها

لم يزل في بعض الأماكن من الأرض شعوب وجامعات، أما نحن فليس عندنا سوى حكومات وما أدراكم ما هي الحكومات؟

فما كون الشعوب إلا المبدعون الذين نشروا الإيمان والمحبة، فأتوا بأجل خدمة للحياة، وما الناصبون الأشراك للجموع الغفيرة إلا من يهدمون كيانها ليشيدوا الحكومات على أنقاضها ويعلقوا نصلا قاطعا فوق رأس الشعب، وينصبوا مئات الشهوات أمام عينه.

الوغـــــد

ما الحياة إلا ينبوع مسرة، ولكن إبان شرب الوغد فهنالك جدول مسموم. أحب كل ما هو نقي، ولكنني أحتمل رؤية الأفواه تتثاءب معلنة ظمأ الأرجاس، وقد جاؤوا يسبرون أعماق البئر بأنظارهم فانعكست في قرارتها ابتسامتهم الشنعاء توجه سخريتها إليّ.

لقد دنسوا المياه المقدسة بأرجاسهم، وما تورعوا فدعوا أحلامهم القذرة سروراً فدسوا سمومهم حتى البيان.

وقال عن الأوغاد:

«إذا ما دحجوا بأنظارهم الأشجار المثمرة فإنها تجف على أعراقها»

تكلم عن الانتصار على الـذات

ليست إرادة الحق في عرفكم أيها الحكماء إلا تلك القوة التي تحفزكم وتضطرم فيكم، تلك هي إرادتكم التي أسميها أنا «إرادة تصور الوجود» فإنكم تطمحون إلى جعل كل موجود خاضعا لتصوركم، وأنتم تحاذرون بحق أن يكون هذا الوجود قد أحاط به التصور من قبل فتريدون أن تخضعوا لإرادتكم كل كائن لتتحكموا فيه بالصقل ليصبح مرآة تنعكس عليها صورة العقل، هذا ما تطمحون إليه، يا أحكم الحكماء، وتلك هي إرادتكم تجاه القوة والخير والشر وتقدير قيم الأشياء.

الصـــديق

يقول المنفرد في نفسه «لا أطيق وجود أحد بقربي» ولكثرة ما يقف محدقا في ذاته تظهر التثنية فيه، ويقوم الجدال بين شخصيته وبين ذاته فيشعر بالحاجة إلى صديق، وما الصديق للمنفرد إلا شخص ثالث يحول دون سقوط المتجادلين إلى الأغوار كما تمنع المنطقة المفرغة غرق العائمين.

قال في الطفل والزواج:

ليس عليك أن ترسل سلالتك إلى الأمام فحسب،بل عليك بخاصة أن ترفعها إلى فوق،فليكن عملك في حقل الزواج منصباً إلى هذه الغاية:

عليك أن تجد جسداً جوهره أنقى من جوهر جسدك ليكون حركة أولى وعجلة تدور لنفسها على محورها، فواجبك إذاً هو إبداع من يبدع.

الزواج اتحاد إرادتين لإيجاد فرد ذي إرادة يفوق من كانا على وجوده والزواج

حرمه متبادلة ترسو على احترام هذه الإرادة والمقصود بها إرادة الطفل. واعتبر أن زواج المسكنة زواج الأغبياء والدخلاء على البشرية.

تعليق:

في موضوع الزواج أبدع نيتشه في قوله... وسأقف عند زواج الأغبياء والدخلاء على البشرية.. من هم .. وأين هم في مجتمعنا؟

. إن هذا هو خيري الذي أحب ، إنه هذا ما يثير إعجابي ،فأنا لا أريد الخير إلا على هذه الصورة، لا أريد هذه الأشياء تبعا لإرادة إله ولا عملا بوصية أو ضرورة بشرية، فأنا لا أريد أن يكون لي دليل يهديني إلى عوالم عليا وجنات خلود!! ..

(٢)
كتاب أفول الأصنام

أفول الأصنام كتاب مهم لكل باحث ومتبحر في العلوم الفلسفية والسياسية يطرح مواضيع «العقل»، «العالم»، الأخلاق، «الأخطاء» وغيرها على بساط البحث هذا الكتاب هو رائعة نيتشه ومَكْمَن عبقريته.

ففي عصر طغت فيه سيطرة الكنيسة وعبادة الأوثان البشرية ذات النزوع السلطوي، وكثرت فيه الفلسفات الماهوية وأنماط فكرية تنشد الوحدة والثبات والانسجام وتلغي التعدد والفوارق والاختلاف الذي يتوسط الهوية، وتتغنى بالمطلق والكلي والشامل نما صوت من أسماء رواد الفكر الفلسفي المعاصر، فكر شديد اللهجة النقدية ورادع الثوابت. وصف أسلوبه بالمطرقة، فكان طبيب الحضارة وطفرة لا تعيد نفسها في التاريخ. ومهما قيل عن نيتشه ففلسفته لا تخلو من ثغرات بحيث تتعدد نوافذ النقد فيها إلا أنها تبقى بالرغم من جميع ما قيل بخصوصها شاهدة على عبقرية إنسان لم يشهد تاريخ الفكر له نظيرا.

وهذه إحدى رائعاته الخالدة.

إن الفهم الأمثل لمحتويات الكتاب يتجلى في تفعيل النشاط الذهني الميطامعرفي، أي فهم السياق العام للخطاب النيتشوي. فأحيانا يقول نيتشه كلمات لا تحيل إلى معنى متداول وتفترض أكثر من تأويل. والذي يفسر الأسلوب النيتشوي أنه خطاب يعيد الاعتبار لما هو وجداني على حساب ما هو عقلاني. لذلك كان نيتشه نداً للعقلانية خصوصاً العقلانية المطلقة التي مَثَّلها هرم المثالية المطلقة هيغل.

ويقول نيتشه في كتابه:

المحافظة على وقارك وسط قضية غامضة ومبرهن عليها بكل المقاييس، ليس أكيدا عودة صغيرة للقوة، ومع ذلك أي شيء أكثر ضرورة من الوقار.

لا شيء ينجح إذا لم تكن الرعونة جزءاً منه.

إن زوائد القوة لا تبرهن إلا على القوة. إن قلباً لكل القيم، هذا الاستفهام الأسود، الضخم يلقي بظلاله على من يطرحه.

هي قدر كل مهمة ترغمنا في كل لحظة للجري تحت الشمس، لخلخلة الجدّي الذي أصبح يُثقل كثيرا كاهلنا، كل وسيلة فهي صالحة، كل حدث نرحب به، فالحرب قبل كل شيء.

الحرب كانت دائما حذراً كبيراً لكل العقول المتأملة أكثر، لكل العقول التي أصبحت مسطحة أكثر.

هناك قوة للاستشفاء بالجرح ذاته هناك منذ مدّة قاعدة نظرية أُفضلها حيث أخبئ أصل اهتمامي العلمي:

«الازدياد قوّة، بما هي اخضرار».

علاج آخر ما زلت أُفضله على التوالي، يرتكز على مفاجأة الأصنام... يوجد من الأصنام أكثر مما يوجد من الحقائق في العالم: ثمة هناك «عيني الشريرة» من أجل هذا العالم، وكذلك «أذني الشريرة»... وضع التساؤلات هنا بضربات المطرقة والاستماع أحيانا كجواب هذا المشهور المجوّف الذي يتحدث عن الأحشاء المنتفخة.

- أية متعة لذاك الذي،وراء الأذنين، يمتلك أيضا آذاناً أخرى. - بالنسبة لي كعالم نفس متقدم في السن ويصطاد الفئران والذي يصل إلى استنطاق ذاك الذي يريد خصيصا الامتناع عن الكلام...

هذه المقولة كما يشير إلى ذلك العنوان - هي قبل كل شيء استراحة،قبس من

الضوء،قفزة جانبية في خمول عالم النفس.ربّما أهي حرب جديدة؟ بها ربّما نفاجئ أسرار الأصنام الجديدة؟ إن هذا الكتيب هو أكبر إعلان للحرب،وفيما يتعلّق بمفاجأة أسرار الأصنام، هذه المرة ليست آلهة العصر، لكنها أصنام خالدة التي نلمسها هنا بالمطرقة كما نفعل بالنغم، . ليس هناك في آخر التحليل أصنام قديمة جدًا، واثقة من نفسها،أكثر تعقيدا ... وليس هناك أيضا الفارغة.لايمنع هذا من أن تكون هي التي نؤمن بها أكثر،كذلك وفي الحالات الأكثر كمالاً لا نناديها بتاتاً بالأصنام...

ويقول في الكتاب:

ـ ١ ـ

الكآبة أم لكل بسيكولوجيا . كيف تحوّلت البسيكولوجيا إلى رذيلة .

ـ٢ـ

الأكثر شجاعة بيننا نادراً ما يقرر ما يعرفه حقيقة .

ـ٣ـ

لتعش وحيدا يجب أن تكون حيوانا أو إلها!! .

ـ ل أرسطو.تنقص الحالة الثالثة: يجب أن تكون الواحد والآخر،يجب أن تكون ـ ، يلسوفا .

ـ٤ـ

«ج ـع الحقائق بسيطة» . أليست هنا كذبة جديدة؟ .

ـ٥ـ

بالمرة الواحدة، هناك أشياء كثيرة لا أريد أكيداً معرفتها .- الحكمة ترسم حدودا حتّى للمعرفة .

-٦-

بما تحمل طبيعتك من توحش تُوازن من شرورك أحسن. أريد أن أقول روحيتك...

-٧-

كيف؟ الإنسان ليس سوى احتقار للإله؟! أو الإله ليس سوى احتقار للإنسان؟

-٨-

في مدرسة حرب الحياة.. ما لا يميتني يجعلني أكثر قوة.

-٩-

ساعد نفسك بنفسك:إذن العالم سيساعدك مبدأ حب الآتي.

-١٠-

لاتقترفوا أكيداً الجبن تجاه حركاتكم. لاتتركوها حاضرة بعد الوقوع. تأنيب الضمير غير صحيح.

-١١-

هل يمكن للحمار أن يكون تراجيديا؟. أن ينفق تحت حمل لا يمكن حمله ولا رميه؟... حالة الفيلسوف.

-١٢-

إذا امتلكنا كيفيته؟ من الحياة نتحكم في كل الكيفيات؟الإنسان لا يرقى إلى السعادة، ليس سوى الإنجليزي الذي يفعل ذلك.

-١٣-

الرجل خلق المرأة. ممّ إذن؟ من ضلع إلهة، . من «مثاله»...

-١٤-

كيف؟ تبحث؟ وتريد أن تُتضاعف عشر مرات؟ مئة مرة؟ تبحث عن منخرطين (مريدين)؟ - ابحث عن أصفار.

-١٥-

الرجال المُبعثون (البعديين) - أنا مثلا - أقل فهما من أولئك الدين يتشبهون بزمنهم،لكن نفهمهم أفضل، ولأعبّر بالتدقيق أيضا:لم نُفهم أبدا - ومن هنا جاءت سُلطتنا.

-١٦-

نسائيا - «الحقيقة؟ آه! إنكن لا تعرفن الحقيقة! أليست هجوما ضد حشمتنا.

-١٧-

هذا فنان كما أحبهم. متحفظ في ضرورياته: لا يطلب، إجمالا، سوى شيئين:خبزه وفنه.

-١٨-

الذي لا يعرف وضع إرادته في الأشياء. يريد على الأقل إعطاءها معنى: الشيء الذي يوهمه بأن هناك مسبقا إرادة في ذاتها (فرضية «الإيمان»).

-١٩-

كيف؟ اخترتم الفضيلة وسمو القلب (الروح) وفي نفس الوقت ترمقون بتشكك امتيازات المفضوحين؟ - لكن مع الفضيلة نتخلى عن «الامتيازات»...

(يكتب ذلك بباب اللاسامي).

-٢٠-

المرأة الكاملة تقترف الأدب كما تقترف خطيئة صغيرة: لكي تجرب،مارة، ومُلتفتا رأسها لتنظر هل هناك أحد لمحها، وقبل أن يلحظ ذلك أي أحد.

- ٢١ -

يجب التموضع في حالات لا يسمح فيها بامتلاك فضائل مزيفة،لكن، كما البهلوان على الحبل،حيث نسقط أو نتماسك جيدا،أو أيضا نترك ذلك.

- ٢٢ -

«الرجال الشرسون ليس لهم أغنيات.» من أين للروس هذه الأغنيات؟.

- ٢٣ -

«العقل الألماني» منذ ثماني عشرة سنة هو متناقض داخل المقارنة.

- ٢٤ -

بقدر ما نود البحث عن الأصول نصبح سرطانا. المؤرخ ينظر إلى الوراء؛ ينتهي به الأمر إلى الاعتقاد في الخلف.

- ٢٥ -

الإشباع يحمي حتّى من البرودة، المرأة التي تعرف كيف تلبس جيدا، هل سبق لها أن أصابها الزكام؟ أضع حالتها وإن كانت مكسوة لاكاد.

- ٢٦ -

أحتاط من كل الأشخاص ذوي أنظمة وأتحاشاهم.إن إرادة النظام هي غياب النزاهة.

- ٢٧ -

نقول بأن المرأة عميقة. لماذا؟ لأنه عندها لا نصل أبدا إلى القعر. المرأة ليست حتّى مسطحة بعد.

- ٢٨ -

عندما تكون للمرأة قيم ذكورية، يجب ألا يُعتد بها،وعندما لا تكون لها قيم ذكورية، فهي التي لاتعتد بنفسها، فهي التي تهرب.

ـ ٢٩ ـ

«كم كان الوعي سابقا يجد ما يقضم! كم كانت أسنانه جيدة! والآن؟ ماذا ينقصه؟» سؤال طبيب أسنان.

ـ ٣٠ ـ

نادرا ما نرتكب حماقة واحدة.ومع الأولى نغالي في ارتكابها كثيرا، بسبب ذلك نعيد الثانية عامة . والآن قليلا جدا...

ـ ٣١ ـ

الدودة تلتف حول نفسها عندما ندوسها، حركة مملوءة بالحكمة.إنها بذلك تقلل من حظ دوسانها من جديد،ويُسمّى هذا في لغة الأخلاق: الخنوع.

ـ ٣٢ ـ

هناك كراهية ضد الكذب والنفاق ترجع لحساسية حادة بالشرف،وهناك كراهية تشبهها تصدر عن جبن، على اعتبار أن الكذب محرم إلهيا. أن تكون أكثر جبنا لكي تكذب.

ـ ٣٣ ـ

كم من أشياء قليلة تحتاجها السعادة! صوت مزمار جلدي.. بدون موسيقى تغدو الحياة خطأ.

إن الألماني يتصور الإله ذاته ينشد الأناشيد !! .

ـ ٣٤ ـ

لايمكن أن نفكر ونكتب إلا جالسين (غ. فلوبير).. ضبطتُك هنا، أيها العدمي! ابق جالسا، تلك بالتدقيق خطيئة ضد التفكير العقلي. وحدها الأفكار التي يرد علينا منها شيء ذات قيمة.

-٣٥-

هناك حالات نكون فيها كالخيول، نحن علماء نفس «آخرين».

ينتابنا القلق لأننا نرى ظلنا الشخصي يتراقص أمامنا.على عالم النفس ألا ينظر إلى ذاته كي يكون قادرا على الإبصار.

-٣٦-

هل نُسيء للفضيلة، نحن اللاأخلاقيين الأُخر؟ . كما يفعل الفوضويون للأمراء. فهؤلاء لم يتقوا جلوسهم على عروشهم. إلا عندما استُهدفوا أخلاقيا:يجب استهداف الأخلاق.

-٣٧-

أتجري أمام الآخرين؟ . أتفعل ذلك كالراعي أو كاستثناء؟ الحالة الثالثة ستكون الهارب... الحالة الأولى للوعي.

-٣٨-

هل أنت حقيقة؟ أم أنت بهلوان؟تمثل شيئا؟أم أنك المُمَثَّل؟ في النهاية قد تكون تقليداً للممثل فقط... الحالة الثانية للوعي.

-٣٩-

اللاوهمي يتحدّث . بحثت عن رجال عظام، وما وجدت دائما سوى المُقَلِّدين لمثلهم الأعلى.

-٤٠-

أأنت من الذين يتفرجون، أم من الذين يضعون أيديهم في العجين؟-أم من الذين يحوّلون أنظارهم وينزوون جانباً؟...

الحالة الثالثة للوعي.

ـ ٤١ ـ

أتريد مصاحبة الماشين؟ أم سَبْقَهُم؟ أم تريد الذهاب في طريقك؟... يجب معرفة ما نريد إذا كنا نريده.

الحالة الرابعة للوعي.

ـ ٤٢ ـ

لقد كانوا بالنسبة لي مدارج وقد استعملتهم للصعود. لهذا كان لزاما على أن أمر فوقهم، وكان يتهيأ لهم أنني أستعملهم كي أستريح فوقهم.

ـ ٤٣ ـ

لايهم أن أحوز معرفة! أنا كثير المعرفة. ومن يضحك جيدا اليوم هو آخر من يضحك.

ـ ٤٤ ـ

وصفة سعادتي «نعم» «لا» خط مستقيم، هدف...

وعن سقراط الذي احتل جزءاً كبيراً من الكتاب يقول:

ـ ١ ـ

لقد أنتج الحكماء، في كل الأزمنة، نفس الأحكام عن الحياة:إنها لا تساوي شيئا،دائما وفي أي مكان نستمع إلى نفس القولة تخرج من أفواههم، . قولة مملوءة بالشك،بالكآبة، بالإعياء من الحياة، ومقاومتها،سقراط ذاته، عند وفاته قال: . أن تحيا . هي أن تكون مريضا على الدوام:أنا مدين لأسليبيوس المخلّص . سقراط نفسه حصل له إشباع، . على ماذا يدل ذلك؟علام يؤكد؟ فيما مضى،كنا سنقول (. أوه! لقد قلنا ذلك، وبصوت مرتفع، ومتشائمينا في المقدمة!): . يجب أن يكون بداخل كل هذا شيء من الحقيقي! . فإجماع الحكماء يؤكد الحقيقة . هل يمكننا، اليوم كذلك، أن نقول بمثل هذا؟هل نستطيع ذلك؟ . لابد وفي كل الحالات أن يكون ثمة علة ما .، هذا هو جوابنا: هؤلاء الحكماء من ضمن حكماء كل

الأزمنة،لا بد أولا من النظر إليهم عن قرب! ربما لم يكونوا كذلك،ما داموا،ثابتين على أقدامهم،ربما كانوا متأخرين،متذبذبين،منحطين؟ ربما تظهر الحكمة على الأرض مثل الغراب،يهيجه القليل من رائحة جيفة متفسخة.

-٢-

إن وقاحة اعتبار الحكماء العظام أمثلة للانحطاط في اعتقادي الخاص هو بالضبط الحالة التي تكون فيها الأحكام المسبقة للمثقفين والأميين متعارضة بأكثر قوة معه: لقد تعرفت لدى سقراط وأفلاطون على أعراض للانحطاط،على آليات الانحلال الإغريقي، الإغريقيون المزيفون، والمعادون لهم. (أصل التراجيديا، ١٨٧٢).

إن إجماع الحكماء هذا ـ الذي أفهمه دائما جيدا- لا يدل بتاتا على أنهم على حق،فيما يتشبثون به: إنه يدل بالأحرى على أن الحكماء أنفسهم،ومن ضمنهم جميعا يوجد توافق فسيولوجي يؤدي بهم إلى تبني نفس الموقف السلبي من الحياة، ـ دون الأخذ بشيء آخر.

إن الأحكام المسبقة عن الحياة،معها أو ضدها لا يمكنها في آخر المطاف أن تكون حقيقة:فهي،ليس لها من قيمة سوى كونها أعراضاً ـ فهذه الأحكام في ذاتها ليست سوى حماقات ـ يجب إذن بذل المجهود لملامسة هذه الرقة المدهشة التي لا يمكن لقيمة الحياة أن تفضُل بدونها ـ ليس من طرف حي، لأنه جزء بل هو موضوع الخلاف، وليس حكماً: ولا من طرف ميّت،لسبب آخر. ـ من قبل أحد الفلاسفة، فالنظر الإشكالي لقيمة الحياة تبقى اعتراض ضده، علامة استفهام اتجاه حكمته، تأكيد لا حكمته ـ كيف ذلك؟ وكل هؤلاء الحكماء العظام ليسوا فقط منحطين،لكنهم أيضا لم يكونوا حكماء؟ ـ لكنني أعود الى قضية سقراط.

-٣-

ينتمي سقراط من حيث الأصل إلى طبقة شعبية وضيعة: كان سقراط من وسط شعبي.

ونعرف، ونلاحض أيضا كم كان سمجا، لكن السماجة اعتراض في ذاتها، وهي تقريبا مبرر للرفض بالنسبة للإغريق؟ هل كان سقراط إغريقيا عند نهاية الأمر؟ فالسماجة غالبا هي تعبير عن تهجين،معاق بسبب النمو وبالموازاة تبدو كعلامة على تطور عكسي.

فالانثروبولوجيون من دارسي الإجرام يقولون بأن المجرم النمطي سمج. - قبيح الخلقة، قبيح القلب .، لكن المجرم منحط.هل كان سقراط مجرما مميزا؟ على الأقل هذا لايكون مناقضا لهذا الحكم البليغ للفراسي الذي بهر كل أصدقاء سقراط.

قال الغريب المار بأثينا والعارف بعلم الفراسة، أمام وجه سقراط بأنه وحش وبأنه ينطوي على أقبح العيوب والشهوات،وقد أجاب سقراط ببساطة: - أنت تعرفني جيداً سيدي! ..

- ٤ -

الاضطراب الذي يعترف به سقراط مع فوضى الغرائز ليست علامة وحيدة للانحطاط عنده:

إن تضخم ملكة المنطق وهذا الخبث المعاق هي ما يميزه، لا ننسى أيضا هلوساته السمعية والتي كتبت تحت اسم «عفريت سقراط» تلقوا تأويلا دينيا .كل شيء لديه متضخم، ضفدعي كاريكاتوري، وفي نفس الوقت الكل مملوء بالمضمرات، بالأفكار القبلية، وبالما تحت أرضي. .

أحاول معرفة المزاج الذي انبثقت منه المعادلة السقراطية: عقل - فضيلة - سعادة: المعادلة الممكنة والأكثر غرابة، والتي تقابلها، على الخصوص،كل غرائز قدماء الهيلنيين.

- ٥ -

مع سقراط، الذوق الإغريقي بجانب الديالكتيك: يحيل إلى التساؤل حول ماذا يقع بالضبط؟

قبل كل شيء هو الذوق المميز الذي انتصر مع الديالكتيك يصل به الشعب إلى معرفة ماهو تحت.

مع سقراط كذلك نعزل في أفضل المجتمعات الطرق الديالكتيكية: نأخذ بها في أسوأ الحالات، إنها كانت مشبوهة.

لنحول مسار الشبيبة.كذلك نشك في كل من يقدم حقائقه بالطريقة نفسها.

فالأشياء المعقولة كالأشخاص المعقولين لا تخدم مبادئهم باليد.

إنه خارج المعقول أن نتناول الطعام بخمسة أصابع. فالذي يحتاج الى البرهنة من أجل نضجه لايستحق أي اهتمام. من أجل ذلك حيث ما زالت السلطة، وحيث إننا لا «نعقل» الأشياء،لكن حيث نقودها تنقاد، الجدلي هو نوع من الأراجوز: نضحك عليه ولا نأخذ بجديته.. سقراط تحول إلى ذلك الأراجوز الذي أُخذ بجد:

ماذا وقع بالضبط؟

-٦-

لا نختار الديالكتيك إلا عندما لا نتوفر على وسائل أخرى. نعرف أننا بواسطته نوقظ الحذر،وأنه قليلا ما يقنع.لا يوجد هناك شيء يكون محوه أسهل من أثر الجدلي:تطبيق هذه الاجتماعات التي نتحدث فيها عن التأويل.

إنه ليس إلا سلاحَ من ليس له سلاح كل من يلتجئ إلى الديالكتيك.

يجب أن تتمكن من انتزاع حقك،بالموازاة إننا لا نستعمل تلك الحقوق.من أجل ذلك كان اليهود مناطقة،المعلم رونارت كان كذلك:كيف ذلك؟ سقراط أيضا هل كان كذلك؟

-٧-

هل كانت سخرية سقراط تعبيرا عن تمرد ما؟ عن ضغينة شعبية؟ هل كان مقموعا،شراسته الخاصة عند طعنه من خنجر الجدل الشكلي؟هل كان يثأر من الكبار الذين كان يفتنهم؟

كجدلي بيدي أداة لا ترحم ونستطيع بوساطتها القيام بالتسلط المشبوه لتحقيق الانتصار، الديالكتيكي يترك لخصمه البرهنة على أنه ليس غبيا: يحوله إلى ساخط وفي نفس الوقت يحرمه من أي نجدة.

الديالكتيكي يشل ذكاء خصمه، ماذا؟

ألم يكن الجدل،عند سقراط، سوى شكل من أشكال الانتقام؟.

-٨-

لقد اهتممت بالكيفية التي جعلت سقراط مُبعَدا: ولا غنى عن تفسير الكيفية التي جعلته مدهشا - هذه أولى الأسباب: لقد اكتشف ضربا جديدا من المصارعة وأصبح فيها المحارب الأول في الأوساط العليا لأثينا.

لقد فتن لملامسته غريزة الحرب لدى الهيلنيين، . وقد أدخل تشكيلات جديدة في اللعب بالميدان بين الفتيان والشباب. كان سقراط كذلك أيروسيا كبيرا.

-٩-

لكن سقراط توقع شيئا آخر.لقد استبطن أحاسيس نبلاء أثينا، وفهم أن حالته، وخاصيتها لم تعد بعد حالة استثنائية.

نفس النوع من الانحطاط يتهيأ بصمت وفي كل مكان: أثينا القديمة كانت عند نهايتها. . وقد أدرك سقراط أن الكل أصبح بحاجة اليه،بحاجة علاجه،لأسلوبه الشخصي لحفظ النوع.

كانت الغرائز تسبح في الفوضى،في كل مكان، الإنسان كان على وشك الوقوع في المغالاة: هو الخطر الكوني.

«لقد أرادت الغرائز أن تلعب لعبة الاستبداد: يجب أن نخترع نقيضا للاستبداد للتغلب على هاته الغرائز».

عندما كشف عالم الفراسة لسقراط ما كان عليه، مَعلّم لكل الشهوات

السيئة،تلفظ الساخر الكبير بكلمة أعطيت المفتاح لطبيعة شخصيته. «صحيح، قال،غير أنّي أصبحت سيد الكل».

كيف سيطر سقراط على نفسه؟ ـ حالته لم تكن في الحقيقة سوى الحالة القصوى، التي تقفز للعيان مع البداية لتنتشر كحالة توتر عام:لم يعد أحد يتمالك نفسه: كانت الغرائز تتعرج ضد بعضها البعض إذا كان فاتنا بنفسه كحالة قصوى والتي كان قبحه الفظيع يعبّر عنها في نظر الكل: كان يفتن، هذا مُسلَّم به،لأنه كان جوابا،حلا،مظهرا،علاجا ضروريا في هذه الحالة، .

ـ١٠ـ

عندما نكون مجبرين على أن نجعل من العقل مستبدا .كما فعل سقراط.الخطر لا بد أن يكون رفيعا كالأشياء الأخرى في مواجهة الاستبداد،من هناك تصورنا للحقيقة المتحررة،لا سقراط ولا "مرضاه"،- لهم الحرية في أن يكونوا عقلانيين- كانت هي الأمل الأخير للخلاص، إن التعصب الذي يضع رد الفعل الاغريقي في مجمله مرميا على الحقيقة،خائن للإحساس بالغربة: نحن في خطر، ليس لنا الا الاختيار: أو الغرف حتّى النخاع، أو نكون منطقيين حتّى العبث.. إن أخلاقية الفلاسفة الاغريق منذ أفلاطون محددة باثولوجيا، كذلك تفضيلهم لحالات الجدل. إن المعادلة: «عقل = فضيلة = سعادة» تعني فقط: يجب تقليد سقراط وأن نقيم ضد الشهوات المعتمة نوراً سرمدياً ـ النهار الذي يكون نور العقل. يجب أن يكون المرء حذراً،دقيقاً، واضحا: كل تنازل لصالح الغرائز، لصالح اللاشعور، لا يقود إلا للهاوية.

ـ١١ـ

لقد اهتممت بالكيفية التي جعلت سقراط يفتن: إنه يبدو كطبيب، كمنقد.أما يزال ضروريا أيضا إظهار الخطأ الذي يوجد في اعتقاده بـ «عقلية مهما كان الثمن»؟ ـ من جهة الفلاسفة والأخلاقيين يعتبر الاعتقاد بالانفلات من الانحطاط مجرد التحيز ضده، ليس في مقدورهم الهروب منه،إن ما يختارونه كوسيلة

خلاص، كعلاج، ليس سوى مظهر من مظاهر الانحطاط. لا يفعلون سوى تغيير التعبير عن ذلك،دون القدرة بتاتا على إلغائه.

حالة سقراط تقوم على سوء فهم، كل الأخلاقية الكاملة،بما فيها المسيحية تقوم على سوء فهم ...إن الضوء الأكثر توهجا، العقلية مهما كان الثمن، الحياة الواضحة، الباردة، الحذرة، الواعية، المجردة من الغرائز.

فمقاومة الغرائز لم تكن سوى مرض جديد في حد ذاتها. ولم تكن أبدا العودة إلى «الفضيلة»، إلى الصحة والسعادة..

أن يرغم الإنسان على مقاومة غرائزه. تلك هي وصفة الانحطاط: ما دامت الحياة تأخذ منحى تصاعديا، فالسعادة تطابق الغريزة.

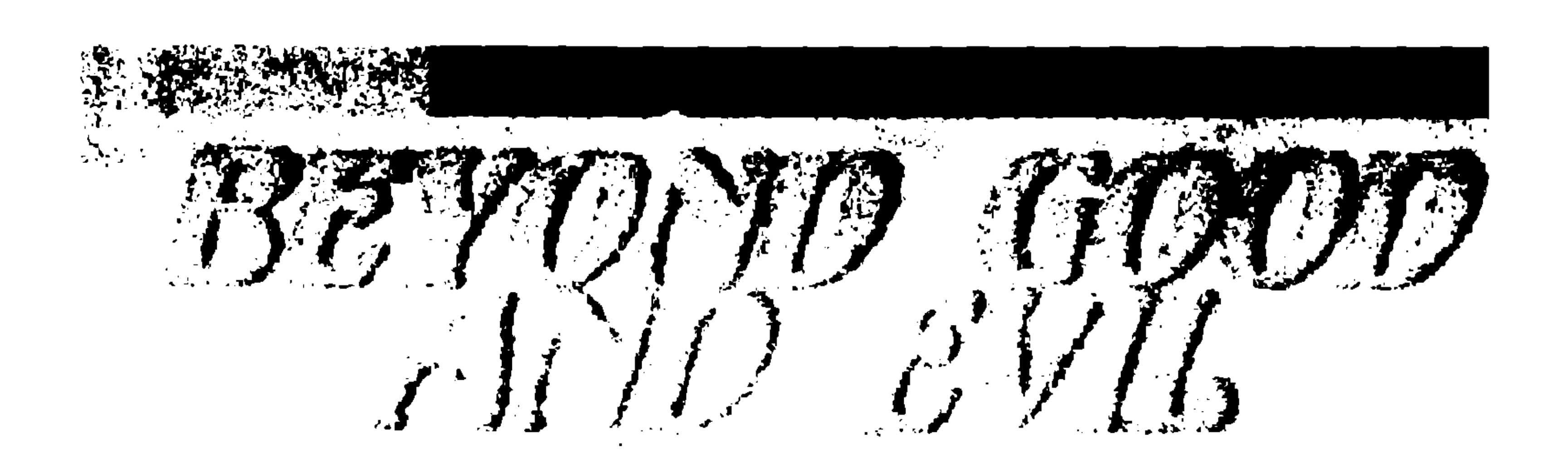
-١٢-

هل فهم ذلك من نفسه، هو الذي كان الأكثر دهاء من بين كل أولئك الذين خدعوا أنفسهم؟ هل أسرَّ لنفسه بذلك آخر المطاف في حكمته الجسور اتجاه الحياة؟... لقد أراد سقراط أن ينهي حياته: - ليست أثينا، إنما هو من مد لنفسه كأس سم الشكران، لقد أجبر أثينا على أن تمدّها له...

«سقراط ليس طبيبا، همس لنفسه: وحده الموت هو الطبيب... أما سقراط فلم يكن إلا مريضا لزمن طويل...».

(٣)

كتابه «ما وراء الخير والشر»





Friedrich Nietzsche

«ما وراء الخير والشر» كتاب ينتمي إلى المرحلة الختامية من حياة نيتشه المبدعة، ويتميز بأسلوب جديد لم يعهد في مؤلفاته قبلاً فهو يخلو من أية كلمة طيبة، فقد أتت تعابيره قاسية وصارمة وفعّالة. ففي كتابه هذا يعتمد وبأسلوب عنيف نقد الحداثة التي دخلت حياة البشر وشتتتها، لتجعل منها أداة تحركها بما يتناسب مع متطلبات الحياة الحديثة.

فأطلّ على أعماق نفسه بنظرة متفحصة ليكتب لنا بعبارات مختصرة رأيه في العديد من المواضيع التي تعدّ بنظره ذات أهمية ويجب أن تنقد وتوضح ولكن بأسلوبه الجديد البعيد عن الحداثة.

يقول نيتشه في كتاب «ما وراء الخير والشر» إن الانسان مرَّ بمرحلتين في طريقه لإدراك حقيقة الأخلاق. فالمرحلة الأولى كانت ما قبل الأخلاق، إذ كان معنيّاً بما يترتبُ على الأعمال من نتائج. المرحلة الثانية كانت مرحلة الأخلاق، إذ صار يتدبر في النوايا و البواعث (كانط كمثال). المرحلة الثالثة يجب أن تنظر إلى ما وراء الخير و الشر، و أن تفهم أن أعمالنا تنبعث من اللاوعي، و أن تفهم مصدر الأخلاق وتتصرف حسب إرادة القوة.

تحدثَ نيتشه بشكلٍ أوضح و أكثر منهجية عن فلسفته الأخلاقية في كتابهِ «شجرة أنساب الأخلاق»، و لقد قسّم كتابه ذاك إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يعالج مفهومي الخير و الشر، و يفحص نشأة الأخلاق ككل. يعتقد نيتشه أنه ليس هناك خير مطلق وشر مطلق، و إنما المسألة نسبية وتعتمد على وجهة انطلاقها. ولكي يقضي على الأخلاق المعروفة، قام بتتبع نشأتها حسب أصول علم الألسنة الذي تخصص فيه. يعتقد نيتشه أن الأخلاق يجب أن ترتبط بإرادة القوة، الحقيقة الوحيدة على وجه الأرض. كل الكائنات الحية تتصرف تبعاً لهذا المنطلق، وما التكيف الطبيعي الذي تحدث عنه داروين سوى صورة ضعيفة

لإرادة القوة. لقد نشأت الأخلاق متماشيةً مع إرادة القوة، فأصبحت قيم النبلاء (الأقوياء) التي تنادي بالقوة والسيادة هي الخير، وما عداها شرا. ولذلك وكردة فعل عاجزة، قام الضعفاء والرعاع بالترويج لأخلاقياتهم (التسامح، الحب، الشفقة، الإيثار) على أنها خير، و ما عداها شر. لقد كان باعثهم في ذلك هو الحقد، والحقد مستهجن عند نيتشه لأنه حقد عاجز ضعيف لا يملك أن يغيّر ويتصرف حسب إرادة القوة. إن الأخلاق اليهودية والمسيحية هي أخلاق الضعفاء التي جاءت كردة فعل على أخلاق النبلاء الوثنيين والرومانيين. ولذلك ولأن نشأة أخلاق الرعاع - التي تحوت خيراً فيما بعد - ذات أصل وضيع، يشكك نيتشه في جدوى الأخلاق ويطعن فيها.

القسم الثاني: يتعاطى مع ظاهرة «تأنيب الضمير». نيتشه يهاجم هذه العاطفة، و يعدّها من أخلاق الضعفاء.. إن إرادة القوة و ممارستها على الضعفاء تورث صاحبها سعادةً ظاهرة، و لذلك إذا وجد الشخص نفسه أمام عقبةٍ تحد من ممارسته لإرادة القوة، ترتدُّ هذه الإرادة إليه داخليّاً، ليشعر بها كتأنيب ضمير. تأنيب الضمير هو أحد الأشكال العاجزة عن ممارسة إرادة القوة، ولذلك يهاجمه نيتشه، و يهاجم المسيحية و الأديان التي تضعه ضمن منظومتها الأخلاقية.

م **الثالث:** يتعاطى مع ظاهرة الزهد. يعتقد نيتشه أنَّ الزهد هو أكثر الظواه تناقضاً مع الحياة، و لو أن مخلوقاتٍ نظرت إلى كوكبنا من بعيد لتعجبت من هؤ ، الأشخاص الذين يحرمون أنفسهم ذاتيّاً من السعادة. الزهد هو إرادة قوة مو هة ذاتيّاً لتدمير نفسها، و ليس هناك ما هو أكثر تناقضاً مع الحياة من ذلك. الزهد يمثّل أشد درجات العجز عن ممارسة إرادة القوة، إذ إن الزاهد عندما وجد نفسه عاجزاً عن ممارسة هذه الإرادة في مجتمعه، قام بتوجيهها ذاتيّاً كي يدمرَ نفسَه.

و الآن.. ما الذي أعيبه على فلسفة نيتشه الأخلاقية؟

لقد قام نيتشه بمهاجمة الأخلاق وإلغائها بواسطة تتبع أصلها التاريخي والسيكولوجي، ولم يقم بفحصها من منطق براغماتي يهتم بأدائها الحالي أكثر من اهتمامه بأصلها التاريخي. إن مَثلَ نيتشه في منهجه هذا كمثلِ من يطالب بطردِ إداريٍّ ناجح لأنه ابن زنا!

و لكن.. ورغم أهمية هذه النقطة، إلا أن أكثر ما أنتقده على نيتشه هو ربطه الأخلاق بالقوة. ليس هناك مفهومان أكثر تناقضاً واختلافاً في طبيعتهما من هذين الاثنين، وهذا ما سأبينه.



إن أهم خصائص الأخلاق هو قابليتها للتعميم. و لهذا نجد أن كانط يطالب بتعميم الباعث الأخلاقي وجعله باعثاً كونيًا. كي يقوم العقل بفحصه والحكم على مدى تماشيه مع الحياة. لا يمكن عقليّاً أن نجعل من إرادة القوة باعثاً كونيّاً لكل البشر. إذ إنَّ مثل هذا الافتراض سيؤدي إلى تصادم هذه القوى وإتلاف بعضها البعض، مما يتناقض مع معنى الحياة. كما أن طبيعة القوة لا تتماشى مع التعميم، إذ إنها لا تُكتسبُ إلا بانعدامها من طرفٍ آخر.

إذا كانت إرادة القوة غير قابلة للتعميم لتصبحَ باعثاً أخلاقيّاً كونيّاً، فلماذا ينظّرُ لها نيتشه إذن؟ هل هو لا ينظّر إلا لنفسِه ولأشخاصٍ معينين، للصفوة، أولئك الذين يستطيعون الاستعلاء على أخلاق الرعاع، والعيش بانسجام مع إرادة القوة، ليتحولوا إلى الانسان الأعلى، السوبرمان، سيد الأرض!

إن فلسفة نيتشه وكتاباته تتماشى مع هذا الاتجاه، ولكن إن كان هذا صحيحاً، فهو يظهرُ قصوراً واضحاً في فهم طبيعة القوة. إن القوة هي أكثر مظاهر الحياة تحركاً و ديناميكية، ولذلك أتعجبُ كيف تجرأ نيتشه أن يربط الأخلاق التي يفترضُ بها الثبات بأكثر مظاهر الحياة اضطراباً وانتقالاً. لا يمكن لفلسفةٍ أخلاقية مثل هذه - تنظرُ لأقليةٍ قوية تمارس إرادة القوة بحريةٍ مطلقة - أن تتحققَ على أرض الواقع، والسبب يرجع لطبيعة القوة. فمن خصائص القوة، أنها مرتبطة بالكسب والفقد، وهي بذلك لا يمكن أن تُمارس دون أن تُولد أعداء حولَها. ومن خصائص القوة الأكثر أهمية ارتباطها الوثيق بالعدد. العدد قوة، بل هو أكثر أشكال القوة سَحقاً. لقد أرانا التاريخ كيف أن أباطرةً سُحقوا بسبب غفلتهم عن هذه الحقيقة البسيطة: قوة العدد. إن عدد الرعاع المُعدَمين هو الذي سحق الباستيل ووضع رمز الملكية الفرنسية تحتَ المقصلة. لا يمكن أن تُمارس إرادة القوة دونَ أن تخلقَ أعداء، تزداد قوتهم شيئاً فشيئاً بسبب تزايدِ قوة العدد.

لستُ أنقمُ من فلسفةِ نيتشه إلا أنها شغلت العالم و المفكرين عن تطوير مشروعِ كانط الأخلاقي الطموح، والذي يسعى إلى صياغةِ قوانين تعالج البواعث الأخلاقية بطريقةٍ عقلية. إن فلسفة كانط الأخلاقية حسب رأيي أكثر إدراكاً لمفهوم القوة، وخصوصاً أنها مبنيةٌ على مسلماتٍ عقلية أولية. يجدرُ بالأقوياء أن يتبنوا فلسفةً أخلاقية تحميهم وتساويهم بالجميع عندما تزول سلطتهم، فتصرف مثل هذا أجدهُ أكثرَ نضوجاً وأعمق فهماً لطبيعة القوة من فلسفة نيتشه.

مختارات من «ما وراء الخير والشرّ».

وسيط: من كان معلّمًا من أخمصيه إلى رأسه لا يحمل أي أمر على محمل الجد إلا بالنسبة إلى تلاميذه. بما في ذلك هو نفسه أيضا.

زهد الروح: ((المعرفة للمعرفة)) ـ هذا آخر شرك تنصبه الأخلاق: به يقع المرء مرة أخرى فريستها.

إغواء أيضاً: إغواء المعرفة كان سيقلّ، لو لم يكن علينا التغلّب على الكثير من الحياء في الطريق إليها.

في التيوصوفيا: المرء أقل صدقا إزاء إلهه: لا يسمح له بالخطيئة!

منحطّ أم إله: قد يكون الميل إلى إذلال الذات، إلى الخضوع للنهب والكذب والاستغلال حياء الإله مقيم بين البشر !!.

الحب والعدل: الحب لواحد بربرية لأنه يأتي على حساب كل الباقين. بما فيه حب الله.!!.

إعادة تأهيل الذات أخلاقيا: تقول ذاكرتي: ((فعلتُ هذا))، فترد كبريائي: لا يمكن أن أكون قد فعلتُ هذا ـ وتبقى مصرّة. وأخيرا تلين الذاكرة.

المشاهدون اللطفاء: مشاهد رديء للحياة من يغفل اليد التي تقتل برفق.

تضايف قدري: من له طابع مميّز له أيضا تجربة حياتية مميزة تتكرّر أبداً.

الحكيم كفلكي: طالما شعرتَ بأن النجوم ((تعلوك))، فأنت لا تزال تفتقر إلى نظرة العارِف.

سمة الإنسان العالي: ما يصنع الإنسان العالي ليس شدّة الإحساس الرفيع بل دوامه.

بما للأمثل من قوة خاصة: من بلغ أمثله تخطّاه بذلك بالذات.

غرور ألطف: رب طاووس يخفي ذيله الفاخر أمام أعين الجميع ـ ويسمّى ذلك فخره.

ضروري ليُعدّ صالحاً: إن إنسان ينعم بالعبقرية لا يطاق، إلا إذا زاد عليها شيئين على الأقل: الامتنان وحب النظافة.

تطبيق مبادئ: يريد المرء، بواسطة مبادئه، أن يقمع عاداته أو يبرّرها أو يكرمها أو يشتمها أو يخفيها: ـ فإنسانان يحملان المبادئ نفسها يسعيان بها، على الأرجح، إلى أمور متباينة جذريا.

احترام!: من يحتقر نفسه مازال يحترم نفسه بوصفه محتقِراً.

حب من جهة واحدة: إن نفساً تعرف بأنها محبوبة ولا تبادل الحب تتضح بثقلها: ـ أسفلها يطفو إلى السطح.

فتّحوا العيون!: ما من ظاهرات أخلاقيّة البتة، بل ثمة تأويل أخلاقي لظاهرات ما وحسب...

الله ولغته اليونانية: من لطائف الأمور أنّ الله تعلّم اليونانية حين أراد أن يصبح كاتباً ـ وأنه لم يتعلّمها على نحو أفضل مما حصل !! .

حيلة: كلما كانت الحقيقة التي تريد أن تعلّمها أكثر تجريدا، كلما وجب عليك أن تزينها لإغواء الحواس.

إبليس: آفاق رؤية الشيطان لله هي الأوسع، لذا يبعد عنه مثل هذا البعد: أعني الشيطان بوصفه أعتق صديق للمعرفة!! .

حوار: واحد يبحث عن قابلة لأفكاره، والثاني عن شخص يقدّم إليه المساعدة: هكذا ينشأ حوار جيد.

فوق كل القوانين: ما نفعله عن حبّ، يجري دائما ما وراء الخير والشرّ.

(٤)

كتابه : هو ذا الإنسان

HUMAN, ALL TOO HUMAN

A Book for Free Spirits

Translated by Helen Zimmern

FRIEDRICH NIETZSCHE

مختارات من كتاب فريدريك نيتشه ـ هو ذا الإنسان - ECCE HOMO - عن الترجمة عن الألمانية لـ علي المصباح ـ هذا الكتاب يتحدث فيه نيتشه عن نفسه في مواضع عدة فيه. كتب عنه هاشم صالح في موقع الأوان مقالاً بعنوان (عندما يرثي نيتشه نيتشه):



إن آخر ما يمكن يخطر لي أن أعد به هو «إصلاح» البشرية. كما أنني لن أشيد أصناماً جديدة؛ وليعلم القدامى ما الذي يجلبه الانتصاب على قدمين من صلصال. تحطيم الأصنام (وهذه كلمتي المفضلة للتعبير عن «المثل») هي حرفتي، ذلك أنه بمجرد أن ابتدعت أكذوبة عالم المثل قد تم تجريد الواقع من قيمته ومن معناه ومن حقيقته.



(أتطلع إلى كل ممنوع) تحت هذه العلامة سيكتب النصر لفلسفتي ذات يوم، ذلك أن الحقيقة وحدها هي التي ظلت إلى حد اليوم خاضعة جوهرياً إلى الحظر.



مات أبي في سن السادسة والثلاثين؛ كان رقيقاً ولطيفاً وعليلاً مثل كائن مهيأ ليكون عابراً لا أكثر، مجرد ذكرى لطيفة عن الحياة أكثر منه الحياة نفسها. في مثل تلك السن التي شرعت فيها حياته بالانحدار، شرعت حياتي أيضا بدورها في التدهور: في السنة السادسة والثلاثين هبطت حيويتي إلى مستواها الأدنى. كنت أحيا لكن دون القدرة على النظر بعد ثلاثة أمتار أمامي. في ذلك الوقت ـ كان ذلك سنة ١٨٧٩ ـ تخليت عن خطتي كأستاذ ببازل، وقضيت الصائفة في

هيئة شبح بسانت موريس، ثم عشت الشتاء الذي لحقها ـ الشتاء الأقل شمسا في حياتي ـ شبحا في ناونبورغ. كنت في الدرك الأسفل آنذاك؛ وقد جاء كتاب «المسافر وظله» من نتاج تلك الفترة وكنت عندها دون شك ذا خبرة بأمر الأشباح.



أحد الأطباء الذين كان يتعهدني كمريض عصبي قد انتهى أن قال لي «لا، ليست أعصابك هي المريضة، بل أنا المتوتر».



لم أكن أبداً أجيد فن استثارة الناس ضدي ـ وإن هذا أيضا مما أدين به لذلك الأب الذي ليس له من مثيل ـ حتى وإن بدا لي ذلك من الأهمية بمكان. بل لا أذكر أنني استأت مرة واحدة من نفسي ـ بالرغم مما يمكن أن يبدو علي هذا الأمر من عدم تلاؤم مع السلوك المسيحي.



الشفقة لا تمثل فضيلة إلا بالنسبة للمنحطين، وما آخذه على المشفقين هو سهولة تخليهم عن الحياء والاحترام ورهافة الحس، وعدم التمسك بالمسافة الضرورية لحفظ اللياقة، كما أن الشفقة سرعان ما تفوح برائحة الرعاع وتغدو شبيه التماهي بالسلوكات الهجينة ـ إن أيدي الشفقة، وهي على الأرجح أقرب إلى أن تكون مدمرة، بإمكانها أن تتدخل في المصائر الكبرى، وأن تمتد لتعميق وحدة الأنفس المكلومة ونيل الامتيازات التي يمنحها دين ثقيل.



يبدو لي أيضا أن الكلمة الأكثر فجاجة، والرسالة الأكثر خشونة تظل أكثر فضلا وأكثر شرفاً من الصمت. فأولئك الذين يركنون إلى الصمت هم الذين يفتقرون دوماً إلى اللياقة وسماحة القلب. إن لصمتي اعتراضاً، لكن تجرع الغصص ينتج عنه حتما فساد الطبع، بل إنه يفسد حتى المعدة.



شيء آخر هي الحرب. إنني ذو مؤهلات حربية بطبعي. الهجوم هو إحدى غرائزي. أن يكون الواحد قادراً على المعاداة، أن يكون عدوّاً يتطلب التمتع بطبع قوي، وعلى أية حال فإن ذلك أمر مقترن بكل طبيعة قوية؛ إذ هذه الأخيرة تحتاج إلى مقاومة ولذلك تبحث لها عن مقاومة: النزوع العدواني ينتمي بنفس الموجب الضروري إلى القوة، كما تنتمي مشاعر الضغينة والنزوع إلى الانتقام إلى الضعف. فالمرأة مثلاً ذات نزوع انتقامي وهو أمر مرتبط بضعفها، تماما مثل حساسيتها تجاه بؤس الآخرين.



المساواة مع العدو هي الشرط الأول لنزال شريف، وحيثما يوجد مجال للاحتقار لا يمكن للمرء أن يخوض حرباً.



لا أهاجم إلا ما لا حليف لي عليه، حيث أقف وحيداً في المعركة، وحيث لا أورط إلا نفسي... إنني لم أقم البتة بخطوة واحدة إن لم تكن مورطة: ذلك هو مقياسي الشخصي للسلوك الصحيح.



لا أهاجم البتة الأشخاص كأشخاص، بل أستعمل الأشخاص كزجاج مكبر يمكن للمرء بواسطته أن يجعل كارثة عمومية مراوغة ومستترة ومستعصية على الإدراك أمراً مرئياً واضحاً للعيان.



«الله» و «خلود الروح» و «الخلاص» و «الآخرة» كلها مفاهيم لم أعرها اهتمامي ولا منحتها وقتي البتة، ولا حتى كصبي؛ لعلني لم أكن صبيانيّاً بما فيه الكفاية لمثل هذه الأشياء؟ لم أعرف الإلحاد إطلاقاً كنتيجة، وأقل من ذلك كحدث: إنه أمر بدهي من قبيل الغريزة. فأنا فضولي جدّاً وشكاك جدّاً

ومستخف جدا كيما أقبل بجواب بهيئة قبضة اليد. إن الله جواب بهيئة قبضة اليد، وقلة لياقة تجاهنا نحن المفكرين. بل هو في الواقع مجرد ممنوع بهيئة قبضة اليد: لا ينبغي أن تفكروا!.



المشروبات الكحولية مضرة بالنسبة لي؛ تكفيني كأس واحدة من النبيذ أو البيرة في اليوم كيما تتحول الحياة لدي إلى «وادي دموع».



كي أعتقد أن الخمر يبعث الانشراح فلا بد لي أن أكون مسيحيّاً؛ أعني بذلك أن أكون مؤمناً، وهو أمر يعد بالنسبة لي أنا بالذات عبثاً.



أنا لا أقرأ باسكال، بل أحبه كنموذج مفيد لمن ذهب ضحية للمسيحية بقتل نفسه جسديّاً في البداية ثم روحيا فيما بعد: التجسيد الكامل للمنطق الذي يتأسس عليه هذا الشكل المريع من الفظاظة اللاإنسانية؛ وأن أحمل في عقلي.

و - من يدري؟ - في جسدي أيضاً شيء من نزق مونتانيي؛ وأن يتولى ذوقي كفنان الدفاع ليس دون شيء من الضراوة، عن أسماء مثل موليير وكورناي وراسين ضد عبقريات جدباء من نوع شكسبير فإن هذا كله لا يمنعني من أن أجد رفقة لطيفة لدى المحدثين أيضاً من الأجيال الأخيرة من الفرنسيين. إنني لا ألمح عبر مجمل التاريخ قرناً آخر يمكن فيه للمرء أن يجمع بشبكة واحدة مثل هذا العدد من الخبيرين بالنفس البشرية ذوي الحس المرهف والتوق الجامح إلى المعرفة مثلما يرى المرء في باريس الحالية. سأسمي هنا على سبيل الذكر - ذلك أن عددهم ليس بالقليل - السادة بول بورجيه وبيار لوتي وجيب ومايلهاك وأناتول فرانس وجيل لي ماتر، ولكني أميز واحداً آخر من فصيلة الأفذاذ، أذكر ذلك اللاتيني بحق الذي أكن له تقديراً خاصاً وهو غي دي موباسون. وإنني لا أخفي عليكم أنني أفضل هذا الجيل حتى على معلميهم الذين أفسدتهم الفلسفة

الألمانية (مسيو تاين مثلا الذي تأثر بهيغل في سوء فهم كبارات الرجال والحقب التاريخية)، حيثما حل الألمان تكدر صفو الثقافة. الحرب فقط هي التي خلصت العقل في فرنسا.



مرة أخرى أراني أعود للحديث عن فرنسا وأنا أذكر فاغنر. ليس لدي أي رأي ضد أولئك الفاغنريين وكل ذلك الرهط من الناس الذين يعتقدون أنهم يغمرون فاغنر بالشرف إذا ما وجدوه شبيها بهم، ولن أقابلهم إلا بمجرد ابتسامة احتقار طفيفة تتقوس على زاوية الشفتين .... لقد شعرت لدى أول احتكاك لي بفاغنر، أنا الذي أشعر من أعماق غرائزي كلها بالغربة تجاه كل ما هو ألماني إلى حد أن مجرد القرب من أي ألماني يسبب لي سوء هضم، إنني أتنفس بحرية لأول مرة في حياتي: أحسست أنني أقدره كبلد أجنبي، كنقيض واعتراض حيوي على كل الفضائل الألمانية.

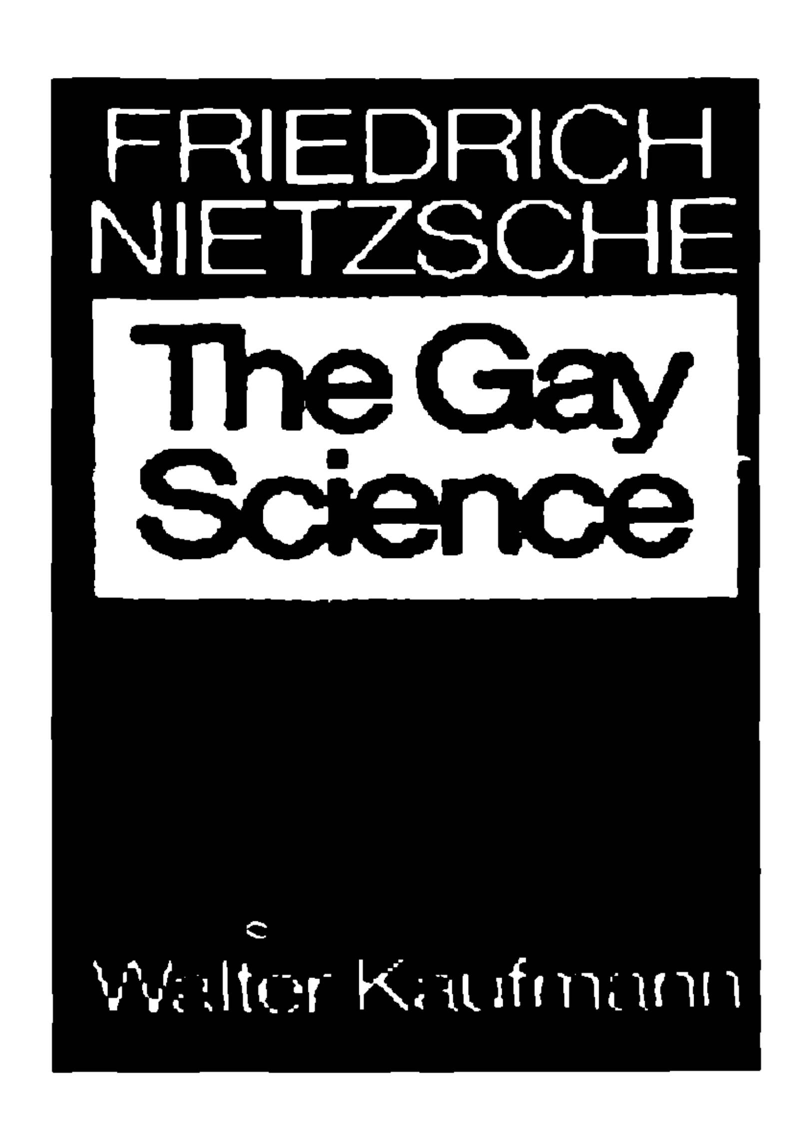


أنا شيء وكتاباتي شيء آخر. وقبل أن أتكلم عن كتبي لا بد من كلمة هنا عن مسألة فهم أو عدم فهم كتاباتي. سأفعل ذلك بما يناسب الأمر من عدم الاكتراث؟ ذلك أن هذه المسألة ما تزال سابقة لأوانها كليا. وأنا بدوري سابق لأواني؛ هناك أناس يولَدون بعد الممات. سيأتي يوم يكون فيه ضروريّاً تكوين مؤسسات يعيش الناس داخلها ويعملون طبقا بمفهومي للعيش والتعليم؛ وقد تؤسس أيضا كَرَاسٍ جامعية لتأويل زرادشت. غير أنني سأكون متناقضا مع نفسي تمام التناقض إذا ما طمعت اليوم في وجود آذان وأيادٍ لحقائقي؛ أن لا يستمع إليّ اليوم، وأن لا يكون هناك من يرغب في الأخذ عني فذلك ما يبدو لي لا أمراً مفهوما فحسب، بل عين التصرف السليم.



(٥)

كتابه العلم المرح



«العلم المرح» ليس هو كتاب فائض عن الحاجة، أو العلم، كما يشي عنوانه، بل إنه على العكس تماما إنه كتاب يبحث في صميم الحياة، فرحا وحزنا، عذابا وسعادة، أدباً وسياسة، مجتمعا وعلماً، أصولا ومعرفة. إنه باختصار كتاب الكتب.

و «العلم والمرح» هو إجادة اللعب والتحدي، «وهل نحن في الحياة إلا جلاّس مائدة كبرى للسخرية والمقامرة».. إن أعظم ما ارتكب من أخطاء في الحياة هو من قول القائل: «ويل للضاحكين في هذه الدنيا» فإن من جاء بهذا الإنذار قصَّر في التفتيش، فما وجد على الأرض شيئا يستحق الضحك، في حين أن الأطفال يجدون ما يضحكهم.

تضّمن الكتاب في بدايته «هزء مكر وانتقام» وهو عدد من المقطوعات الشعرية القصيرة، والتي تشكل بمجموعها قصائد لنيتشه تمتاز بدقة بالغة في التصوير اللغوي والإيحاء الصارم لمعنًى صارم في جديته، ومتابعته الدؤوب لوضع القارئ داخل دائرة التجربة:

نعم أعرف أصلي

شره كاللهب

أستهلك نفسي متوهجاً

نورا يصبح ما ألمسه

فحما يمسي ما أتركه

مؤكد، أنا لهب.

تناول نيتشه في القسم الأول من الكتاب عدداً من المقطوعات الفلسفية، التي تتبنى أفكاراً فلسفية وموضوعات وشذرات حياتية، تحت عناوين فرعية (وكذلك

في أقسام الكتاب الأخرى) بغية تسديد الوعي لهدف جمالي وموضوعي في الحياة.

فمثلا يرى في دراسة مشكلة الصحة الاجتماعية لشعب ما، لحقبة، لجنس ما، للإنسانية، هي بانتظار مجيء فيلسوف طبيب حكيم زمانه والأزمنة.

«أو الولد المختل إنما هو الضحية البريئة تصفع الطبيعة به أوجه الرجال الفاحشين والنساء الطامعات المضللات».

«لا صلاح لأمة فقدت منابت أطفالها. وهذه عبر التاريخ ماثلة لعيان من يريد أن يرى».

وعن الأفكار والألم يقول، حينما لا يجد مناصاً من التشخيص: «يجب علينا أن نُوَلِّد دوما أفكارنا من صميم آلامنا، وبأمومة تنعم عليها بكل ما فينا من حياة، من حب ورغبة، من شغف، من وجع، من شعور، من مصير من حتمية أن نحيا - وهذا يعني بالنسبة لنا: أن نغير باستمرار كل ما نحن عليه نوراً ولهباً» (...) «وحدة الألم العظيم هو المحرر النهائي للعقل».

وحينما يغوص نيتشه في دخائل الإنسان وفي الثوران الداخلي لهذا الكائن الحي، فإنه يلحظ فيكتب: «كلنا يحمل في داخله أغراساً وحدائق سرية، ولاختيار تشبيه آخر فنحن جميعا براكين نامية تنتظر ثورانها: أما أن نعرف ما إذا كان (هذا الثوران) قريبا أو بعيدا، فلا أحد قط يعرف ذلك».

وعن الشعوب ومعيار نموها يقول: «إن معيار قدرات النمو لدى الشعوب له من الأهمية قدر ما للموسيقى» لكنه يرى في الآن نفسه «أن الشعور هو النمو الأخير والأكثر تأخرا في الحياة العضوية، وبالتالي، الأقل تكاملا، والأكثر تعرضا للعطب منها». لأن تمثل المعرفة وجعلها فطرية، ذلك ما يؤسس حتما دوراً جديداً، إذ إن الغاية الأخيرة للعلم ستكون توفير ما أمكن من المتعة للإنسان، وتجنيبه أدنى انزعاج ممكن، ومن يريد أن يتحمل عبء المتعة لا بد عليه من أن يكون مستعدا

في الآن نفسه لتحمل المقدار نفسه من عبء الانزعاج، ومن يريد أن يتعلم الابتهاج حتى السماء، يجب أن يتهيأ لكي يكون حزينا حتى الموت.

وحينما يرى نيتشه الفساد مستشريا في المجتمع، فإنه يربطه مباشرة بالخرافة المتنوعة التي يعرفها بأنها: «فكر من الدرجة الثانية» والخرافي أناني جداً، ففي أزمة «الانحطاط» بالضبط تتردد المأساة على البيوت وتعم، ويولد الحب الكبير والكراهية الكبيرة في آن.

أما في مراحل الفساد، فإن الإهانات والتنكيل بالكلام وبالنظر، تبلغ أقصى تمثلها.. آنئذ نشأ الخبث والرغبة فيه، كذلك أنواع أخرى من الاغتيالات غير تلك التي تضع حدّاً لحياة الناس بالخنجر أو الرصاصة والغدارة (المسدس) .

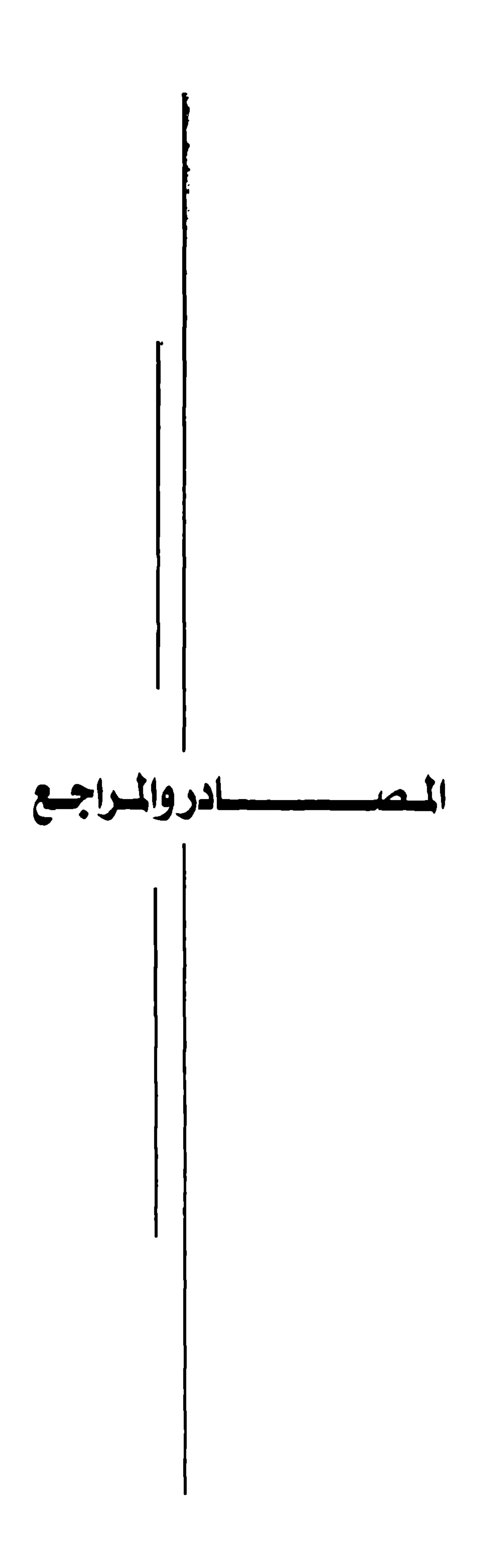
أما عن الأزمنة الحاضنة فإنه يرى أن «أزمنة الفساد هي تلك التي تسقط فيها الثمار من الشجرة، أعني الأفراد الحاملين لبذور المستقبل، المحرضين على الاستعمار الروحي، وعلى تكوين أعضاء جدد للدولة وللمجتمع. إن مصطلح «الفساد» ليس سوى واحد من مصطلحات احتقار المرحلة الخريفية لشعب ما».

أما بالنسبة للإيقاع في الشعر فإنه يرى «أن الإيقاع إرغام، يولد رغبة في الخضوع لا تقاوم، في تبني الاتفاق، ليس التعقب فحسب، ولكن الروح ذاتها التي تقتفى الوزن» ويستطرد «عند الفيثاغورثيين كان الشعر يبدو مذهباً فلسفياً أكثر من وسيلة فن تربوي، ولكن قبل أن يكون هناك فلاسفة بوقت طويل كنا نعترف للموسيقى بميزة تحرير الأهواء، تطهير الروح، تخفيف (روح العنف) وذلك بالإيقاع الموسيقي بالضبط»، ويرى أيضا أننا «من دون الإيقاع لم نكن شيئا وأن الأكثر حكمة بيننا سيصبح مجنون الإيقاع».

أما في حديثه عن النثر فإن كلامه يأخذ بعداً وشكلاً آخرين، إذ يرى أننا لا نكتب نثراً جيداً إلا بالقياس إلى الشعر، لأن النثر ليس سوى حرب مستمرة مع الشكل الشعري، ولكل مفاتنه التي ترتكز على تجنب الشعر ومناقضته باستمرار، لأن كل مفهوم مجرد يريد نفسه كعفرتة مخالفة للشعر.

نيتشه الذي عاش حياته يردد دائما «لا يزال عليَّ أن أحيا لأنه لا يزال علي أن أفكر» يتحدث بإسهاب عن ذروة الحياة، وفكرة الموت، وصداقات النجوم وهندسة محبي التأمل، ومعرفة الاهتداء إلى النهاية، والثقة في النفس ومتعة العمر، والنبرات العليا للروح، حيث كتب عن سقراط قائلا: «أعجب بشجاعة سقراط وبحكمته في كل ما كان يفعله، في كل ما كان يقوله، وفي كل ما لم يقله، هذا الشيطان وملتقط فئران أثينا الساحر والمحب الذي كان يجعل أكثر الشبان تكبراً يرتعشون وينتحبون، لم يكن فقط أَحكَم ثرثار وُجد على الإطلاق لقد كان له عظمة بنفس القدر في الصمت».

أما عن مسألة الوضوح والغموض في الكتابة كمشكلة بين الكاتب والمتلقي، نعاني منها في أيامنا هذه يقول: «حين نكتب لا نحرص فقط على أن نفهم، لكن أيضا على ألا نفهم، لو أن شخصا كائنا من كان حكم على كتاب مَّا بأنه غير مفهوم فليس ذلك اعتراضاً كافياً عليه إطلاقاً، فلربما كان هذا داخلا بين نوايا المؤلف، فهو لم يرد أن يُفهم من طرف «أيّاً كان» كل عقل، كل ذوق رفيع يختار مستمعيه حين يريد أن يتواصل، وبذلك نفسه يرسم حداً لل «آخرين» من هنا تنشأ كل قوانين الأسلوب المهذبة.



المصادر والمراجع

مصادرومراجع

- موسوعة الفلسفة ـ د. عبد الرحمن بدوي.
- نيتشه بين الشعر والفلسفة ـ فيصل قرقطي.
- نيتشه ـ جيل دولوز.
- نيتشه مفتتاً.. بيير بورديو.
- أقدم لك نيتشه.. لورانس جين وكيتى شين.
- محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه.. صفاء جعفر.
- نيتشه ـ د. عبد الرحمن بدوى.
- هكذا تكلم نيتشه ـ سمير عبده.
- الإنسان المتمرد ـ ألبير كامو.
- عدو المسيح ـ فريدريك نيتشه ـ ترجمة جورج ميخائيل ديب ـ دار الحوار. اللاذقية.
- هكذا تكلم زرادشت ـ فريدريك نيتشه ـ ترجمة فليكس فارس ـ دار القلم بيروت.
- نيتشه عدو المسيح ـ يسري إبراهيم ـ سينا للنشر ـ القاهرة.
- مذاهب فكرية معاصرة ـ د. محمود مزروعة.
- مفهوم الجسد عند فريدريك نيتشه ـ صالح الفرياضي.
- فرويد ونيتشه ـ سعاد حرب.
- الإنجيل الخامس لنيتشه ـ بيتر سلوتردايك.
- ديوان نيتشه.. فيلسوف القوة والشّعر والجنون والوهم ـ خضر الآغا.
- ديوان نيتشه ترجمة: محمد بن صالح ـ دار الجمل كولونيا.
- من أشعار الفيلسوف «فريديريك نيتشه» ـ أريج الفَرَج.
- العلم المرح ـ ترجمة: حسان بورقية، محمد الناجي (أفريقيا الشرق) ـ طبعة ٢٠٠٠م.
- نيتشه والمرأة ـ حمدة خميس.

- هذا هو الإنسان - نيتشه - ترجمة: علي مصباح، الطبعة الأولى، كولون ألمانيا، منشورات الجمل، ٢٠٠٣.

٢- نيتشه، فلسفة الإنسان الأعلى، إعداد: د. جميل قاسم، الطبعة الأولى، بيروت، دار الأنوار، ٢٠٠٧.

- ما وراء الخير والشّر - نيتشه - ترجمة - تحقيق: جيزيلا حجّار - موسى وهبة، الطبعة الأولى - دار الفارابي.

- العلم المرح - نيتشه ترجمة وتقديم: حسّان بورقيّة ومحمّد الناجي - الدّار البيضاء.

- أفول الأصنام - نيتشه - ترجمة: حسّان بورقيّة و محمّد الناجي - الدّار البيضاء.

- محاولة جديدة لقراءة نيتشه - د. صفاء جعفر.

- قصة الفلسفة - ول ديورانت - ترجمة : د. فتح الله محمّد المشعشع - دار المعارف - بيروت.

- في عالم نيتشه - د. ماهر شفيق فريد.

- نيتشه والتحليل النفسي - د. عبد الغفّار مكاوي.

- نيتشه فيلسوف العلمانيّة الأكبر - د. عبد الوهاب المسيري.

- نيتشه بين فلسفة التاريخ والأخلاق - د. علي حسين الجابري.

- هتلر ونيتشه - محمد الحجيري - الجريدة الكويتية.

- نيتشه مِن الموسيقى إلى الفلسفة - محمد المزوغي.

- نيتشه ومفهوم التراجيديا. إدريس جبري.

- الإنسان في فلسفة نيتشه فادي كحلوس.

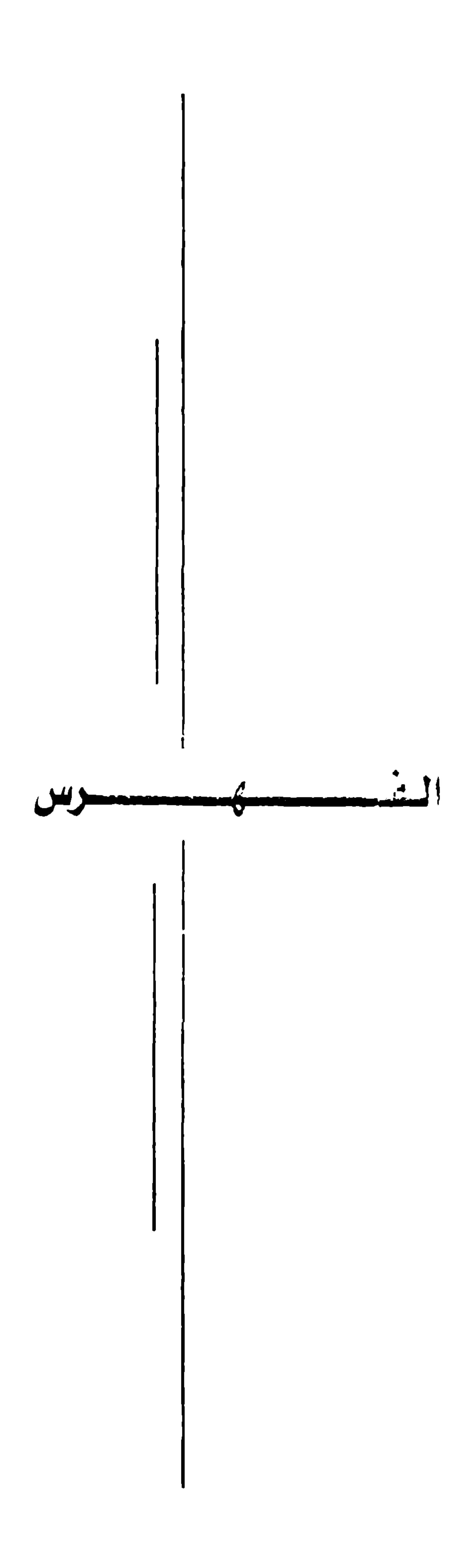
- أفول الأصنام لفريدريك نيتشه - عبد النور إدريس.

- في الفكر الغربي المعاصر - د. حسن حفنى بيروت دار التنوير.

- قصة الفلسفة الحديثة - أحمد أمين.

- داروين ونيتشه أو تفاهة الأصل - عصام عبدالله.

- نيتشه: الضحك والتراجيديا - اليكسيس فيلونينكو - منشورات المكتبة العامة الفرنسية - باريس.



الفهرس

فهرس الكتاب